

طَه حَسَيْن

نَقْدُ
وَإِصْلَاح

دار العلم للملايين - بيروت

طريقتين

نقد وإصلاح

الطبعة الثانية

دار العلم للملايين
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ، بيروت كانون الثاني ١٩٥٦

الطبعة الثانية ، بيروت كانون الثاني ١٩٦٠

خطأ التقدير

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي ألبير كامو

هذا لون جديد من الادب التمثيلي عرفه الفرنسيون منذ
أواخر الفترة التي انقضت بين الحربين العالميتين ، أو قل ان
شئت الدقة انهم عرفوا أصوله في هذه الفترة ولكن انتاجهم
فيه لم يستكمل قوته ونضجه الا أثناء الحرب العالمية الثانية
ولم يظهر الا في أعقابها ، وهو صورة للنفس الاوروبية
منذ انقضت الحرب العالمية الاولى وتركت ما تركت من
الآثار البغيضة ، ومن ذكرى الاحداث المروعة التي صبتها
على الناس .

· وصورة كذلك لما دفعت اليه النفس الاوروبية حين
جعلت نذر الحرب الثانية تسعى الى الناس متواترة يقفون
بعضها اثر بعض ، مجددة ما عرف الاوروبيون من الخوف

والهلع ، ومن الروع والجزع ، أثناء الحرب الاولى ، ممهدة
لكثير منهم طريق التفكير المظلم المتشائم الذي لا يرى
في الدنيا الا شراً ولا يرى الخير والنعم في هذا العالم
الحديث الا وهماً ، بعد ان أتيح للعقل ما أتيح له من
الرقى ، وتم للعلم ما تم من التقدم ، وبعد ان استكبر العقل
وطغى ، واسرف في الكبرياء والطغيان ، وغره ما وفق اليه من
استكشافات ، وبعد ان تسلط غرور العقل هذا على حياة
الناس ، فاشاع فيها ضرراً من فساد الخلق وسوء التقدير
للقيم الموروثة التي كانت الحياة تعتمد عليها وتألف منها ،
أثناء القرن التاسع عشر بل في القرون التي سبقتة .

فقد نشأ عن هذا كله اثار الانسان لنفسه بالخير من
دون غيره من الناس . وشاعت هذه الاثرة في الافراد اول
ما شاعت ثم تجاوزتهم الى الجماعات ثم تجاوزتهم الى الشعوب .
وكان من هذه الاثرة الفردية والاجتماعية والدولية ان
ضعف التضامن ، ووهت الصلات بين الناس ، ومضى كل
فرد لا يلوي على شيء جامعاً في طريقه الى تحقيق آرائه
ومنافعه ، ومضت الامم كما مضى الافراد غير ملوية على
شيء ولا حافلة بشيء الا أن يكون التسلط على أعظم
جزء ممكن من الارض والانتفاع بأعظم حظ ممكن من
الموارد ، والاستعلاء لا على الضعفاء وحدهم بل عليهم وعلى
الاقوياء أيضاً .

كل ذلك أدى الى اثاره الحرب فانتصر المنتصر وأطغاه

انتصاره ، وانهزم المنهرم وأحفظه انهزامه ، فأضمر الشر واستعد
للتأر ، واختلف المنتصرون في اقتسام الغنائم فامتلات الدنيا
فساداً واضطراباً . وما دام الادب صورة لحياة الناس ،
فقد صور الادب الاوروبي بين الحربين آثار هذا كله ،
ثم صور ما ملأ النفوس من روع وهلع ، حين تتابعت
نذر الحرب الثانية . فنشأ الادب المظالم الذي سماه الاوروبيون
في ذلك الوقت الادب الاسود . نشأ في اوروبا الوسطى
كما نشأ في أمريكا ولم يلبث ان شاع في فرنسا كما تشيع
النار في الحطب .

ونشأت فلسفة متشائمة الى جانب هذا الادب المتشائم
تقوم على اعتداد الانسان بنفسه وببنفسه وحدها ، وعلى اهدار
القيم القديمة واستحداث قيم جديدة لا تكاد تحفل بالفضيلة
والخير ولا بالحق والجمال . كما عرفها الناس من قبل .
ولم تلبث هذه الفلسفة ان تجاوزت مكاتب الفلاسفة
والمفكرين الى رؤوس الشباب فاحدثت شراً كثيراً ، أحدثت
استهتاراً بالنقائص على اختلافها ، وافتهازاً للفرص واختلاصاً
للذات كلما أتبحر اختلاصها ، وازدراء للاوضاع الاجتماعية
المألوفة واستخفافاً بالسنن الموروثة . كما أحدثت زهداً في
الحياة وسخطاً عليها ونفوراً منها وتهالكاً على الانتحار . ثم
جاءت الحرب الثانية فأضافت شراً الى شر ، ونكراً الى نكر ،
وثبتت في نفوس الناس ما كان يضطرب فيها اضطراباً ،
وأقرت في عقولهم وقلوبهم ما كان يخطر لها ولا يكاد

يتأصل فيها .

وعظم خطر الادب المظلم هذا كما عظم خطر الفلسفة
المتشائمة تلك .. فشاع في الشعر وشاع في المقالات ، وشاع
في القصص ، وحاول ان ينقذ الى التمثيل فأتى به له شيء
من "نجاح أول الامر" ، ولكن الناس لم يلبثوا ان انصرفوا
عنه وزهدوا فيه . واصبح التمثيل المتشائم هذا أدباً يقرأ
ولا يكاد يعرض على النظارة حتى يستخفي لان الجماعات
لا تثبت للتعلم الفلسفي وانما هي تذهب الى ملاعب
التمثيل تلمس فيها الجد الذي يثير العواطف ويدعو الى
العبرة والموعظة ويكفل المتعة الادبية الخالصة ويخرج الناس
عن أطوارهم التي ألفوها ويحط عنهم أثقالهم التي تنوء بهم
أثناء النهار أو يلتمسون فيها الفكاهة التي تسري عنهم الهم
وتغري بهم الضحك وتسوق اليهم الرضى وتهدي اليهم
الفائدة من حين الى حين .

فأما الجلوس الى تعمق الحقائق الفلسفية العليا فليس من
جمهور النظارة في شيء ، وجمهور النظارة كما تعلم يتألف
من أخلاط من الناس تتفاوت حظوظهم من الثقافة والمعرفة
وحسن الاستعداد ، والتأني لمواجهة ما يثير العقل من
المشكلات .

وكاتبنا الذي أقدم لقصته بهذه المقدمة الطويلة أحد
هؤلاء الأدباء المتشائمين الذين أخذ التشاؤم عليهم نفوسهم
من كل أقطارها ، وهو قد واجه قراءه في أواخر الحرب

الثانية وفي أعقابها بمذهبه الفلسفي المشهور ، مذهب العبث ، وهو مذهب قديم في أصله جديد في صورته يقوم على أن وجود هذا العالم لا حكمة له فيما يرى العقل : فلا تسل اذن عن غاية هذا الوجود أو عن علته ، فالعقل لا يعرف له علة كما انه لا يعرف له غاية ، والعالم عند هذا الكاتب أشبه شيء بالاسطورة القديمة التي اتخذ منها اسماً لكتابه ذاك وهي أسطورة البطل اليوناني كيزينوس الذي قضى الآلهة عليه ان يرفع صخرة من أسفل الجبل الى قمته فهو لا يزال يدفع هذه الصخرة أمامه حتى ينتهي بها الى القمة . ولكنها لا تبلغها حتى تنحدر عنها الى القاع ، فهو في جهد متصل ، ولكنه جهد لا غاية له ولا نفع فيه .

ثم لم يكتف الكاتب بأن يصور مذهب هذا في كتاب أدبي فلسفي وإنما أراد ان يذهب به مذهب التمثيل ، فوضع طائفة من القصص احداها قصتنا هذه وهي تعتمد على أسطورة شائعة في أوروبا الوسطى فيما يقال .

وتلخيصها يسير . فالفصل الاول منها يرفع فيه الستار عن فندق متواضع من فنادق القرى تديره أيمّ وابنتها وخادم لها شيخ ، وقد تعودت الام وابنتها اقتراف نوع غريب من الجرائم فهما تستقبلان أضياف الفندق وقلما يتزل الناس به لانه بعيد منعزل في قرية قلما يُلم بها غرباء ، فاذا كان الضيف فقيراً ومتوسط الثراء ألم بالفندق في سر

وانصرف عنه في سلام . واذا كان غنياً ظاهر الثراء ألمّ
بالفندق ولكنه لا يخرج منه الى حيث يخرج الاضياف
الاحياء ، وانما يُسقى قدحاً من الشاي فيه منوم ، فساذا
أغرق في نومه أقبلت الام وابنتها وخادمهما عليه فاحتملوه
الى النهر غير بعيد والقوه فيه أثناء الليل واحتجزوا ماله
وحرقوا ثيابه واوراقه وكل ما يدل عليه . ولهذا الایسم
ابن قد غاب عنها في طلب الثراء منذ عشرين عاماً وانقطعت
عنها أخباره فهي لا تعرف من أمره شيئاً كما ان ابنتها لا
تعرف من أمر أخيها ذاك شيئاً .

ونحن نراها في أول القصة وقد خلت احداها الى
الآخرى وهما تتحدثان عن ضيف ألمّ واحتجز لنفسه غرفة
من غرفات الفندق ، ثم ذهب ليعود الى غرفته بعد
حين . وهما تتحدثان عن ثرائه وعن انه ظاهر اليسار لم
يسأل عن أجر غرفته ولم يحفل به كما يفعل الفقراء
وأوساط الناس . وهما تتمنيان عودته لتصنعا به صنيعهما
بغيره من الاضياف الاغنياء تتحرق الفتاة الى هذا تحرقاً
وتقبل الام عليه مستكرهة لا تنشط له كما تعودت ان تنشط
لمثله فيما مضى . أما الفتاة فتتحرق لانها طامحة الى الغنى
الذي يتيح لها ان تهجر هذه القرية بل ان تهجر وطنها
كله لتسعد بالحياة الحرة الناعمة حيث البحر والشمس . وقد
ملكّت أمواج البحر وأشعة الشمس عليها أمرها كله
فهي تريد ان تظفر بهما مهما يكلفها ذلك من جهد أو اثم .

ويقبل الضيف ولا نلبث أن نفهم أنه ابن الایم واخو الفتاة ، أقبل من مهاجرة البعيد لير أمه واخته وينقذهما من حياتهما الضيقة . وهو متنكر لا يعلن اسمه ولا شخصه يريد ان يفاجئهما بالحق من أمره بعد ان يمتحن معرفتهما له وتذكرهما لشخصه . وهما لا تعرفانه ولكن الام تحس اشفاقاً عليه ، اشفاقاً غامضاً لا تفهمه ولا تعلله الا بالتعب الذي يأتيها من الشيخوخة وقد أقر الفتى زوجه في فندق آخر وتدبر معها أمره تدبيراً ، ولكن زوجه لا تحب منه هذا الاحتيال ، وانما تؤثر الصراحة وتريده على ان يعلن اليهما نفسه في غير لعب ولا مداورة . وهي تكره ان تفارقه ليلة كاداة لانها لم تفارقه منذ اقترنا . ولكنه مصرّ على حيلته يريد ان يمتحن بها نفسه وامه واخته . والام رفيقة به ، وابنتها عنيفة به أشد العنز . كلتاها لا تعرفه ولا تحقق شخصه ، ولكن في قاب الأم ميلاً غامضاً اليه ورحمة غامضة له . وفي قلب الفتاة طمع في المال وشوق إلى البحر والشمس ، والخادم الشيخ يتردد بين حين وحين لا ينطق بحرف ، ولا يسمع له صوت ، والحوار بين الفتى واخته غريب فيه ما ينبغي من الغموض لأن الفتى يخفي نفسه ، وفيه ما ينبغي من عنف الفتاة لأنها لا تفهم ولا تسيغ أن يكون القاتل رؤوفاً عطوفاً عليه ، وقد أعدت للفتى غرفته وصعد اليها وأقبلت أخته عليه بعد حين كأنها تريد أن تصلح في الغرفة شيئاً فيكون بينها وبينه شيء من هذا الحوار الغامض

الذي يرفق فيه هو وتعنف فيه هي ، يريد هو أن يتلطف
ليعرف هذه الاسرة وليعرف اليها نفسه وتأبى هي كل
رفق لأن أمر هذا الفتى لا يعنيه إلا من حيث الغاية التي
يجب أن ينتهي اليها وهي الموت .

وتعود الفتاة إلى الغرفة بعد حين حاملة اليه قـدح
الشاي فتضعه وتنصرف مع انه لم يطلبه ، ولكنها تزعم له
انه خيل اليها ذلك ، والفتى يشرب ما في القـدح ولا يكاد
يفرغ منه حتى تأتي أمه تريد أن تحتال في صده عن هذا
القـدح الذي قدّم اليه خلسة وعلى غير علم منها ، فاذا رآته
قد أفرغه في جوفه اذعنت لما ليس لها منه بدّ ولكنها على
ذلك تتحدث إلى الفتى رفيقةً به ، متحبة اليه ، والفتى
يرضيه ذلك فيمضي معها في الحديث ويوشك ان يفضي
اليها بذات نفسه لو اتصل الحديث ولكنه لا يتصل .
فالفتى متعب مكـدود قد ادركه النوم ، ثم اشتعل عليه .
وتأتي الفتاة فيكون بينها وبين أمها شيء من صراع الأم
محزونة ضيقة بابنتها التي خالفت عن أمرها وتعجلت موت
الفتى . والفتاة عجلة تريد أن تفرغ من أمرها لتسرع بعد
ذلك إلى السفر . وهي تأخذ كل ما في ثياب الفتى من
مال . وما تزال بامها تتعجلها وتلح في تعجلها حتى تنتهي
بها إلى ما تريد .

وكذلك التقت هذه الاسرة في الفصل الأول من القصة
وانتهت إلى غايتها في الفصل الثاني . فاذا رفع الستار عز

الفصل الثالث ، فنحن في الصباح ، وقد ألقى في النهر
والفتاة راضية والأم محزونة كارهة والفتاة مبتهجة قد استرد
وجهها نضرتة واسترد ثغرها ابتسامته واسترد قلبها الغبطة
والامل ، ولكن الخادم الشيخ يقبل صامتاً ، صارماً
ويدفع اليها جواز السفر الذي كان بين أوراق الفقيد ،
فلا تكاد تنظر فيه حتى يسقط في يدها وحتى تدفعه إلى
أمها ، فإذا نظرت فيه اشتمل عليها حزن يائس ولكنه
هادئ لا ثورة فيه .

حزن يعيد إلى قلبها ما كان قد ندى عنه من حب ابنها
ويغمر قلبها بهذا الحب بعد أن فات أوان الحب وبعد أن
لم يبق إلى استلذازه سبيل .

والحوار عنيف بين الفتاة وأمها لا في الأثم بل في
عواقبه .. فالفتاة لا تحفل بأخيها لأنها لم تعرفه ولم تقبله
قط ولا تذكر أنه قبلها وهي طموحة إلى الحياة تريد أن
تستنفذ لذاتها كلها ، تريد أن تفر إلى البحر والشمس وان
تنعم بكل ما تنعم به فتاة في نضرة الشباب .. والأم
يائسة بائسة قد أزمعت ان تلحق بابنهما في النهر وان
تستقبل معه هذا العدم بعد أن لم يُشَحَّ لها ان تستقبل معه
الوجود .

والفتاة تنازعها في حبها وتلح عليها في ألا تتركها ولا
تنأى عنها ولا تسلمها وحدها لخطوب الحياة .. ولكن
الأم حازمة مصممة قد بثبت الحياة واثقالها وعجزت عن

احتمال أتمها هذا الأخير على كثرة ما احتملت قبله من الآثام . وهي ترك ابنتها وحدها وتمضي في سرعة هادئة إلى النهر لتلتبس فيه الموت .. ولا تكاد الفتاة تخلو إلى نفسها حتى تقبل عليها زوج أخيها تسأل عن زوجها فتنبئها الفتاة بكل شيء ويكون بينهما حوار يصور اللوعة البائسة في نفس الزوج والقسوة البائسة في نفس الأخت ، أحدهما مولدة لا تلري ماذا تصنع ولا كيف تتحمل رزءها ، وهي تتجه إلى الله تسأله الرحمة والمعونة ، والاخرى بائسة من الأرض والسوء جميعاً ، قد أزمعت أن تموت ، ولكنها لا تريد أن تموت في النهر حيث مات أخوها الذي تبغضه لأن أمها آثرت عليها ، وحيث ماتت أمها التي لم ترحمها ولم ترث لشبابها وآثرت أن تلحق بابنها الميت على أن تصحب بنتها الحية ، وتستقبل معها السعادة والمتاع . وإنما تريد أن تموت شتياً في غرفتها وهي تترك زوج أخيها مولدة ملحة معولة تلتبس رحمة الله ومعونته ، وإذا الخادم الشيخ يقبل على هذه الزوج البائسة ، يحسبها قد دعتة فإذا التمس منه المعونة والاشفاق أجابها بأول كلمة وآخر كلمة نسمعها منه في القصة وهي لا .. وعلى هذه الكلمة الحاسمة يسدل الستار .

فأنت ترى ان القصة لم تبتكر شيئاً وإنما صورت تلك الاسطورة القديمة .

ولم تصورهما تصويراً خالصاً للادب ، وإنما صورتها

تصويراً توشك الفلسفة ان تستأثر به ، فقيم وُجدت الأم وابنها وابنتها وقيم ماتوا ؟ وما غاية وجودهم ؟ وما غاية موتهم ؟ وهذه الایم البائسة التي أقبلت مع زوجها ليستخلصا هاتين المرأتين من حياة الخشونة والضيق فكانت عاقبة أمرهما موت هؤلاء الثلاثة في غير طائل ولا غناء . وهذا الخادم الصامت الذي لا ينطق بحرف إلا هذه الكلمة التي تصور اليأس ولا تصور شيئاً غير اليأس من هو ؟ ومن عسى أن يكون ؟ إنه القضاء الذي لا يحفل بالناس ولا بما يلقون من لين الحياة وشدتها ، بل لا يحفل بما يختلف عليهم من حياة أو موت . قد أوجدتهم لغير علة ولا غاية ... أوجدتهم معرضاً عنهم ساخراً منهم غير مفكر إلا في نفسه غير معرب حتى عن تفكيره في نفسه .

وكذلك صور الكاتب مذهبه الفلسفي ذاك تصويراً قد يكون حسناً ولكن التكلف فيه ظاهر يوشك أن نامسه بأيدينا . فما هذه الحيلة التي ابتكرها الفتى ليفاجئ أمه واخته بعد ان غاب عنها عشرين عاماً ؟ وما هذه المطاولة والمداورة المصنوعة بين هؤلاء الثلاثة الذين لم يتع الكاتب لهم أن يجتمعوا إلا ليقتضي عليهم آخر الامر ان يفرقوا وان يكون الموت هو الذي يفرق بينهم ؟

وقد مثلت هذه القصة في القاهرة على احد المسارح الخاصة منذ أيام وشهدتها بعد ان كنت قرأتها منذ أعوام . واعترف بأنني لم أجد أثناء شهودها كما لم أجد أثناء قراءتها الاولى

ولا أثناء قراءتها الثانية التي فرغت منها اليوم ما تعودت أن
أجده من المتعة الأدبية . ولولا ان الممثلين والممثلات كانوا
من البراعة في فنهم بحيث سحروا أعين النظارة وخذعوهم
عن أنفسهم لما تركت هذه القصة في قلوبهم أثراً ، ولما
دفعت أيديهم إلى التصفيق :

وأكاد أقطع بأن النظارة إنما صفقوا للممثلين والممثلات
لا للقصة ولا لكاتبها . وأمثال هذه القصة التي تغلب عليها
الفلسفة وتستأثر بها من دون الأدب كثير في الأدب الفرنسي
المعاصر . وكتابه الظاهرون هم هؤلاء الثلاثة : جان بول
سارتر والبير كامو وجيراثيل مارسيل ، وإن كان ثالثهم
يذهب بفلسفته الوجودية مذهباً دينياً مسيحياً قد أعرض
له في يوم من الأيام .

الغاية

قصة للكاتب الألماني ارنست فيكرت

وتستطيع ان تفهم كلمة العائد هذه على وجهين مختلفين
وان تقاربا من بعض ألتحاثها . تستطيع أن تفهم منها
عاد من سفره بعد غيبة طالت أو قصرت . وتستطيع أن
تفهم منها من بعث بعد أن مات ومضت على موته الأعوام
الطوال .

فقد أراد المؤلف هذين المعنيين جميعاً وفهديهما الناس عنه
أول الأمر ثم عرفوا وجه الحق كما ستعرفه آخر الامر .
وتستطيع كذلك ان تذكر الحديث الذي سقته اليك في
الفصل الماضي عن ذلك الفتى الذي حملة قطار القضاء
وقطار الناس إلى موت محتوم كان ينتظره في ميدان من
ميادين القتال أو غير بعيد من هذا الميدان .

فسأحدثك اليوم عن فتى آخر نقله قطار القضاء وحملته
قدماه بسعيهما في الارض العريضة إلى الحياة .
وتستطيع بعد هذا وذاك ان تذكر تلك المرأة التي
أرادت ان تنقذ ذلك الفتى من موته ذاك الذي كان ينتظره
لأنها أحبته كما أحبها فلم تزد على ان التفت بنفسها معه ومع
غيره أيضاً بين ذراعي ذلك الموت الذي لم يكن إلى
الآفلات منه سبيل .

فسأحدثك اليوم عن امرأة أخرى انقذت فتى آخر من
موت لم يكن فيه شك وردته إلى حياة ليس فيها شك
أيضاً . لأنها أحبته كما أحبها هو ، ولكن حبهما كان قوياً
وكان ضعيفاً في وقت واحد ، ولان كلمة القضاء هي
العليا دائماً .

والقصتان كما ترى لم تصدرا عن كاتب واحد وانما
صدرتا عن كاتبين مختلفين أشد الاختلاف لم يلتقيا في أكبر
الظن ، ولكنهما نظرا إلى الحياة وظروفها وإلى الناس
والخطوب التي تختلف عليهم نظرتين متباينتين من جميع
الوجوه متباعدتين دائماً إلى ان كلمة القضاء هي الاخيرة
سواء أكانت للإنسان إرادة قوية عاملة أم كانت له إرادة
ضعيفة مستسلمة .

والقصتان تقعان في ألمانيا ، والحرب هي التي تثيرهما ،
وفيها على اختلافهما عبرة للذين يريدون الاعتبار ، وفقه
للذين يريدون التفكير وتعمق شؤون الحياة .

وقصتنا اليوم تعرض علينا أول ما تعرض حياة امرأة
فقدت زوجها في الحرب . وورثت عنه لنفسها وابنها
أرضاً واسعة متباعدة الأرجاء ، فيها الخصب الكثير الذي
يغلّ ثراءً كثيراً . وفيها الغابات الكثاف التي تغلّ الثراء
أيضاً والتي يكثر فيها الصيد ، وفيها البحيرة الرائقة التي
تتيح منظراً جميلاً وينتهي شاطئها للنزهة الممتعة . وفيها
الذين يعملون في الأرض والذين يعملون في الغابة . وهي
بعيدة عن المدينة ولكن بينها وبين المدينة من الصلة المنظمة
ما يتيح لوجوهها ان يزوروا هذه السيدة بين حين وحين
وان ينفقوا في قصرها ساعات حلوة هادئة يتحدثون فيها
عما يكون من الاحداث . وإلى جانب هذه الأرض الواسعة
قرية تقوم منها غير بعيد . وتتصل بها اتصالاً يشبه ما
يكون بين السادة النبلاء وبين ما يقوم قريباً من قصورهم
من القرى . وهذه المرأة تدبر ثراءها في حزم وعزم
ومضاء ، جعلت لها في نفوس الناس من قرب منها ومن
بعد عنها مهابة وجلالاً .

فهم لا يذكرونها باسمها ولا باسم زوجها الفقيد ، وانما
يذكرونها بالرتبة العسكرية التي كانت لزوجها فقد كان من
رجال الجيش . فالناس يدعونها بالسيدة الصاغة لأن زوجها
كان صاعاً ، وكأنها أخذت من زوجها صفة الضابط
الصارم ، الذي لا يحب تهاوناً ولا تقصيراً في اداء الواجب
وطاعة ما يصدر من الأمر ، والذي يؤثر النظام في كل

ما يأتي من الأمر وفي كل ما يأتي الناس حوله من الأمر أيضاً على كل شيء ويحرص عليه أشد الحرص . فأمور قصرها وأرضها تمضي في دقة دقيقة واستقامة لا عوج فيها ولا التواء ، ولها عادات منظمة مطردة لا تنحرف عنها مهما تكن الظروف ، ولا ينبغي للخدم ولا للعاملين في الأرض من حولها أن ينحرفوا عنها ، وهي مع هذا كله قليلة الكلام تؤثر الإيجاز والصراحة على الإطالة والتأنق في القول . ومن عاداتها إذا تقدم النهار ان تخرج للترهة والتفتيش على فرس لها يهتبه خادم لا عمل له إلا ان يهتئ الفرس ويقدمه إليه لتركبه ويتلقى منها عتانه حين تعود ويقوم على خيلها فيما بين ذلك .

قد وقف حياته على هذا واضطر إلى صمت ذاهل لأنه وحيد عصفت الحرب بأسرته وأخويه وهو في الوقت نفسه معذب أشد العذاب ، ألقى في روعه ان احد أخويه قد قُتل بالعراء فنفسه هائمة تلتمس قبراً ولا تجد إليه سبيلاً . وهي تصبح باكية مستغيثة إذا كان الليل ، والفتى يسمع صياحها وإعواها فلا يذوق النوم إلا غراراً . وهو من أجل ذلك محزون كاسف البال مفرق النفس . لا يتكلم في النهار إلا قليلاً ، فإذا كان الليل أنفق في السهاد واللوعة والبكاء . وقد خرجت الصاغة ذات يوم حين أقبل المساء ومضت على فرسها فطوفت في الأرض ما شاء الله لها ان تطوف ، ومضت في الغابة حتى انتهت إلى البحيرة

فنظرت اليها وأطالت النظر بمفكرة فيما يفكر فيه أمثالها
من هذه الوحدة التي اضطرت اليها ومن فقد زوجها
العزير عليها وغياب ابنها الذي يدرس في إحدى المدن
الجامعية . ومن شؤونها الكثيرة المختلفة وهي تهتم بالعودة
فقد انقضى النهار أو كاد ينقضي وبجملت أشعة الشمس
تنحسر قليلاً قليلاً عن الغابة فتسلم ما تنحسر عنه إلى هذه
الظلمة الشاحبة التي لا تلبث أن تتكاثف شيئاً فشيئاً . ولكنها
ترى ظلاً يتنقل في الطرف المضيء من أطراف الغابة وهو
يتنقل في اناة مستأنية وحذر شديد كأنه يخشى أن يراه
أحد . ويريد أن يدنو من هذه الأرض دون أن يشعر
أحد بمكانه وهو لا يرى السيدة ولكنها تراه . وقد أثار
مראה في نفسها شيئاً ليس بالخوف وعسى أن يكون أدنى
إلى الاستغراب وحب الاستطلاع . وهي تردد قليلاً ثم
تثبت في مكانها لتعلم علم هذا الشخص الغريب . وهو
يسعى في خطو متقارب متردد ، ويطيل النظر فيما حوله
ويطيل النظر أمامه كأنه يريد أن يملأ عينيه مما يرى قبل
أن يلقي الظلام أستاره الكثاف .. وهو يبسط ذراعيه وقد
فرج بينهما ويرفعهما إلى السماء كأن شيئاً رائعاً قد ملك
عليه نفسه أو كأنه يريد أن يرفع إلى السماء دعاء ،
وهو يدنو وهي ترقبه ، حتى إذا كان منها بمسمع الصوت
أظهرت نفسها واضطرتته إلى أن يقف ثم إلى أن يسند

منها ثم أخذت تسأله من هو ومن أين يأتي وإلى أين يريد .
فيجيبها في كلام غامض لا تكاد تفهم منه شيئاً . ولكنها
استيقنت آخر الأمر انه غريب هائم في الطريق العامة
لا مأوى له . وما ينبغي لها ان تخلي بينه وبين الهيام في
الطريق العامة وقد أقبل الليل وجعل ينشر ظلمته ، فهي
تدعوه إلى أن يصحبها ، وهو يستجيب لها ويمضي معها ،
وقد تحدثت إليه أثناء الطريق فيجيبها بما لا ينبغي عنها
شيئاً . وقد انتهت آخر الأمر إلى القصر ووجدت خادماً
ذاك الداهل ينتظرها ليتسلم منها عنان الفرس . وهو في
شيء من القلق لأن سيده قد أبطأت بعودتها على غير ما
الفت ، وهي تدفع إليه العنان وتهدئ من قلقه وتنبئه بأنها
استصحبت ضيفاً ، ثم تدخل ضيفها القصر وتأمر وصيفتها
أن تقوده إلى إحدى غرفاته ليستريح وينفض عنه غبار
السفر وتؤذنه بالعشاء حين يأتي مواعده . وقد خلا الضيف
إلى نفسه في غرفة ليست أنيقة ولا مرفقة ولكنها مريحة
لعله لم يأو إلى مثلها قط . ورأى الخدم هذا الضيف حين
دخل إلى القصر فراعهم منظره الرث وزيه الغريب ووجهه
الذي هو إلى الاظلام والعبوس أدنى منه إلى الاشراق
والابتسام . وهم ينكرون مكانه ويعجبون لأن سيدهم قد
احتفلت به وضيافته ويسألون من عسى أن يكون ! وما
عسى أن يكون وطنه الذي جاء منه وجنسه الذي ينتمي
إليه . وهم يفترضون في هذا كله الفروض والخسادم

الذاهل صامت يسمع لحم ولا يقول شيئاً : فإذا اتجهت
إليه أحاديثهم قال إنما هو ميكائيل بن فلان ذلك الشيخ
الذي يعمل في الضيعة .

ويسمع الخدم هذا فينكرونه أشد الإنكار فقد مات
ميكائيل هذا ، قتله الحرب منذ عشرين سنة . وجاء
بذلك النبأ الرسمي ونقش اسمه على هذا النصب الذي يقوم
غير بعيد من القصر والذي أقيم لصراع القرية في الحرب
ونقشت عليه أسماؤهم . ولكن الخادم الذاهل يعيد عليهم
قوله في تصميم وثقة فيضيفون قوله هذا إلى ما يعتريه من
مظاهر الذهول وشروء البال .

وفي هؤلاء الخدم فتاة شغلها أمر هذا الضيف فهي
معنية به مشفقة به . تريد لو علمت عامه وتخشى أن
يصيبها منه مكروه .

أما الضيف فقد أوى إلى غرفته ونظر ما فيها من
أدوات النظافة والراحة . فأنكر مكانه من هذا كله وسأل
نفسه ماذا يصنع في هذه الغرفة أو ماذا يصنع بهسذه
الأدوات ! فهو لا يستطيع أن يغير من زينة الرث ،
ولا أن يستبدل به زياً يلائم هذا القصر ويلتئم الجاوس
مع هذه السيدة إلى مائدة العشاء . ولكنه أصلح من أمره
بأن استطاع أن يصلح ووقف ينتظر أن يدعى إلى المائدة
معد أن نظر من النافذة فرأى ، على بعد ، ذلك
النصب الذي رأى كثيراً من أمثاله فيما مر به من المدن

والقرى . وقد دعي إلى العشاء فشاهده وحيداً مع السيدة التي تلقتة أحسن لقاء وعينت به كما تعودت أن تعني بضيفها من الأغنياء والمترفين . ثم قضت معه ساعة من الليل تحاول أن تعرف من أمره شيئاً فلا تظفر منه بما يجدي أو يفيد . ثم تاب إلى غرفته وثابت السيدة إلى غرفتها .

فأما هي فمفكرة مع كثير من الحزن في فقيدها ، تستحضر مصرعه وتستحضر أوبته إليها جثة هامدة وتستحضر الأعوام التي مرت عليها وهي وحيدة تدبر أمر هذه الأرض وتقوم على تربية ابنها وتنشئته ، وأما الضيف فقد خلا إلى نفسه مفكراً في هذه الخطوب الكثيرة التي اختلفت منذ شارك في الحرب فرأى الناس يموتون من حوله يساقطون كما يساقط الذباب ، ورأى اخلاءه واخوانه يسبقونه إلى الموت بعضهم في اثر بعض حتى هانت في نفسه قيمة الحياة . ثم رأى نفسه يصرع فيمن كانوا يصرعون واستيقن انه قد لحق بمن سبقه إلى الموت ، ولكن الموت ينظر اليه ساخراً منه ثم ينأى عنه غير حافل به ويتركه جريحاً ينتظر الاسار . وقد أسر فطال اسره وسجن فطال سجنه ونظمت أعقاب الحرب وهو محسوب في الموتى لا يحفل به أحد ولا يذكره أحد إلا أبوه ذاك الشيخ الذي جزع عليه وعلى من مات معه من اخوانه ثم اطمأن إلى جزعه وأصبح يكتفي بذكره وذكرهم في صلاته والنظر إلى اسمه واسمائهم على

ذلك النصب القائم غير بعيد من القصر ، واستقر في نفوس أهل القرية انه قد قضى نحبه مع من قضى نحبه من ابنائها في الميدان ، وأصبح هذا النصب آية واضحة وحجة قاطعة على انهم جميعاً قد قتلوا فيمن قتل من شباب ألمانيا وكهولها في سبيل مجد الوطن وعظمتته . فهم يذكرهم كلما مروا بالنصب وكلما صاوا ولكنهم يمضون في حياتهم غير حاسبين للموتى حساباً فما ينبغي للموتى أن يصدوا الأحياء عن سبيل الحياة .

ذلك إلى ان الأوراق الرسمية التي جاءت من وزارة الحرب واستقرت في مركز المدينة قد اثبتت موت هذا الفتى فيمن مات ، ليس في ذلك شك ولا معنى للجدال فيه .

كل ذلك يديره الضيف في رأسه بعد أن خلا إلى نفسه ، فهو ينكر مكانه من هذا القصر بل ينكر مكانه في هذه الأرض التي تحيط بالقصر ، بل هو لا يعد نفسه بين الأحياء وانما يرى نفسه ظلاً هائماً ليست له أسرة ولا قرية ولا مدينة وليس بينه وبين الأحياء من الناس صلة : فليس له إلا ان يهيم في الأرض تتقاذفه مدنها وقراها وغاباتها وجبالها وطرقها العامة . والخير له أن يجتنب الناس ما وجد إلى اجتنابهم سبيلاً وان يقوت نفسه مما يتاح له أثناء هيامه من هذا الرزق الذي يتاح للطير والحيوان المتوحش . ولم يكن يقدر انه سيلقى هذه السيدة وسيأتي

معها إلى هذا القصر ومسلم بهذه البيئة التي لم يبق له بها عهد والتي نسيها أو كاد ينساها كما أنها هي قد نسيته ولم تذكر منه إلا هذا الاسم المنقوش على هذا النصب .

أذاق النوم في تلك الليلة أم لم يذقه ؟ مهما يكن من شيء فقد أخذ الفجر يرسل ضوؤه الضئيل بعد ذلك الليل الطويل . ونهض الفتى من سريره ذاك ونظر من النافذة فرأى النصب أمامه غير بعيد ، وما دام الناس قد نسوه وما دام هو أيضاً قد نسيهم أو كاد ينساهم فما بال اسمه هذا يظل منقوشاً يراه أهل القرية بين حين وحين فيذكرونه لحظة ثم يسرعون إلى نسيانه أو يسرع نسيانه اليهم . يجب أن يكون نسيانهم له كاملاً متصلاً كما يتصل الزمن متكاثراً كما تتكاثف ظلمة الليل حين يراكم السحاب وتحجب النجوم .

يجب أن يمحي هذا الاسم ، لتقطع الصلة بينه وبين الأحياء من جميع الوجوه . وما بقاؤه في هذه الغرفة ؟ وما لقائه لأهل هذا القصر ؟ ثم لأهل هذه القرية حين يشرق وجه النهار ؟ يجب عليه أن يخرج ولكن أنتى له الخروج وقد أغلقت من دونه أبواب القصر ؟ وما له لا يثب من هذه النافذة ويرسل نفسه في الفضاء العريض ؟ وقد فعل ، وقد احتال حتى ظفر باداة حادة ثم عمد إلى النصب وجعل يمحو اسمه منه . وسمعت سيدة القصر

حركة مريية ثم سمعت صوت هذه الاداة تعمل في الصخر فانكرت ما سمعته وانتظرت حتى آن لمثلها أن تخرج من غرفتها . ثم خرجت وفي نفسها ريب من أمر الفتى ، ثم ذهبت إلى غرفته فطرقت بابها فلم يرجع عليها احد جواباً ، فتدخل الغرفة فلا ترى احداً وترى النافذة وقد فتحت على مصراعها ، فتعلن ان الفتى هو صاحب الحركة التي رابتها وهو مصدر الصوت الذي سمعته ، ولا تلبث أن تدبر في نفسها كل ما أدار الفتى في نفسه من الخواطر .

أراد أن يمحو من القرية حتى أيسر ما بقي من ذكره فمحا اسمه من بين أسماء الموتى . ومضى لا يعرف أحد إلى أين .

ولكنها تلمسه حين يتقدم النهار فتجده في طرف من أطراف الغابة كأنه قد أوى إليه حيناً قبل ان يأخذ في هيامه ذلك في الطريق العامة . فترقى به أشد الرفق وتلطف له أعظم التلطف وما تزال به حتى يأنس إليها شيئاً وقد عرفت انه لا يريد أن يعاشر الناس أو لا يستطيع أن يعاشر الناس ، فتمضي به إلى بيت منعزل في جانب من جوانب الغابة قد هيئ فيه أثاث ساذج يسير . فإذا دخلت معه انبأته بأنها في حاجة شديدة إلى من يحرس لها الغابة وما فيها من صيد ، وانها تريد أن يكون حارس هذا الصيد وان يقيم في هذا البيت بعيداً عن القرية وأهلها لا يرى احداً ولا يراه احد . وتنبئه بأنها

ستزوره في ترويضها بين حين وحين ، وقد ألقى في روعه شيء من الحب الخفي الغامض أشد الغموض لهذه السيدة الرفيعة السمحة التي تظهر ما تظهر من رفق به يوشك أن يكون حناناً . فيستجيب لها متحفظاً وتطيل معه المكث حتى يأنس إلى البيت ثم تنصرف عنه لتزوره كما قالت بين حين وحين . وقد أقام في هذا البيت يأتيه الطعام إذا تقدم النهار ويأتيه طعامه إذا تقدم الليل ، وتزوره السيدة فتحدث إليه بين ذلك . وهو يطمئن إلى هذه الحياة شيئاً ولكن في نفسه قلقاً ما يزال يساورها ، فهو لا يرى لنفسه ارباً في الحياة ولا يرى للناس نفعاً في حياته ، فما بقاؤه ، وما له لا يستأنف هيامه !

شيء واحد يمسكه في هذا البيت هو هذه السيدة التي تزوره حين يقبل المساء من كل يوم ، تقبل راكبة حتى إذا بلغت البيت ترجلت عن جوادها والقت عنانه إلى خشبة من خشب السور الذي يحيط بالحديقة الصغيرة ، ودخلت عليه مبتسمة فحملت إليه انساً وبشراً ثم انصرفت عنه على موعد . فهو يريد أن يأخذ طريقه ولكن ما في نفسه من هذه السيدة يمسكه في بيتها هذا المنعزل .

ينعم بلقائها حين تلقاه وينعم بانتظارها حين تنصرف عنه . والأيام تمضي وإذا حبه الذي كان خفياً غامضاً يتضح في نفسه شيئاً فشيئاً . وإذا هو يسأل نفسه : ما مقامه في هذا البيت ! لا هو بالانيس الذي يدنو ممن يحب ولا

هو بالغريب المجوال الذي لا يحفل به الناس ومتى رأى
الناس سيده في منزلة هذه السيدة تلمّ بحارص غابتها كل
يوم ، حفية به مؤنسة له ثم تنصرف عنه كما جاءت فهي
دانية نائية وهي مطعمة مؤنسة ، أمممكن أن يكون في
نفسها منه شيء كما ان في نفسه منها شيئاً .. واذن فما
بال الامور تظل غامضة مسرقة في الغموض ؟ أتراها
تتكلف ايناسه ليألف الحياة ، ولكنه لا أرب له في الحياة ،
ام تراها تود لو دنت منه أكثر مما تدنو ولكن لها ما
يشغلها عنه ؟

فمثل هذه السيدة لا يمكن إلا أن يكون لها صاحب
أو رفيق ، وهذه الغيرة قد أخذت تعبت بنفسه قليلاً
قليلاً ، وإذا هو يضيق بمكانه من هذه الغسابة ويكره
حياته التي يحياها معلقاً لا هو بالغريب ولا هو بالبعيد .
وقد شغلت السيدة عنه يوماً ويوماً فازمع ان ينطلق ،
ولكنه كره أن يمضي دون أن ينبئها بما يريد ، فيذهب
إلى القصر ، ولا تكاد السيدة تعلم بمكانه حتى تدعوه ،
وإذا هي مشغولة ببعض الضيف من سادة المدينة وأشرافها
فتقدمه اليهم وتخلطه بهم وتجلسه معهم إلى الشاي وتحدثه
كما تتحدث إلى غيره من ضيوفها ، حتى إذا هم أن
ينصرف وأراد أن يقول لها شيئاً آذنته بأنها ستورره
من غد .

فيعود أدراجه ولم ينفذ مما صمم عليه شيئاً . وقد تحدث

الفتى إلى ذلك الخادم الذاهل شيئاً من حديث ، وعرف قصة أخيه ذاك الذي قتلته الحرب بالعراء والذي هامت نفسه تلتمس قبراً وجعلت تعول إذا أقبل الليل فيحاول الفتى ان يرد على هذا الذاهل شيئاً من عقله وان يبين له ان ما يسمع إذا أقبل الليل ليس هو نفس أخيه الهائمة وإنما هي بومة تنوح في مكان ما قريب من البحيرة ، ثم يزمع ان يربح الفتى من هذا العويل الذي يؤرق عليه ليله ويملاً قلبه خوفاً وفرقاً وحزناً .

فقد جعل لنفسه إذن ارباً في الحياة وليس قليلاً ان يرد على هذا الفتى شيئاً من الراحة وأمن القلب وطمأنينة النفس . وقد جعل يرصد هذه البومة في كل ليلة حتى قتلها وانقطع عويلها ، ورد إلى الفتى آمنه ، ولكنه أزعج الناس الذين يقيمون قريباً من ساحل البحيرة فجعلوا يضيقون به ويشكون منه ، وجعلت السيدة تلم به بين حين وحين حتى كثر الحديث عنهما في القرية وحتى ساءت بهما الظنون . ولكن السيدة ماضية في سيرتها هذه حازمة مصممة لا تمحل بالناس ولا بما يسيئون بها من الظن ، حتى انها لتزور الفتى ذات يوم فتجده قد جلس في حديقته تلك إلى زجاجة من زجاجات الخمر فتجلس معه وتأخذ في الشراب كما أخذ فيه ، وتسرف في الشرب كما أسرف حتى تلغى الكلفة بين الفتى وبينها ولكنها على ذلك محتفظة بما ينبغي لها من الوقار . في نفسها عطف على هذا الفتى ليس

في ذلك شك ولكنها وفيه لزوجها الفقيد ووفية لابنها ذاك الذي يتعلم في إحدى المدن الجامعية وضمنة بنفسها آخر الأمر على ما لا يليق بالمرأة الكريمة .

وقد أقبل ابنها ومعه خطيبته فأقام في القصر يوماً وبعض يوم ، وخرج مع خطيبته للترويض ، فمضى بسيارته في الغابة حتى إذا دنا من بيت الحارس ورآه فجعل ينظر إليه شزراً ، وغاز الحارس ما رأى فأطلق النار على السيارة حتى ازعج الفتى وخطيبته ، فعادا مسرعين وانبأ السيدة بما رأيا وساء ظن الفتى بأمه كما ساء بها ظن غيرها من الناس ولكنها لم تحفل بشيء من ذلك . وأمرت ابنها أن يعود إلى المدينة الجامعية من غده . ومضت تتقرب إلى الحارس حتى أقرت في نفسه انه قد أصبح لها إلماً . وجاء موسم الحرث وأخذ الفلاحون يعملون في إعداد الأرض والفتى يراهم فيضيق بما يرى لأنه فلاح مثلهم . فما أمسكه في هذه الغابة في غير عمل ينظر إلى العاملين وهو متبطل ؟ لم لا يشاركهم فيما يعملون ؟ انهم لا يألونه ولا يجروون على أن يدنوا منه ، وهو لا يألهم ولكنه يحسدهم على العمل ، ويود لو شاركهم فيه ، وقد انست السيدة منه كل هذا وحاولت أن تعد اباه الشيخ لاستقباله فذهبت إليه وجعلت تحدثه في رفق واثابة عن ابنه ومن أن من الممكن أن يعود هذا الفتى بعد هذه الغيبة الطويلة . ولكن الشيخ يسمع لها هادئاً أول الأمر ثم يشق عليه ما يسمع حتى يخرجها عن

طوره فهو لم يعرف قط ان الموتى بعثوا من قبورهم في
 هذه الحياة ، فاذا الحت عليه في ذلك خرج الشيخ عن
 طوره ومسه طائف من جنون ، فاسرف في العبث والفساد
 واضطر أهل القرية إلى ان ينقلوه إلى المستشفى. وتقبل السيدة
 ذات يوم على حارسها فتحدث اليه ساعة من نهار ، حتى
 إذا كاد الليل أن يغشى زعمت له انها تريد أن تجرب نفسها
 في حرث الأرض ، وطلبت اليه ان يعينها على ذلك فيمضي
 معها ، وهو يظن ان هذا عبث من العبث ، ولكنها تأخذ
 في العمل فيشق عليه ما يرى وتثوب اليه فجاءة نفسه
 القديمة التي كانت قد شردت عنه منذ زمن بعيد . وإذا هو
 يقول للسيدة : ليس هذا اليك ياسيديتي انما هو عملي أنا .
 ثم يأخذ مكانها ويمضي في الحرث كأحسن ما يحرث الفلاحون
 وكعهده قبل أن تنحطف الحرب منه نفسه الأولى . وقد
 عمل فأحسن العمل وعاد كعهده الأول القديم .
 والسيدة تشهد عمله من قريب وتملك ما يثور في نفسها
 من عواطف عنيفة مضطربة ، حتى إذا بلغ الفتى من العمل
 اربه قالت له : فهذا اذن نصيبك من الأرض تتولى حرثه
 وزرعه . ثم أمرته ان يتبعها فتبعها فتتحرف به عن الغابة إلى
 القرية وتمضي به حتى تبلغ منزل أبيه الشيخ . ثم تدخل معه
 هذا المنزل ثم تقول له : هذه دارك فأول إليها وتلك أرضك
 فأعمل فيها واستأنف حياتك تلك التي كنت تحياها .
 والفتى يسمع هذا كله واجماً أول الأمر ثم ثائباً إلى

نفسه بعد ذلك معجباً بهذه السيدة التي عرفت كيف ترد اليه
نفسه بعد أن شردت عنه عشرين عاماً تتألفه حتى تنقذه لا
من الغربة والهيام معاً بل من الموت أيضاً . فقد سمعت في
صمت وهدوء حتى أثبتت في الجهات الرسمية شخصية
هذا الفتى ، وأنه لم يميت وإنما حسب مع الموتى خطأ .
نجحت هذه السيدة في رد هذا الفتى إلى عهده بحياته
الأولى لا بشيء إلا بأنها عرفت كيف تتألفه وكيف تدعو
نفسه الشاردة من غربتها الطويلة حتى ثابت اليه .
وفي الوقت الذي ثابت إلى الفتى نفسه وعاد كما كان
رجلاً من رجال القرية يسكن دار أسرته ويعمل في الأرض
التي عمل فيها أبوه وأخوته عادت السيدة إلى قصرها
راضية مطمئنة النفس مقتنعة بأنها لم تصنع شيئاً ذا خطر
وإنما أدت واجباً يسيراً من واجبات الحياة .

مضى القطار في موعده

قصة للكاتب الألماني هنر ايخ بول

قرأت ترجمتها الفرنسية مفرقة في مجلة العصور الحديثة ،
وعسى أن تكون قد ظهرت الآن مجتمعة في كتاب ، كما
ظهر أصلها الألماني ، ولست أخفي اني احتجت إلى
قراءتها مرتين ، لا لأن فيها شيئاً من غموض أو التواء ، بل
لأنها راقني ، ومن الأدب ما يروقك فتقرأه مرة ومرة ،
وقد تقرأه مرات كثيرة ، دون أن تقضي العجب من
قراءته . أو دون أن تبلغ حاجتك إلى هذه القراءة
المتكررة . وانا بعد لم اقرأ هذه القصة في أصلها الألماني ،
وانما قرأتها وقد نقلت إلى لغة أخرى ، وفقدت غير قليل
من جمالها الأصيل ، وما أشك في أن الذين سيقرونها كما
صلرت عن صاحبها سيرضون عنها أكثر مما رضيت ،

وسيدوقون فيها من الجمال والفن أكثر مما ذقت .
والقصة لا تروع بخرابة الأحداث ، فليس فيها حدث
واحد غريب بل ليس فيها فكرة واحدة تتفك عندها
للتأمل والتعمق . وانما هي تجري على نسق يسر مطرد لا
اضطراب فيه ولا أمت .

هي أشبه شيء بخديث يقصه صديق على صديق في غير
تكلف ولا تألق ولا التماس للاطراف أو إثارة العجب .
وهي بالطبع لم ترقش بجمال اللفظ وروعة الأسلوب ...
وهذه الخصال الأدبية المعروفة التي تسحر القارئ وتملك
عليه هواه .

فأنا كما قلت لم أقرأها في أصلها الألماني . وانما قرأتها
في ترجمة فرنسية كل جمالا يأتيها من السذاجة ، ويسر
المذهب ، واستقامة الأسلوب . وصواب التعبير وملاءمته
لأصول اللغة الفرنسية حين يكتبها أصحابها ميسرين غير
ميسرين ومتوخين صدق التعبير والاصابة فيه ، وأكبر
الظن ان أصلها الألماني يقارب ترجمتها الفرنسية في هذه
الخصال . فالترجمة الصحيحة الصادقة لا تتجاوز من أصداء
صادقة مقاربة لما نقلت عنه .

فليست هذه القصة اذن طرفة فنية بالمعنى الدقيق المؤلف
لهذه الكلمة في اصطلاح الأدباء والنقاد ، وانما هي صورة
يسيرة صادقة ساذجة للون من ألوان الحياة التي
يحياها الشباب حين تفجأهم الحرب وتأخذ عليهم الحياة من

جميع أقطارها . وتعرض عليهم التفكير في أحداثها وخطوبها
وفي أخطارها . وكوارثها ، وحين تُؤثسهم من النجاة ،
وتمثل لهم صورة الموت بشعة رهبة مروعة يملؤها الهول
فتملك عليهم تفكيرهم كله وشعورهم كله وحياتهم كلها ،
وتحول بينهم وبين الاستمتاع بما يمكن أن يعرض لهم من
لذة أو نعمة فيما بقي لهم من الحياة ، وتجعل أعمالهم كلها ،
وخواطيرهم كلها موسومة بسمة واحدة . هي سمة الخوف
اليأس أو اليأس الخائف الذي يصد عن كل شيء إلا نفسه ؛
فهذا الشاب الذي لا نعرف من أمره إلا أن اسمه
اندرية وأنه من أسرة متوسطة ، وأنه فقد أبويه ، وأنه
نشأ نشأة أترابه معتمداً على نفسه ، يريد أن يسلك طريقه
في الحياة كما يسلكها أمثاله من الشباب حين تستقيم لهم
الأمور في السلم . فيجاهدون ويكافحون ويظفرون آخر
الأمر بما يتاح لهم من المنازل الاجتماعية .

هذا الشاب الذي نيف على العشرين ، ولم يبلغ الثلاثين ،
بل لم يزل بينه وبينها شيء من أمد ، تدركه الحرب
فتقطع عليه طريقه إلى الحياة ، كما تصورهما وكما ارادها ،
وتتحرف به إلى طريق أخرى قد استقر في روعه أنها
منتهية به إلى الموت سواء قصرت هذه الطريق أم طال ،
وهو قد ذهب في هذه الحرب مذاهب وشهد منها مشاهد
فلم ير إلا هولاً وبؤساً وشقاء وموتاً يحاول أن ينسى
ذكره ، فيتمثل له بكل سبيل كما كانت ليلي تتمثل

لشاعرنا العربي القديم الذي يقول :
أريد لأنسى ذكرها فكأنما

تمثل لي ليلي بكل سبيل

وقد أتحت لهذا الشاب اجازة قصيرة قضاها في مدينته
تلك التي لم تُسم لنا على ضفة الرين ، فلما انقضت اجازته
مضى إلى القطار الذي سيحمله إلى الميدان من وراء الحدود
الألمانية في بولندا وصحبه إلى القطار صديق له قسيس في
مثل سنه ، وقد انتهى الفتيان إلى المحطة وساکا بعض
أنفاقها إلى الرصيف وهما يسمعان أثناء سلوكهما لهذا النفق
الدعاء إلى القطار الذي سيسافر في موعده بعد دقائق لا
يتأخر عنه قليلاً ولا كثيراً ، وهما يسرعان إلى القطار
حتى إذا بلغاه لم يصعد الشاب إلى مكانه وانما وقف يتحدث
إلى صديقه متمهلاً متاكئاً ، كأنه لم يأت لسفر ، وإذا
صديقه يسأله متعجباً له منكرًا تباطؤه : « ما بالاك لا
تصعد إلى القطار ؟ انه يوشك ان يفوتك ؟ ألم تسمع انه
سيمضي في موعده ؟ ألا ترى انه يتعيا للانطلاق ؟ »
فيجيبه الفتى ساخرًا : « وما عليك ان يفوتني القطار ، وإذا
كنت اوثر الهرب ، وإذا كنت أكره أن أموت » ...
ثم تثوب إلى الفتى نفسه فيقول لصاحبه : « لا عليك ،
سأصعد إلى القطار ، فادع لي ! » ثم يصعد متاكئاً متكرهاً
فياتمس مكانه . حتى إذا ظفر به جعل ينظر إلى صديقه
الواقف على الرصيف وقد أخذ القطار يمضي أمامه وشخص

الصديق يصغر في عينيه شيئاً فشيئاً حتى يستخفي .
وينتظر النتي من حوله في القطار فرى رباناً ونساء
ويرى - بلداً ولكنه لا يكاد يلتفت إلى أحد من يرى لأن
شخصاً واحداً قد ماأ عليه نفسه كأنها وهو الموت .
وقد سقت في سمعه حوار قصير بين جماعة يتحدثون
في القطار وهم من غير بعيد يقول أحدهم لأصحابه : اما
الحرب فقد ربحتنا فينا النصر ما في ذلك شك ، بل يكفي
أن ندان الحرب لنثق بأننا متصرون ...

فيقع هذا الكلام من نفس النتي موقع رجب الصدى
الذي يأتي من بعيد ولا يجد في نفسه رداً على ما سمع إلا
ان الالمان انتصروا فسيقتصرون دون أن يشاركهم في
الانتصار لأنه ميت ما في ذلك شك ، ثم يفكر في المسافة
التي تفصل بينه وبين الميدان ، فيقلرها ويحققها وبعد
ساعاتها ويتطعم بأن هذه الساعات هي كل ما اتيح له من
الحياة . والحزن عملاً نفسه وهو حزن خائف مخيف عمليه
البأس والأسى ، فهو في أول حياته وقد كانت له آمال
طوال عراض مشرقة رائعة ولكنها تقطع فجأة ، وهو يريد
ان يحقق هذا الموت الذي ينتظره والذي يحمله القطار اليه
في غير تردد ولا ابطاء ، فأبسر حركة يتحركها القطار
تقربه من الموت وتباعد بينه وبين الحياة ، وهو يذكر
الاعوام القليلة التي اتيح له أن يحياها شاعراً بنفسه ، عاقلاً
لأمره منذ أتبح له العقل ، ويذكر اللذات القليلة التي

أتيحت له . ثم صرفت عنه إلى غير رجعة والذات الكثيرة
التي كان يرتجى أن ينالها . ثم قطعت بينه وبينها الأسباب .
فالمرت ينتظره هناك من وراء الحذرود باستطاعته أن ذراعيه
ليضمه إليه في عذف . أو في رفق .. لا يلزم .

والقطار يمضي به حازماً مسرعاً ليصله إلى داتين القربين .
وهو يذكر أوقاتاً قصيراً نفسه في فراها متين . ثمته الحرب
اليها ولذات خاطفة أتيحت له هناك ، فقد تتيح الحرب للجند
بعض الذات الخاطفة حين تحملهم إلى هذا المكان أو ذاك
ولكنها في هذه المرة لن تتيح له لذة خاطفة أو غير خاطفة
لأنه سيصل إلى الميدان في ساعة بعينها وسيتلقاه الموت اثر
وصوله لا يحمله ولا ينتظر به لذة أو ألماً .

والفتى يثوب إلى نفسه بين حين وحين ويلومها أعنف
اللام لا لأنها تفكر في الموت بل لأنها أثناء تفكيرها في
الموت لا تنأى له بالصلاة والدعاء ، وإنما تنفق وقتها
القليل في استحضار ذكريات لا سبيل إلى أن تعود وليس
يغني استحضارها عنه شيئاً ولا ينفعه قليلاً أو كثيراً .

ما أضعف النفس وما اسخفها وما أحرصها على أن
تضيع وقتها فيما لا ينفع ولا يفيد . إنه لا يحتاج إلى
شيء ، كما يحتاج إلى الصلاة والدعاء . يتهاى بهما لقاء هذا
الموت الذي ينتظره هناك ليتلقاه اثر نزوله من القطار ،
وهو هنا يشغل نفسه عن الصلاة والدعاء بهذه الفتاة التي

لقيها في فرنسا فأحبها وكلف بها ، وكان حبه لها أول عهده بالحب .

ما شأنه بالحب الآن ! ان الحب نعمة تغمر النفس وتملأ القلب حياة وأملًا ولا سيما حين يتاح للفتيان في طور الشباب الذي يتسع للحياة والأمل ولذاتها ، ولكن شبابه هو ليس كغيره من الشباب فهو لا يتسع لحياة ولا لأمل ولا للذة لانه شباب ضيق لا يتسع إلا بمقدار ما يتسع هذا القطار : أو هذا المكان الذي يشغله من القطار ، ولا يطول إلا بمقدار هذه المسافة التي تقصر في كل لحظة بمقدار ما تتحرك عجلات القطار . فليعتمد إلى الصلاة والدعاء اذن يملأ بها هذا الشباب الضيق القصير . ولكنه لا يشقى بنفسه هذه التي تشغله بذكرياتها فحسب وإنما يشقى بجسمه أيضاً . انه يحس الجوع ولم يبق إلا أن يشغله جسمه عن الصلاة والدعاء بحاجته المألحة إلى الطعام . فأبرح جسمه وليكفّه عن هذا النداء الملح وليتناول شيئاً من الطعام وليفرغ بعد ذلك من جسمه ونفسه من ذكريات هذه وجوع ذاك ، وليقصر ما بقي من وقته على الصلاة .

والفني يعمد إلى الطعام الذي أعده له صاحبه القسيس فيصيب منه شيئاً ، ولكن ماذا ! انه يجد للطعام لذة ترغبه في الاستراحة منه . أممكن ان يجد الإنسان لذة الطعام وهو يعلم انه ميت بعد قليل من غير شك ؟ ان امر الحياة لا يخلو من عجب فهي لا تفرق بين الجسد

والهزل ولا بين المهم والسخيف . موت قريباً محقق وجوع مع ذلك وشهوة إلى الطعام ورغبة في الاستزادة منه . فليقطع هذه الشهوة اذن وليصب من الطعام حظاً آخر وليشرب شيئاً من نبيذ . انه لنبيذ عذب المذاق . حسن الموقع في الجوف . انه ليشيع في الجسم حرارة ودفعاً وانه ليشيع في القلب سروراً ونشوة . ان شيئاً من هذا لا ينسيه الموت ولا يشغله عنه ولكنه يخفف من حزنه ومن مرارة يأسه . فليسترد من هذا الشراب كما استراد من ذلك الطعام . وليفرغ بعد ذلك كاه لما ينبغي أن يفرغ له من الصلاة والدعاء ، حتى لا ياقى الموت بنفس مجذبة قاسية .

وقد فرغ الفتى من طعامه وشرابه ولكنه لم يفرغ لصلاة ولا لدعاء ، فقد كان النوم يرقبه من قريب جداً ، فلم يكد يفرغ من طعامه وشرابه حتى مسه يحنأه مساً رقيقاً فأنساه نفسه وأنساه الصلاة والدعاء وأنساه الموت أيضاً . أعرض له الموت في أحلامه ام انتظر به حتى يفيق من نومه ؟ لا يدري . لأنه لم يكد يفيق من نومه حتى رأى الموت ماثلاً أمامه ، بل مستأثراً بنفسه وقلبه ، فهو لا يدري أنام ام لم ينم ، وانما يعلم انه ما زال مصاحباً للموت دائماً . ولكنه يرى رقيقين في القطار لا يذكر انه رآهما حين صعدا إليه ، ولعلهما صعداً إلى القطار اثناء نومه ذاك اليقظ أو يقظته تلك النائمة .

وهما جنديان مثله . وهما ياتمسان الاسباب للحدث اليه .
وما أسرع ما يتصل بينه وبينهما الحديث ، وإذا هما
ينذهبان إلى نفس الميدان الذي يذهب اليه .. ولكن الغريب
ان الذي لا يقدر ان الموت ينتظرهما كما ينتظره . إنما
الموت ينتظره هو وحده فأما غيره فليس يعلم من أمره
شيئاً ولا يعنيه ان يعلم من أمر غيره شيئاً . وهو لا
يعرف اسم رفيقه ولا يعنيه ان يعرف اسمها . فليكونوا
رفاق سفر - أي إذا بلغوا الميدان فترق الموت بينهم -
فاستأثر به وصنعت الأحداث بصاحبيه ما لا حاجة به إلى
ان يعلمه . وهم ينتشرون الرقت في حديث ولعب بالورق
وفي طعام وشراب يشرك كل منهم صاحبيه فيما عنده ،
فقد انت بينهم السفر وألفت بينهم الحرب وجعلتهم رفاقاً
مخلصين في الخير والشر لا يستأثر أحد منهم بشيء من
دون صاحبيه ، والقطار يبلغ غايته بعد ليلة كاملة وبعد
جزء من النهار ، ولكنه ينتهي بهم إلى مدينة قريبة من
الميدان ثم يتركهم فيها ليأخلوا إلى الميدان قطاراً آخر
لا يعرفون مواعده ولا يابشون أن يتبينوا ان قد مدت
إجازتهم بقية يومهم ذاك . فلن يبلغوا الميدان الا في
الساعة السادسة من صباح الغد وليس بينهم وبين
الميدان مع ذلك الا أمد قصير . فلينفقوا يومهم إذن
وادعين في هذه المدينة ، وقد أخذوا في ذلك فأصلحوا من
شأنهم وغيروا ملابسهم واستردوا حياتهم كما تكون في أيام

الأقامة ، وإذا هم فتيان أقوياء عاينهم وسامة ولحم شارة .
واحدهم ضابط رشيق كريم موفور يريد أن يتمتع صاحبيه
بشيء من نعمة اليال قبل ان يذهبوا إلى الميدان . فيو
يدعوهما إلى مطعم فينم يتناولون فيه غذاء مرفقاً . وهو
يذهب بصاحبيه بعد ذلك إلى دار من دور الأثام . وتلد
أسرفوا على أنفسهم في الانعام والشراب . وماذا يصنع
الجند النازعون الذين تتنازلهم الحرب بأهملها من الغد وقد
طعموا وشربوا فأكثرُوا ؟ وهم قد ذهبوا إلى هذه الدار
واختار الضابط لنفسه ولصاحبيه وخلا كل منهم إلى صاحبه ..
ولكن فتانا لم ينس الموت حين طعم وحين شرب وحين
أوى إلى هذه الدار الآثمة ، فقد دخل الموت معه في
ثيابه واستمرت صبرته في عتاه وقلبه جميعاً . واشتد
استئثارها به بمقدار ما قرب الأمد في الزمان والمكان بين
التي وبين الميدان . وهو يلقي صاحبه باسمها لها ولكنه
لا يريد إلا أن تبقى معه في غرفته ، هو لا يبتغي إثماً
ولا لذة وإنما يبتغي فراراً من الوحدة ، فراراً من نفسه
وفراراً من صورة الموت . وصاحبه ضيقة بذلك أول
الأمر ولكنها لا تلبث ان تطمئن إليه . فضرورات الحرب
وقسوة الحياة وطلب العيش هي التي اضطرتها إلى هذه
المهنة البغيضة . ولا تكاد الفتاة تتحدث إلى الفتى حتى يعلم
انها محاربة وانها تتجسس لمواطنيها الثائرين بالعدو المحتل .
قالت ذلك للفتى حين اطمأنت إليه ، وهي في اول امرها

وفي أيام السلم كانت تتهياً لصناعة الموسيقى ، والفتي مشوق إلى الموسيقى . مشوق إليها اي شوق . ومن يدري لعل الموسيقى ترده إلى هذه الصلاة التي لم يفرغ لها إلى الآن . وهو لا يكاد يسمع عزف الفتاة حتى يحبها أعمق الحب وأقواه ، وهي أيضاً قد احبته والفتي كلف بالفتاة إلى أقصى غايات الكلف . ولكنه على ذلك لا يريد إلا صحبتها وإلا صحبتها التي تتصل حتى تسلمه إلى الموت . صحبتها التي تسليه عن الموت ما امتد الليل وتسلمه إلى الموت حين يسفر الصبح . وهما يطعمان ويشربان ويتحدثان . ولكن الباب يطرق وإذا صاحبة الدار تدعو الفتاة لأن القائد يريد لها . وانفتى بأبى أشد الإباء ويمسك الفتاة منه وينفق كل ما عنده من نقد ويتزل حتى عن بعض ملابسها وعن خذائته لتبقى معه الفتاة . وما يمنعه ان يلقي الموت غير كامل الزبي وان يلقى الموت حافياً ؟ وما يصنع الموت بزبه وخذائته ؟ إنما يريد الموت مهجته وحدها . وقد بقيت معه الفتاة ورقت له واقسمت لتنجينه من الموت . فستأتي سيارة القائد في آخر الليل لتحمل اليه الفتاة وسائق السيارة بولندي مثلاً وهو عدو مثلاً للامان . فستصطحب الفتى معها في السيارة وستنحرف السيارة بها قليلاً وسيفران إلى قرية تعرفها الفتاة في شعب من شعاب الجبل . والفتي لا يكره ذلك ولكنه يطمئن بشرط ان يصطحب رفيقه . وما يمنع ان يفروا جميعاً

إلى ثنى من أثناء الجبل فيعيشون فيه حتى تضع الحرب
أوزارها . وقد مضت بهم السيارة مع الصبح ، وهم
جميعاً فيها يحاولون امراً ، وقد دبر القضاء امراً آخر .
فقد نظر فتانا اندريه في ساعته فاذا هو يقرأ الساعة السادسة
ولا يكاد يحول عينه عن ساعته حتى تنشق السيارة نصفين .
سقطت عليها قبلة فجعلتها ومن فيها حطاماً . ويفكر الفتى
اين هو ! واين يداه ورجلاه ! وينظر في سكرة من
سكرات الفجاءة فيرى يداً قد خرجت من حطام السيارة
هي يد صاحبه تلك التي اقسمت له لتذهبن به إلى حيث
يلقى الحياة الناعمة .

أي القطارين كان دقيقاً في المحافظة على مواعده أعظم
الدقة واشدها ؟ أمو ذلك القطار الذي حمل الفتى ورفاقه
إلى الميدان ام هو قطار آخر هياه القضاء ليحمل الناس من
الحياة إلى الموت !

الرَبْوَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ

قصة للكاتب الجزائري مولود معمري

صاحب هذا الكتاب أخ لنا من أهل الجزائر لا أعرفه ولا أكاد أحقق اسمه الذي يحمله كتابه هذا مكتوباً باللغة الفرنسية .

ولو قد كان من أصل عربي لأمكن ان يرد اسمه من التحريف الفرنسي إلى طبيعته العربية الأولى . ولكنه نشأ في قبيلة من قبائل البربر : فتأثر اسمه بلغته الأولى ، وكتب بالاحرف الفرنسية مولود مامري ، وعسى أن يكون أصله مولود معمري . وتعيش القصيدة التي ينتمي اليها الكاتب على ربوة تقوم من دونها جبال شاهقة تحول بينها وبين السهل الذي يسكنه العرب .

وهي كغيرها من القصائد تتخذ الاسلام ديناً ولكنه على

تأصله فيها ، وبعد عهدها به منذ القرون الطويلة قد انحرف إلى شيء من الوثنية التي يسرع بها الجاهل المتصل بكثير من طبقات الدماء . فأفرادها يقدمون الأولياء تقديساً يوشك أن يبلغ العبادة ، وهم يقربون اليهم الضحايا في أيام بعينها من العام ويحملون اليهم الهدايا ، ويتوسلون اليهم بفتون من الدعاء ويتخذونهم وسطاء بينهم وبين الله . وهم وسطاء أقوياء يملكون دفع الأذى وكشف الضر ، كما يملكون تحقيق الآمال وإجابة المطالب : وقبورهم مشهودة دائماً قد وضعت مراسم لزيارتها في بيوتها التي قامت من حولها : كما وضعت مراسم للانصراف عنها بعد الزيارة وبعد رفع الحاجات إليها .

وفي عبادتها أو التقرب إليها من طريق الذكر أمور أقل ما توصف به أنها تنافي المألوف من أمور الدين حتى في البيئات الشرقية الجاهلة . فتدخين الحشيش مثلاً مقدمة من مقدمات الذكر . والذكر نفسه رقص أو شيء يشبه الرقص ، وعلى هذا اللون من ألوان الدين والاعتقاد قامت لهؤلاء الناس عادات ومن تأثروا بها في تصورهم للأشياء وحكمهم عليها وتفكيرهم فيها وتقديرهم لها . وهم على ذلك يؤدون الصلوات لأوقاتها ويصومون حين يظلمهم شهر الصوم ، ويقرون في أعماق نفوسهم ما يقر المسلمون من أصول الإسلام الصحيح ، ثم هم بعد هذا كله ينظرون إلى الطبيعة من حولهم نظرة خاصة ويشئون فيها شيئاً من الحياة

ويضيفون اليها شيئاً من الارادة أيضاً ويجرون بين عناصرها
ضروباً من الصلاة تذكر بالوثنية في بعض البيئات القديمة .

والربوة التي تعيش عليها هذه الفصيلة من فصائل البربر
قليلة الصلة بغيرها من الناس : تكاد تعيش في عزلة لولا أن
ضرورة الحياة تفرض عليها الشعور بأنها تخضع لسلطان
بعيد مختلط هو سلطان الحكومة التي تأتلف من الفرنسيين الذين
يسردون ويدبرون الأمر ومن القادة المواطنين الذين يتوسطون
بين هؤلاء السادة ورعاياهم وساطة فيها كثير من الاستعلاء :
وفيها كثير من الفساد أيضاً . هم في قصورهم أو دورهم أشبه
بالاولياء في قبورهم . للاولياء الوساطة بين الناس وبين الله ،
وللقادة الوساطة بين الناس وبين السادة الفرنسيين .

يقدم القربان إلى أولئك كما يقدم إلى هؤلاء ، وترفع الحاجات
والمطالب والمظالم إلى أولئك كما ترفع إلى هؤلاء ، ويتقى الشر
ويرجى الخير من أولئك ومن هؤلاء . وكذلك تجري أمور هؤلاء
الناس في شيء من الطمأنينة الغريبة التي يمازجها كثير من الخوف
وكثير من الحب والبغض . . فهم يخافون الاولياء والقادة جميعاً ،
ولكنهم يحبون الاولياء ويبغضون القادة ، وهم يدعون للفرنسيين
كما يدعن الانسان للقضاء المحتوم الذي لا حيلة له فيه . لا
يعرفون كيف جاءوا اليهم . ولا يعرفون كيف يخلصون منهم
فهم راضون لأنهم لا يملكون إلا الرضى . هذه هي البيئة التي
نشأ فيها الكاتب والتي صورها في كتابه اجمل تصوير وأروع ،
وهو يكتب باللغة الفرنسية ، وكتابه رائع أشد الروعة وأقصاها

بحيث يمكن ان يعد من خير ما أخرج في الادب الفرنسي اثناء هذه الأعوام الأخيرة ، وان كنت لا أعرف انه ظفر بجائزة من هذه الجوائز الكثيرة التي تمنح في فرنسا لكتب لا ترقى إلى مترلة هذا الكتاب روعة وجمالاً ..

والكاتب معلم في إحدى المدارس الفرنسية بمدينة الجزائر ، وأكبر الظن انه لا يحسن العربية ولا يكتب بها ، وآية ذلك رسالته تلك التي قدم بها كتابه إليّ منذ شهر .

وان مما يؤلم حقاً ان يصدر مثل هذا الكتاب الرائع الممتاز في بلد كالجزائر ، للعربية فيه المترلة الأولى بالقياس إلى أهله ، ولكني لم أتلق من هذا البلد كتاباً بلغة أهله يقارب هذا الكتاب جودة واتقاناً وامتيازاً . واكاد اعتقد ان اللغة العربية في الجزائر لم يتح لها بعد أن تكون لغة الأدب بالقياس إلى الذين يتكلمونها ، لأن العناية بها لا تكاد تذكر، وهذا أقل ما ينتظر من الاستعمار وان كان الفرنسيون يرون استعمارهم للجزائر نعمة لم يحسن الجزائريون شكرها إلى الآن ، وما أحسب انهم سيحسنون شكرها في يوم من الأيام . وكيف السبيل إلى ان تشكر نعمة تعلم الناس لغة غير لغتهم حتى يمتازوا فيها ، ويتصرفوا بها خيراً من تصرف كثير من أهلها وتجهلهم لغة آبائهم وأمهاتهم حتى لا يكتبوا بها أيسر الرسائل وأهونها شأنها .

ولكن أنسيت اني اكتب اليوم في الادب لا في السياسة ، فلأعد إلى هذا الكتاب الذي سماه صاحبه « الربوة المنسية » ولو

كان أمر تسميته اليّ لسميته « خطيبة الليل » لما سترى بعد حين .
وفي الكتاب خصلتان كل واحدة منها تكفي لتبائع
بالكتاب منزلة ممتازة من الجودة والانتقان : فكيف وقد
اجتمعتا اسنن اجتماع . والتأمتا أدق التأم . واثافت منها
موسيقى حلوة مرة ترضي القلب والذوق معاً .

فالكتاب دراسة اجتماعية عميقة دقيقة مفصلة مستقصاة
تصور أهل هذه الربوة في عزلتهم تلك، وقد فرغوا لأنفسهم
واعتمدوا عليها ، فلم يكادوا يذكرون أحداً غيرهم من
الناس . وهم يجهلون ما وراء الجبال التي تقوم دونهم .
لا يعرفونهم إلا حين يضطرون إلى ذلك اضطراراً وما أقل
ما يضطرون اليه ، وهم لا يشعرون بالحكومة إلا حين تجبي منهم
الضرائب على ما تثمر لهم الأرض ، وما يكسبون من المال وحين
تدفعهم الحاجة الملحة إلى ان يوثدوا إلى القائد البعيد شيئاً من الرشوة
لقضاء مأرب من المآرب والعروض التجارية التي يحتاجون اليها ،
وهي قليلة تأتيهم من وراء الجبل ، وربما سعى بعضهم اليها
ليجلبها ولكنهم لا يحفلون بذلك ولا يلتفتون اليه ، إنما هم
فارغون لما تعودوا ان يفرغوا له من حياتهم تلك التي تشبه
الاقطاع الهين السهل ...

جماعة من الاغنياء يملكون الأرض أو أكثرها : وآخرون
من الفقراء يعملون لهم في هذه الأرض ويرعون لهم قطعانهم ،
واولئك وهؤلاء اخوة متحابون ليس فيهم تسلط ولا كبرياء
وانما هو التعاون الرفيق في ظل هذا العرف المقرر الذي

قسم بينهم حظوظهم قسمة جرى بها القضاء كما يجري بكثير من الأشياء . فما ينبغي أن ينكره أحد أن يتعرض عايه إلا بمقدار ما يكون من الضيق بالعاصفة حين ثور أو البرد حين يسقط على الأرض ويتكاثف ، ويضطر الناس إلى أن يلزموا دورهم أياماً تقصر أو تطول ، أو القيظ حين يشتد اتقاده حتى يجعل بعض ساعات النهار قاسية لا تطاق . وهم في حياتهم هذه الوادعة المطمئنة لا يشقون إلا بما يعرض للناس من الشقاء حين تلم العلة أو يطرق الموت . ولا يكادون ينكرون من أمرهم إلا هذا الخلاف اليسير الذي يكون بين الشيوخ المحافظين الذين افوا حياتهم الموروثة وعرفهم المحفوظ . وهؤلاء الشباب الذين اختلفوا إلى المدارس الفرنسية فالتوت ألسنتهم برطانة يعرفونها ولا يحبونها ، وجعلوا يأخذون عن معلمهم وأساتذتهم ويشتهم تلك المدرسية بعض التقاليد الأجنبية التي تفسد عليهم شيئاً غير قليل من تفكيرهم وتقديرهم وتغير آراءهم في بعض العادات والمقدمات ، ومع ذلك فقد اذعن الشيوخ لما ليس بد من الاذعان له فقبلوا الشباب على علائهم ، واضطر الشباب أيضاً إلى شيء من الاذعان فخضعوا للعادات والعرف ينكرونها في قلوبهم ، ويعرفونها في سيرتهم ولا يحاولون تغييرها إلا في كثير جداً من التردد والاستحياء ، ثم هم مع ذلك لا يبلغون من محاولاتهم هذه أو لا يكادون يبلغون منها شيئاً . حياة تمضي مطردة يسيرة لا أمت فيها ولا عوج . لولا

ان القضاء يفجأ الناس بين حين وحين بما لا يقدرّون ، فهذه
نظر الحرب لا تكاد تبلغهم وتدعوهم إلى شيء من الروية
والتفكير والاحتياط حتى تتبعها أنباء الحرب مسرعة ، وإذا
الخوف يستقر في قلوبهم ، وإذا القلق يسيطر على سيرتهم كلها
ثم لا يلبث البريد ان يخطر الدور بوابل من الرسائل موجهة كلها
إلى الشباب تأمرهم ان يسرعوا إلى أماكنهم من الجيش .

فصور لنفسك وقع هذه الرسائل في نفوس الآباء والامهات
وهؤلاء الذين يكرهون على فراق أبنائهم في غير حاجة منهم إلى
هذا الفراق ، وما شأنهم هم بهذه الحرب التي يثيرها الروم فيما
بينهم - والروم عندهم هم الأوروبيون - لا يستشيرونهم ولا
يستأمرونهم ، وليس لهم فيها ارب قريب أو بعيد ثم هم يصلون
نارها . وأي نار ، يصلها ابناءؤهم هيئة أول الأمر حين
ينهبون إلى مواقعهم من الجيش فينفقون وقتاً ما في التدريب ،
ثم يقذف بهم بعد ذلك إلى ما وراء البحر هناك حيث لا يستطيع
احد أن يعرف من امرهم ، ولا من مصيرهم شيئاً . وإنما هي
صور الموت المنكرة بشعة متوثبة قد فغرت أفواهها وبسطت
أيديها الطوال القوية لتخطف الشباب وترددهم ازدراداً في
غير رفق ولا لين .

وهؤلاء الآباء والامهات لا يجهرّون بشيء من هذا وانما
يجمعون به ويرددونه في ضمائرهم ترديداً ملحاً اليماً ، وهم
على ذلك يتجلّدون تجملاً وتكرماً فيما بينهم ، ويتجلّدون تجملاً
وتكرماً فيما بينهم ، ويتجلّدون حباً لأبنائهم ورعاية لهم ، كذلك

يكظمون الغيظ ويحبسون العبرات ، حتى إذا خلوا إلى أنفسهم ساعة من نهار أو ليل أرسلوها على سجاياها فشكوا وألحوا في الشكاة ، وبكى النساء وامعن في البكاء ثم خرجوا بعد ذلك كراماً لا يظهر عليهم إلا حزن وقور .

والشباب قد عرفوا من شؤون الحرب الماضية القرية مما يبعث اليهم هذه الحرب الجديدة وينفرهم منها نفوراً شديداً . في نفوسهم القلق وفي نفوس كثير منهم اليأس ، ولكنهم كأبائهم يتجلدون . يرفقون بهؤلاء الشيوخ من جهة ويكرهون ان يظهر عليهم الفرق والضعف من جهة أخرى ، فقد ينبغي أن يكونوا رجالاً وان يكبروا في نفوس رفاقهم وفيما بينهم وبين ضائرتهم أيضاً .

الشباب اذن يتأهبون للسفر ، والشيوخ يهثون لهم أسبابه ، ثم تأتي الليلة التي سيسافرون من غدها ، فسل عن القاوب الواجفة والنفوس الخائفة وعن الحشرات المكظومة والعبرات المكتومة ، وهذه الليلة تقصر حتى كأنها ساعة ، وتطول حتى كأنها ليال طويلة يقصرها الحرص على البقاء بين الأهل والاصديق ، وفي ظلال الوطن الحبيب ، ويطولها توقع الهول الذي ستكشف عنه ساعات الفراق ، ثم تأتي هذه الساعة قبل أن تشرق الشمس فيخرج الشباب في غير فرح ولا مرح تشيعهم صيحات الامهات والاخوات والزوجات ودعوات الآباء الذين يعرفون كيف يحتفظون بالاناة والجدة ويدخرون لأنفسهم كنوز الحزن والقلق والخوف ، والحرب لا تأخذ من هؤلاء الناس أبناءهم وحدهم

وانما تأخذ معهم الدعة والامل والرضى : وهي لا تنجاب لهم
الخوف والحزن وحدهما . وانما تنجاب لهم معها مصائب الحياة
من كل لون . فما أكثر ما تستولي الحكومة على بعض ما يماكون
من اداة وحيوان . وما تخرج لهم الأرض من ثمرات . وما أقل
ما يجلب اليهم من حاجاتهم . وما تكاد الحرب تنفق الأسابيع
الأولى من حياتها المنكرة حتى يكون الغلاء الذي يجعل حياة
الفقراء وأوساط الناس عسراً كلها وضيقاً .

غير ان الحرب في أول أطوارها لا تصيب الناس بشرتها
كله ، فما تلبث الهزيمة أن تلم بالفرنسيين وتستقر في بلادهم
وتظهر آثارها في الجزائر وقد سرح الجيش وعاد كثير من
هؤلاء الشباب إلى أهلهم وأوطانهم موفورين واستأنفوا حياتهم
كما كانوا يحيونها من قبل ولكن فيها ضيقاً وعسراً وضروباً من
المصاعب والواناً من الشدائد الثقيل .

والشيوخ راضون بعودة أبنائهم اليهم ، والشباب راضون
باستئناف حياتهم على ما فيها من عسر وضيق ولكن الحرب
تستأنف بعد شيء من الوقت . فهؤلاء الأميركيون قد احتلوا
الجزائر وأخذوا في طرد الألمان من شمال افريقيا ، والفرنسيون
يريدون أن يشاركوا في الحرب والانتصار ، فيدعى هؤلاء الشباب
إلى مواطنهم من الجيش مرة أخرى ويستأنفون حياتهم تلك
القاسية المرة التي ذاقوها منذ حين .

هذه هي الصورة الاجتماعية التي يصورها لنا الكاتب في
كتابه ، وقد أوجزتها إيجازاً شديداً وتركت خير ما فيها مما يسخط

ويرضي . ومما يخزن ويسر . فاني لا أفصل الكتاب وانما أخصه وأترك لمن شاء واستطاع من القراء ان يقرأ كاملاً . وانا بعد لم أتم إلا بالخصاصة الاجتماعية لهذا الكتاب ، وقد قلت ان في الكتاب خصاصة أخرى رائعة أشد انروعة وهي هذه التي ننزل بحياة جماعة من العتيان فيما بينهم من جهة وفيما بينهم وبين أنفسهم من جهة أخرى . وهم ذرية مختلفة من طوائفهم من الغنى والفقر ، ولكنهم على ذلك متقاربون أشد التقارب تجمع بينهم قياتهم وتجمع بينهم سنهم ويجمع بينهم اشتراكهم في جد الشباب ولعبه . هم ينسون ما بينهم من الفروق حين يلتقون لياحبوا أو يسمروا أو يأخذوا فيما شاء الله ان يأخذوا فيه من فنون الشباب حين يتاح لهم الترخ ، وهم جميعاً ينعمون بالحب حين يكون في نفوسهم أملاً يداعبونه ويجدون اللذة في مداعبته ، والتحدث فيه ، وينعمون كذلك حين تتاح لهم بعض لذاته النقية البريئة يختطفونها اختطافاً ، فتكون لهم متاعاً وذكراً ، ثم هم جميعاً يشقون بالحب حين تتحول آماله إلى يأس مهلك لا راحة منه ولا سبيل إلى اتقائه ، أو حين تحقق آماله فتملأ القلوب رضى وغبطة ، وتملأ الحياة سعادة وهناءة واشراقاً ثم لا يابث الحرمان ان يمسها بجناحه البغيض فتتحول يأساً مظلماً ينتهي بأصحابه إلى الموت .

هذا قد احب صاحبه أشد الحب ، ولم يشك في أن حبه هذا منه إلى غايته من اجتماع الشمل وتحقيق الامل . ولكن اسرة الفتاة يغرها غنى في آخر فتوثر الاصهار اليه وترضاه لابنتها

زوجاً . والفتاة تحب صاحبها القديم ولكنها خاضعة لعرف
القبيلة وتقاليدها فهي تكظم حبها وتكتم شقاءها به وتمنح
زوجها من الوفاء والانخلاص والنصح والصدق في العشرة
وحسن الرعاية لحقوقه ومصالحه ما ينبغي للمرأة الحرة الكريمة
ان تختص به زوجها .

ولكن القلوب ليست بأيدي أصحابها يصرفونها كما
يجبون ، وإنما هي بأيدي هذه العواطف النائرة الجائعة التي
تملك عليها أمرها كله وتديرها كما تشاء .

فلا أدل من ان تملك هذه المرأة أمر نفسها في قوة
وحزم ومضاء فلا تفرط في حق زوجها ولا تستجيب لهذه
العواطف الجائعة حين تدعوها إلى بعض ما تريد . فلتظهر
سعادة وأمناً ورضى ولتضمّر شقاء وخوفاً وحزناً ، ولتخف
ما تضمّر على الناس جميعاً وعلى هذا المحب القديم خاصة
فما ينبغي أن يظهر منها على ضعف ولا أن يجد إلى الطمع
فيها سيلاً ، وهي تراه مولها ملهاً مفتوناً قد أخرجه الحب
عن طوره ودفعه إلى الوان من التصرف الغريب ، وهي
تبتهج بما ترى وتظهر مع ذلك قسوة لا حد لها .

وهذا فتى آخر يحب صاحبه ، ويكلف بها أشد الكلف ،
يفطن لحبه قبل أن تظن له صاحبه فهي مشغولة عنه وعن
الرفاق جميعاً بحب لها آخر شديد الأثرة ، شديد الغيرة ، يريد
أن تكون له وحده لا يشاركه فيها شريك من قرب ولا من بعد
وهذا المحب الاثر الغير ان الذي لا يحب هذه الفتاة وحدها وإنما

يحب معها فتيات أخريات كثيرات قد بسط عليهن سلطاناً قاسياً صارماً فهن خالصات له لا ينبغي أن يشغلن شأكل . وهذا المحب القاسي هو الليل ، الليل الذي ألف عشيقاته من فتيات الأنهار والغابات يسعين إليه مصطحبات منذ تبحج الشمس إلى الغروب حتى تؤوب إلى مشرقها مع الصبح ، وصاحبتنا تسعى معهن إلى الليل وتخلص له معهن من كل شيء ومن كل انسان ، فاذا أقبل النهار عادت إلى رفاقها تشاركهم فيما يأخذون فيه من لعب أو حديث . وقد أتيح لهذا الفتى أن يستخلص حبيبته من عاشقها ذلك الغريب المخيف وان يتخذها لنفسه زوجاً ، فهو ناعم سعيد وهي ليست أقل منه سعادة ونعياً لولا هذه الحرب التي تفرق بينهما مرتين ، ولولا أم الفتى هذه التي لم تزوج ابنتها لتسعد بنعيمه ورضاه ، وانما زوجته لينجب لها الولد الذي يحفظ اسم الأسرة من الضياع ، ويحفظ ثروة الأسرة من أن تنقل إلى الغرباء .

والأم تنتظر الولد فيطول انتظارها حتى إذا أدركها اليأس ضاقت بهذه الزوجة السعيدة وأرادت أن يطلقها ابنتها وان يتخذ مكانها زوجة ولوداً . ولكن الفتى يأبى ويمتنع في الآباء ، والام تلح وتمتنع في الأحاح ، والفتى يلتصم الحيل على اختلافها ليتاح له الولد ، وإذا هو ينسى ما تعلم في المدارس والجامعة ، ويطلب للولد عند القديسين كما يطلبه من عجائر القبيلة دون أن يبلغ شيئاً . والزوجة الشابة محزنة قد استحالَت سعادتها شقاء وامنها خوفاً واشفاقاً .. والوالد الشيخ حائر بين زوجه ثلاث التي تلح

وابنه الذي يحب . ولكنه ينتهز غيبة ابنه فيحمل الزوجة الشابة إلى أهلها ، ويضطر الفتى إلى فراقها . والفتى من أجل ذلك يمضي إلى الحرب حين يدعى إليها في المرة الثانية ، مطمئناً إليها ، قد كره الحياة وأنكر كل شيء فيها . وهو يشارك في بعض المواقع ويحسن البلاء ويعود مع بعض رفاقه في اجازة قصيرة لبري القرية ومن فيها وليلم بزوجته تلك التي أكره على فراقها ، وقد تلقى منها كتاباً تتحدث فيه عن حبها اليائس وبؤسها المقيم ، وتذكر له فيما تذكر انها لم تكذب تبلغ أهلها حتى احست الحمل فهي تنتظر الولد اذن بعد حين .

وقد سلك الفتية طريقهم إلى قريتهم في يوم عاصف يسقط فيه الثلج فيكسو قمم الجبال ثم ينحدر فيغطي السفوح ، وما تكاد السيارة تسلك طريقها بالفتية إلى القرية حتى يتبينوا ان العاصفة قد أخذت عليهم طريقهم بما ألقت فيها من ثلج وبما صدعت من صخور الجبال ، فيعودون أدراجهم ينتظرون هدوء العاصفة ، الا الفتى هذا المشغوف بقاء زوجته تلك المطلقة بغير حق ، فهو يخالف رفاقه ويزعم أن يبلغ القرية ماشياً وان يقتحم الهول في سبيل ذلك ، وهو يلوح زوجته تلك خطيئة الليل تراءى له من بعيد تدعوه دعاء المحب مرة وترجره زجر اللاتمة مرة أخرى ، وهو يستجيب لها ويمضي أمامه يغالب العاصفة والبرد والثلج والجبل . ويخيل اليه انه من قريته غير بعيد ، ولكنه لا يجد القوة على المضي أمامه ، قد أنهكه هذا الصراع المر فيجلس لیسأخذ نصيباً من راحة ولكنها جلسة

لا يقوم منها فقد انتهى به الأعياء إلى اقصاه وكان الموت
ينتظره في ذلك العطف من أعطاف الجبل ، فتلقاه رقيقاً به
عطوفاً عليه .

وفتية آخرون وشيوخ آخرون أيضاً يصور لنا الكاتب
حياتهم على هذا النحو من التصوير الدقيق الذي يصدر عن شعور
صادق وحس رقيق وعواطف قوية قد تبلغ القوة بها طوراً من
الحدة في كثير من الأحيان ولكنها حدة لا تلبث ان تثوب إلى
شيء من الهدوء والاعتدال . والحرمان المتصل أو الحرمان
الطارئ هو الفكرة المصاحبة للكتاب منذ يبدأ إلى أن ينتهي
وهو حرمان يتصل بالنفوس في أكثر الأحيان ولكنه ربما
يتصل بالمال أيضاً ، فينقص حياة سعيدة كانت خليفة ان
تحضي في سعادتها وان تتيح لأهلها النعم وتنشئ من رزقوا
من الولد في ثراء ونخوض ، ولكن الحرب قد جاءت فيها
جاءت به بكثير من الكوارث التي تفقر بعض الأغنياء
وتغني بعض الفقراء وتقلب حياة بعض الأسر ظهراً
لبطن ، فيشقى بذلك قوم كانوا خليقين ان ينعموا، ويسرف
قوم آخرون في سعادة كان يمكن ان ينعموا بها في شيء
من التوسط والقصد والاعتدال .

وفي الكتاب كآبة هادئة تصحبه كما يصحبه الحرمان ،
ليست كآبة يأس ومسخط وثورة ، وإنما هي كآبة
رضى بالقضاء ، واذعان للخطوب ، وانتظار لما يمكن أن
يأتي بما يخرج هذه الربرة من هذا النسيان الذي يغمرها ،

ومن هذا الاهمال الذي يعرضها لكثير من الخطوب ،
ولعل الزمان أن يتيح لهم حياة يشاركون فيها مؤثرين لا
متأثرين فحسب ، وعاملين منتجين لا مدعنين خاضعين
لما يلم بهم من الصروف .

ما أشد اعجابي بهذا الكتاب الذي لا أنكر من أمره
شيئاً إلا أنه لم يكتب بالعربية ، وكان خليقاً أن يكتب بها .
ولكن هذا عيب لا يؤخذ به الكاتب وإنما يؤخذ به الاستعمار ،
وما أكثر ما يؤخذ به الاستعمار من العيوب والذنوب .

الْقَرَّةُ الظَّالِمَةُ

فلسفة وأدب ... للدكتور محمد كامل حسين

وأخيراً أتبيح لنا كتاب نقرأه بعقولنا في اناة ومهل وفي تدبر وتفكر ، وفي كثير من المراجعة وكثير من الوقوف عند هذا الفصل أو ذاك من فصوله ، لا نمر به مسر السحاب ولا تلتهمه الابصار والآذان في أقصر وقت ممكن ولا نكره الالسة كراً .

أتبيح لنا كتاب لا نقرأه لقطع الوقت ولا نقرأه لندعو بقراءته النوم حين يمتنع علينا وإنما نقرأه لنفهم عن كاتبه ما أراد ان يسوق إلينا من حديث ، ولنرى بعد ذلك أنقبل حديثه أم نزور عنه ، أنقبل على معانيه اقبسال المشوق الوامق أم ننفر نفوراً شديداً؟ كتاب لم يرح كاتبه ولن يربح قارئه ، وأكبر الظن ان كاتبه قد أهدي

الينا فيه خلاصة حياته وصفوة تجاربه ونتيجة جهوده المتصلة التي أنفقها دارساً للطب والجراحة ، معالجاً للمرضى . مبتلياً أخبار الناس وأسرارهم . ممتحناً ما يكون من سرته من أفراد وجماعات وما يكون من تجاوب بين هؤلاء الأفراد والجماعات حين يعرف بعضهم بعضاً ، وحين ينكر بعضهم بعضاً ، وحين يكر بعضهم ببعض ، وحين يسعى بعضهم إلى بعض بالخير والمعروف .

وأهدى الينا فيه كذلك خلاصة حياته قارئاً هذه القراءة المتصلة التي يستريح اليها إذا فرغ من طبه ومرضاه ومن اتصاله بالناس ، سعيداً بهذا الاتصال حيناً ، وشقيماً به أحياناً . فصاحب هذا الكتاب من أشد الناس حباً للقراءة وأعظمهم بها كلفاً وأكثرهم عليها إقبالاً . لا يكاد يستريح من جهده إلا اليها ولا يكاد يفرغ من العمل والناس إلا لها . وقراءته متنوعة أشد التنوع ، فهو يقرأ في الطب والجراحة كما يفرض عليه صناعته ، ويقرأ في العلم والفلسفة كما يفرض عليه عقله وطبيعته ، ويقرأ في الادب القديم والحديث ، العربي والاجنبي ، كما يفرض عليه مزاجه ، وهو لا يقرأ بقلبه وحده ولا يقرأ بعقله وحده وإنما يقرأ بهما جميعاً . وأبغض شيء اليه هذه القراءة السريعة اليسيرة التي يغرق الناس فيها من حوله إلى أذقانهم أو إلى آذانهم في هذه الايام . ثم هو لا يفرغ من قراءة إلا ليستبقي منها شيئاً يدخره في زاوية من زوايا نفسه قبل أن يأخذ في قراءة أخرى .

كذلك عرفته منذ زمن طويل جداً : ولذلك انتبه
وأحبيته منذ عرفته : ولذلك اطمأنت إلى حديثه وشغفت
بمجلسه لأن حديثه صورة لعقله . وصورة لقلبه أيضاً .
وخير حديث الناس ما أنبأ عن العقول والقلوب ولا سيما
حين تكون العقول ناضجة والقلوب حية دائماً يقظة دائماً.
ومن أجل ذلك لم أكد اتلقى كتابه هذا حتى انصرفت عن
كل شيء وأقبلت عليه من دون كل شيء فلم أدعه حتى
فرغت من قراءته الآن . وما أرى إلا اني سأعود إلى
قراءته مرة أخرى ...

وما أرى إلا اني سأعود إلى بعض فصوله بين حين
وآخر بعد هذه القراءة الثانية : فقراءته لا تمل كما ان
حديثه لا يمل .

وأريد بعد ذلك ان أشخص هذا الكتاب لا ان ألخصه :
فتلخيصه عسير أعظم العسر يوشك ان لا يكون إليه سبيل ،
وكل فصل من فصوله يحتاج إلى مقال خاص يناقش ما
جاء فيه من الخواطر والآراء . وأنا بعد لا أريد إلا أن
أدل القارئ عليه وأدعوه إلى قراءته ان كان من الذين
يألفون الصبر على الفلسفة الحية والغوص في أعماق الحياة
الاجتماعية والفردية في هذه الأيام ، التي ان امتازت بشيء
فانما تمتاز باختلاط القيم فيها وقصور الناس عن أن يفقهوا
حقائقها ويتعمقوا أسرارها ، لأنها تعجلهم عن ذلك وتصرفهم
عنه صرفاً . والكتاب في ظاهره قصة أو قصص كثيرة تدور

حول موضوع بعينه يجعل منها وحدة واضحة لا اختلاف فيها ولا اضطراب . وقد حدد زمان هذه القصص وحدد مكانها أيضاً . فأما الزمان فقصر جداً لا يكاد يتجاوز يوماً وليلة ، وهو الوقت الذي امتحن فيه المسيح حين تألب عليه بنو اسرائيل وأرادوا به الكيد . وأما المكان فهو أورشليم ، وربما تجاوز هذه المدينة إلى هذه الناحية أو تلك من نواحي فلسطين .

وشخص المسيح فيها لا يرى ولا يسمع وإنما هو موضوع الحديث فيها كلها نسمع عنه وتنقل البنا عنه الأحاديث ولكتنا لا نراه ولا نحس شخصه ، وهو مع ذلك مائل في قلوبنا وعقولنا لا يرحها منذ نبداً في قراءة الكتاب إلى أن تفرغ منها . ومع ذلك فهذا الزمان الذي حدد يوم واحد ممتد إلى غير مدى . وهذا المكان الذي حدد بمدينة واحدة ممتد يسع الأرض كلها في جميع عصورها وفي جميع أطوارها منذ عاش فيها الناس ...

وأشخاص القصص محدودون أيضاً ، فأكثرهم من بني اسرائيل يضاف اليهم نفر من الرومان ورجل واحد أثيني ورجل آخر لا نعرف من أين هو ، وإنما تحدثنا الانباء بأنه جاء من أقصى الأرض مع آخرين يهديهم النجم ليحيوا المسيح بعد مولده .

ولكن أشخاص القصة على ذلك لا يحصون وليس إلى احصائهم سبيل لأنهم الناس جميعاً في كل زمان ومكان :

فحديث المسيح في هذا الكتاب ليس إلا رمزاً لحديث
الناس في كل عصر وفي كل بيئة حين تعرض لهم الأحداث
وحين تلم بهم الخطوب وحين تمتحن عقولهم وقلوبهم
وضمائرهم . وتستطيع أن تقول ان موضوع الكتاب في
حقيقة الأمر إنما هو هذا الصراع المتصل بين القوى الثلاث
التي تأتلف منها حياة الانسان ، وهي قوة الحياة الغريزية
وقوة العقل وقوة الضمير . فليس في حياة الناس شيء
خطير أو ضئيل الا وهو مردود إلى الصراع بين هذه القوى
التي ليس منها كلها بد ليكون الانسان انساناً .

ولكني لا أحب لك أن تخدع نفسك وأن تقبل على
الكتاب على أنه قصة أو طائفة من القصص فان يلبث هذا
الخداع أن يزول لمجرد النظر فيه . فالقصص في هذا
الكتاب وسيلة لا غاية ، وقد اكتفى الكاتب من هذه
الوسيلة بأيسرها وأهونها ليقدم اليك الاشخاص الذين يحاور
بعضهم بعضاً بين يديك في هذا الموضوع أو ذاك من
موضوعات الحياة الانسانية . بالضبط كما يفعل أفلاطون
حين يقدم لك أشخاص كتبه الذين يحاور بعضهم بعضاً أو
الذين يحاورهم سقراط . ولا يريد أفلاطون أن يقص عليك
قصة وإنما يريد أن يحضرك مجلساً من مجالس الحوار ،
والحوار عنده ليس غاية وإنما هو وسيلة إلى فن من فنون
الفلسفة السياسية أو الطبيعية أو الخلقية أو ما شئت من
موضوعات الفلسفة .

وكذلك يعمد كاتبنا إلى القصص والحوار ليخوض بك
فيما شاء الله أن يخوض فيه من فلسفة الحياة الانسانية حين
يلقى الناس بعضهم بعضاً وحين يخلو أحدهم إلى نفسه فيما
يعرض له من الامر وما يأم به من الخطب وما يثور أمامه
من المشكلات .

فهذا الفتي الوسيم ذو المكاة الرقيقة والثراء العظيم لا
ينبغي أن يخذلك عن نفسه حين يتحدث إلى زوجه الشابة
الجميلة التي ملكت عليه قلبه والتي أحبته أشد الحب وكلفت
به أعظم الكلف ، وحين يتحدث إليها في يوم عيدها .
فالكاتب لا يعنى من أمر هذا الفتي ولا من أمر زوجه
بشيء ، بل هو لا يعنى بحبها نفسه ، وإنما يريد أن
يصور لك ان خطباً عظيماً ألمّ بيني اسرائيل وانهم يحاكمون
المسيح ويريدون أن يبطشوا به وأن الفتي هو صاحب
الاتهام ، وهو مشغول بهذه القضية الضخمة لا يستطيع أن
يفرغ لزوجه في يوم عيدها . وهي ضائقة بذلك ، ثم
كارهة له ثم منصرفة عن زوجها وعن حبها وعن عيدها
لأنها قد شغلت عن هذا كله بالمسيح وبهذا الظلم الذي
يُصب عليه صيماً . وزوجها نفسه لا يكاد يتركها محزوناً
لما أصابها من الضيق حتى يشغل عنها وعن حبها وعن
عيدها وعن حزنها لأنه رأى ما أفسد عليه تخمسه في
مخاصمة المسيح وفي دعاء بني اسرائيل إلى أن يصبوا عليه
الظلم صيماً .

وهذه الفتاة الاخرى المجدلية التي أفسدت الكبرياء عليها وعلى أهلها وقريتها أمرهم كله حتى كان منهم القتل وحتى عظم بينهم الشر وحتى اضطرت إلى أن تفارق قريتها وإلى أن تقارف الأثم . هذه الفتاة في نفسها ليست إلا وسيلة إلى شيء آخر هو تصوير الظلم الذي يراد بالمسيح وتصور ما يشبه هذا الظلم في بعض النفوس من ايقاظ الضمير وتطهير الناس من آثام الحياة ونقائصها ومن غرورها وباطلها حتى يندفعوا إلى الإيمان اندفاعاً يرفعهم إلى منازل القديسين .

وقل مثل ذلك بالقياس إلى جميع الاشخاص الذين تلقاهم في هذا الكتاب . ليسوا جميعاً إلا وسائل لمسا يريد الكاتب أن يسوق اليك من أحاديثه في فلسفة الحياة الفردية والاجتماعية .

وأكاد أعتقد ان كاتبنا لم يرد ان يصور قصة المسيح ولا ظلم بني اسرائيل له ليصل إلى غاية من هذه الغايات الدينية التي يقصد اليها الكاتبون حين يعرضون لهذه القصة أو ما يشبهها من القصص ، وإنما أراد إلى غاية أخرى كان يمكنه ان يصل اليها بتصوير أي شخص آخر مخلص صادق يريد الخير للناس فصب عليه الشر . ودبر له الكيد من الذين أراد اصلاحهم . ولو عرض كاتبنا لقصة سقراط مثلاً لاستطاع ان يتخذها وسيلة إلى ما أراد لولا انه صدر في حديثه بعض المعجزات ، وان سقراط لم يصنع معجزة أو

شيئاً يشبه المعجزة كما يفهمها الذين يتحدثون في شؤون الدين .

وما أريد أن أدخل في هذا الحوار السخيف الذي يحب الناس أن يخوضوا فيه في هذه الأيام حول طبيعة هذا الكتاب . أقصة هو لأنه يحدثنا عن أشخاص وعن أحداث عرضت لهم وخطوب ألت بهم في زمان بعينه ومكان بعينه ؟ أم هو شيء آخر غير القصة لأنه لم يستوف الشروط التي يشرطها المتكلفون من النقاد لهذا الفن ؟ بل أنا لا أريد أن أخوض في حوار آخر حول هذا الكتاب ! أدب هو بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة أم فلسفة وإلى أي لون من ألوان الفلسفة يمكن أن يضاف ؟

كل هذا كلام لا يعنيك ولا يعني لأنه لا يعني عنك ولا غني شيئاً ، وإنما الشيء الذي يعنيك ويعني هو أن الكتاب ممتع بأوسع معاني هذه الكلمة وأدقها وأصدقها : ممتع بموضوعه وممتع بما يثار فيه من مشكلات الحياة الإنسانية ومن وجوه الصراع بين العقل والضمير وبين الحياة العملية التي تملؤها التجارب وتفعمها الخطوب ، وبين الدين الذي يدعو إلى الطهر والنقاء وإلى الدعة والسلام والعافية بين الناس ، وإلى الخير الشامل الذي لا يشوبه الشر من أي وجه من وجوهه .

وممتع بعد ذلك بلفظه العذب واسلوبه السمع وصرامته التي لا تحول بينه وبين اليسر ، ووضوحه الذي لا يهبط

به إلى ما تألف في هذه الأيام من هذا الوضوح البغيض
الذي يزهد في القراءة ويصد عنها كأنه يتجه إلى آذان
القارئ وأبصارهم والستهم دون أن يتجه إلى عقولهم
وقلوبهم . أو كأن الكتاب حين يكتبونه يضعون قراءهم
في منزلة من الغباء والسذاجة لا يستطيعون معها أن يفقهوا
أو يذوقوا إلا إذا جليت لهم الأشياء تجلية لا يحتاجون معها
إلى جهد أو عناء .

والكتاب على يسره ووضوحه وصفائه لا سبيل إلى
قراءته إلا بالعقل كما ذكرت في أول هذا الحديث لأنه
موجه إلى العقل وحده وإلى العقل الذي يفلسف الأشياء
ويتعمقها ولا يطمئن إلا إلى ما يفهم حق الفهم ولا
يكتفي بالجمل الغامضة ولا بالعبارات المبهمة التي يشيع
فيها اللبس .

وليس في الكتاب فصل إلا وانت تقروءه فتجد فيه ما
يلذك ويمتلك ويدعوك إلى التفكير الطويل ويشرك في أكثر
الاحيان إلى الجدل والخصومة ، وربما وقفك من الكاتب
موقف المخالف له المنكر لما يقول في هذه المشكاة أو تلك .
ولكنك تخالف الكاتب بخلاف المحب له المستأنس إليه الذي
لا يعنف بك فيما يهدي اليك من رأي فلا يتعرض لأن
تعنف به فيما يهدي اليه من رد عليه .

وفي الكتاب بعد هذا كله أو مع هذا كله آراء تفجأ
قراءنا في هذه الأيام وتقفهم موقف الحيرة وتخرجهم عن

أطوارهم أحياناً ولكنهم حين يفكرون في أناة ومهمل
يثوبون الى الكاتب راضين عنه مرة ومخالفين له في ابتسام
رفيق مرة أخرى .

أنظر اليه حين يحاول ان يلقي في روعك ان الضمير
خاصة من خصائص الفرد يأمره بالخير وينهاه عن الشر
ويصدّه عن الظلم والاذى . وان الجماعة لا ضمير لها فهي
مدفوعة الى ما تدفع اليه في غير روية ولا تدبر ولا شعور
بعواقب ما تأتي من الامر أو تدع ، كأن كل فرد مسن
أفرادها ينسى ضميره حين يلقي نظراءه ، وكأن شيئاً آخر
غير ما ركب في الافراد المجتمعين من ملكة العقل والضمير
هو الذي يسيرهم ويسيطر عليهم في كل ما يقدمون عليه .
أحق هذا ؟ أم الحق شيء آخر هو ان للجماعات كما
يقول بعض الاجتماعيين ضميراً اجتماعياً له طبيعة أخرى غير
طبيعة الضمير الفردي ، بل للجماعة نفس أخرى غير نفس الفرد .
ولأمر ما حاول علماء النفس ان يضعوا علماً خاصاً
لسيكولوجية الجماعات هو الذي يسمونه علم النفس الاجتماعي ؟
أم الحق هو أن ضمير الفرد يخرج عن طوره في الجماعة
وينتقل منه الى طور آخر ويتشكل بشكل آخر يفرضه
وجوده مع نظرائه ؟ فالفرد من غير شك ينسى أكثر
فرديته حين يختلط بأمثاله ولا يستبقي من هذه الشخصية
الا أقلها وأيسرها وأعجزها عن المقاومة . قل ما شئت ،
ولكن الذي ليس فيه شك هو ان الجماعة ليست مجردة من

الضمير ، وإنما هي مجردة من الضمير الفردي تتأثر بضمير آخر مشترك يقدر الخير والشر والخطأ والصواب على نحو يخالف النحو الذي يقدر به الضمير الاجتماعي هذه الاشياء .
وأنت تستطيع ان تقبل من الكاتب رأيه في أن الضمير مقصور على الفرد وان الجماعة لا ضمير لها أو ان تجادله فيه ، ولكن الشيء المحقق هو ان خلافاً لك معه لن يتجاوز الرفق بالاسم .

وانظر اليه حين يجري على لسان بعض بني اسرائيل هذه النظرية الرائعة المريحة التي تضحك أكثر مما تقنع وتصور مذاهب بعض الفقهاء في الحيل وهي ان الاثم الذي تقرفه الجماعة لا عقاب عليه لأنه موزع بين أفرادها أو لأن تبعته شائعة لا سبيل إلى أن يلزم بها فرد دون فرد فهي اجدر ان تسقط ويلغى حسابها وكذلك تستطيع الجماعة ان تقرف كبائر الاثم دون أن يتعرض فرد من أفرادها لعقاب أو حساب .

ونظرية أخرى ليست أقل من هذه النظرية اثاراً للعجب المبتسم يجريها الكاتب أو يديرها الكاتب في نفس الخير الاكبر لليهود ، فهو ينكر مخطط المسيح على الفريسيين وما يصطنعون من النفاق والرياء في الدين ويرى ان الرياء في الدين ينفع ولا يضر ، ينفع الجماعات لأنه قد يدعوها إلى الايمان ، وقد يغريها بالخير . ولا على الجماعات التي ترى مظاهر هذا الدين الذي يتكلفه أصحابه رثاء الناس ان

يكون هؤلاء المتكلفون مخلصين أو منافقين فان حسابهم على ذلك إلى الله إن يشأ يعذبهم أو يتوب عليهم .

وواضح ما في هذه النظرية من الخطر لأنها تغري كل الناس بأن يتخذوا النفاق وسيلة إلى الإصلاح ، ومن يدري عسى أن يتاح لهذا النفاق ان يبلغ من الإصلاح في نفوس كثير أو قليل من الناس ما يريد أصحابه ، وان يشفع لهم ذلك عند الله فيغفر لهم نفاقهم لأنهم أصلحوابه نفوس الناس وان افسدوا به ذات نفوسهم . وكذلك يصبح المبدأ المشهور الغاية تبرر الوسيلة سائغاً في الدين نفسه . ولست أدري أدارت هذه الفكرة في رأس الحبر الأعظم لليهود حقاً أم ادارها الكاتب في رأسه ذاك : فكل الشخصية التي صورها الكاتب لهذا الحبر الاعظم غريبة حقاً . فهو لم يكن مطمئناً إلى اتهام المسيح ولا إلى ما يراد ان يصب عليه من الظلم : وانما كان ضميره مضطرباً أشد الاضطراب ، يقدم على هذا الأثم العظيم غير مقتنع به ، وانما هو مضطر اليه اضطراراً لأن جماعات الشعب تريد اقترافه . وليس لجماعات الشعب كما رأينا آنفاً ضمير يحاسبها أو يحاسبه وهذا الاضطراب في الحكم ليس مقصوداً على الحبر الأعظم ولكنه يوشك ان يكون شائعاً بين أجبار بني اسرائيل جميعاً . فمفتي بني اسرائيل غير مقتنع بهذا الظلم ولا راض عنه . وكثير من أجبارهم يقدم كارهاً على هذا الأثم لأن الشعب يريد ما ينبغي لقادة الشعب ان يخالفوا

عن ارادته فيضطرهم ذلك إلى التضحية بمكانهم من قيادته والتسلط عليه .

وكذلك يُكره الاحبار على التورط في هذا الظلم والشعب هو الذي يكرههم عليه . ولست أدري إلى أي حد نستطيع ان نطمئن إلى هذه الصورة التي يعرضها الكاتب للصلة بين أحبار بني اسرائيل وبين الشعب . فالذي نعرفه مما وصل إلينا من الروايات والانباء ان الخصومة إنما كانت بين المسيح وبين الاحبار أكثر مما كانت بينه وبين عامة الشعب . وان الاحبار هم الذين ضلوا الشعب وحببوا اليه هذا الاثم وزينوه في قلوبهم لأن المسيح كان خليقاً أن يضيع عليهم منزلتهم وسلطانهم وتأثيرهم في النفوس ، وان يصرف عنهم الشعب بما كان يذيع من التعاليم اليسيرة السهلة القريبة من نفوس الناس والملائمة لسذاجتهم ولأنه كان يغير كثيراً من القوانين التي كان الاحبار والعلماء يعيشون عليها . ولكن كاتبنا موكل بالجماعات يلقي عليها أعظم التبعات لأنها غافلة لا ضمير لها ، وهو مكبر لضمير الفرد مُعظمٌ لسلطانه على أصحابه حريص ان استطاع على ان يرثه من كل شائبة ويعصمه من التورط في الاثم . وهو من أجل ذلك يعطينا من أشخاص هؤلاء العلماء من بني اسرائيل صوراً اقل ما توصف به أنها ثلاثم مذهب الكاتب في الضمير الفردي والاجتماعي أكثر مما ثلاثم الحقائق الواقعة التي نشهدها في كل يوم وأكثر مما ثلاثم ما نقلت

إلينا الأنبياء والروايات من سيرة هؤلاء الأحرار مع المسيح
ومع من جاء قبله من الأنبياء .

وكاتبنا ظالم للجماعات يحمل عليها من التبعات أكثر مما
ينبغي أن تحمل والذي نعلمه أن القادة والسادة هم الذين
يضللون الجماعات ويورطونها في الخطأ ويدفعونها إلى كثير
من الآثام . وإذا لم يكن بد من أكابر هذا الضمير
الفردى واعظامه فلا أقل من أن نحمله تبعاته ونسأله عما
يدفع إليه الفرد والجماعات من الشر العظيم في كثير من
الاحيان .

وللكاتب آراء أخرى ليست أقل خطراً واثارة للمناقشة
والجدل من هذه الآراء . وكثير من آرائه جديدة بالقياس
إلى جماعات من قرائنا ، وإن كانت في نفسها مألوفة شائعة
في جماعات العالم الغربي الحديث ، وهي قديمة مع ذلك قدم
الدين نفسه . ف رأي الكاتب في الوطنية مثلاً جديد بالنسبة
إلى كثير من قرائنا العرب ، مألوف بالنسبة إلى المثقفين منهم
وإلى جماعات ضبخمة من العالم الحديث في الغرب .

فالوطنية بدع من البدع دفعت إليه الأمم في طور من
أطوار حياتها الحديثة فأغراها بكثير من الشر ودفعها إلى
كثير من الخير أيضاً . وفكرة الإنسانية أعم وأشمل
وأصدق وأقرب من الحق إلى فكرة الوطنية ، والمسيحية
والإسلام يتجهان إلى الناس كافة ويروانهم أخوة مهما تختلف
أوطانهم ومهما تختلف بيئاتهم ومنازلهم ، وهما يدعوان

الناس جميعاً إلى الخير والحب والمودة والتعاون على البر والتقوى والمعروف لا يفرقان بين وطن ووطن ولا بين شعب وشعب ولا بين طبقة وطبقة ، وإنما المنافع والمطامع هي التي انشأت الوطنية وهي التي انشأت الطبقات وهي التي أثارت ما يثار بين الأوطان والطبقات من الحروب وألوان الخصومات . كل هذا مألوف يكثر من الخوض فيه الفلاسفة والمثقفون وفقهاء الدين منذ العصور القديمة ، ولكنه جديد بالقياس إلى الأجيال التي نشأت على فكرة الوطنية ولم تتعمق ثقافة ولا فلسفة ولا فقهاً ، لا فرق في ذلك بين أجيال الشرقيين والغربيين . وانكار الحرب كذلك مألوف منذ أقدم العصور يكلف الفلاسفة والمصلحون بالخوض فيه ، ويخوض فيه الساسة فيسرفون ، يخلص أولئك ويتكلف هؤلاء ، وأولئك يعجزون عن أن يبغضوا الحرب إلى الناس ، وهؤلاء ينجحون في اقناع الناس بأن الحرب شر لا بد منه .

وكل هذا أن دل على شيء فأنما يدل على أن الكاتب يشر أمام قارئه ضرورياً كثيرة من المشكلات الفردية والاجتماعية التي تدعو إلى التأمل والتدبر وتعمق التفكير ، وتخرج القارئ وقتاً ما من هذه الحياة الفاترة المطردة المملة التي نعيشها في هذا العصر الحديث ، وتشعره بأن له عقلاً حياً يستطيع أن يفكر وأن يتدبر وأن يقول بعد التفكير والتدبر وإطالة الروية نعم أو لا . وليس هذا بالشيء القليل .

وأنا بعد هذا كله أنخشي ان اكون ظالماً للكاتب مسرفاً عليه حين زعمت ان كتابه ليس قصة وليس فيه شيء من القصص ، وان هذه الصورة القصصية إنما هي وسيلة عمد اليها ليسوق اليها آراءه هذه المختلفة المثيرة في كثير من الاحيان . فقد يكون رأيه هذا صحيحاً بالقياس إلى أكثر الكتاب ، ولكن في الكتاب قصة متقنة رائعة حقاً يمكن ان تستقل بنفسها وان تقف على قدميها ان صح ان تقف القصة على أقدامها ، وما أرى الا ان الكاتب قد دفع اليها عن غير تكلف منه لها فوق إلى الاتقان حقاً ، وهي قصة المجدلية وصاحبها الفتى الروماني . فهذه الفتاة التي عرفت من شأنها ما عرفت آنفاً والتي آمنت بالمسيح بعد ان تورطت في الإثم العظيم وانتهى أمرها إلى أعماق الإيمان واقواه قد عرفت فيمن عرفت أثناء مقارفتها للإثم جندياً رومانياً احبها واحبته ، فلما أقبلت على دينها الجديد تبعته نفس الفتى فما زال يبحث عنها حتى اهتدى اليها في بيئتها الجديدة المؤمنة ثم سعى اليها فأحسن لقاءه ، وما أسرع ما هدته إلى الدين الذي اهتدت اليه ، وما أسرع ما استحال حبها ذاك الذي كان يشوبه الإثم إلى اخاء صادق رفيع في الدين .

وهذا الفتى تعرض له بعد ذلك خطوب يصورها الكاتب تصويراً رائعاً حقاً ، فإيمانه بالدين الجديد يبغض اليه الحرب ويلغي من نفسه فكرة العدا للناس ويعطف قلبه على اعداء

روما ، فيحسن اليهم ويبرهم أثناء الحرب وينشأ عن هذا الاحسان والبر انهزام روما ، ويرفع أمره إلى القائد فيحاكمه في نفس اليوم الذي حوكم فيه المسيح ، ويدافع الجندي عن نفسه دفاعاً رائعاً فيه شجاعة لا عهد للناس بها وفيه ارتفاع إلى منزلة من الصفاء والنقاء والطهر لم يألّفها الرومان . ويقضي الموت على هذا الفتى ولكنه موت منكر يشع يضطرب له عقل القاضي القائد بعد ان يراه كما اضطربت نفس الحاكم الروماني للقضاء على المسيح .

وكذلك يتدرج الانسان من الأثم البشع إلى الإيمان الصادق ثم إلى أرفع منازل الشهداء والصديقين في ثبات وثقة وإيثار لا تألفها إلا قلوب المؤمنين حقاً ، وان كنت أسأل نفسي الا يمكن أن يكون الكاتب قد انحرف قليلاً عما نعرف من نظم الرومان الذين لم يكونوا يقضون بمثل هذا الموت المخزي على المذنبين من أبناء روما وانما كانوا يضربون أعناقهم ويحتفظون بالموت المنكر لغير الرومانيين من العلو والرعايا والرقيق . وقد أطلت ولكني لم الخص الكتاب لأنني لم أرد تلخيصه ولم اشخصه كما كنت اريد لأنه أوسع وأدق وأكثر تشعباً من أن يشخص في حديث مثل هذا الحديث . وإذا لم يكن بد من ان أعطي عن هذا الكتاب فكرة جامعة إلى حد ما فقد أستطيع ان أقول غير مسرف انه كتاب يصور طموحاً رائعاً كأروع ما يكون الطموح إلى المثل الأعلى في حياة الافراد والجماعات ، إلى هذا

المثل الأعلى الذي يعتدل فيه المزاج بين القوة الحيوية التي تدفع إلى النشاط والعمل والقوة ، العاقلة التي تهدي إلى المعرفة والعلم ، وقوة الضمير التي تدفع إلى الخير وتردع عن الشر ، والمثل الأعلى كما تعلمون شيء نطمح اليه ولكننا لا نبلغه لأنه بطبعه لا ينال . فالذين لا يكتفون بالسعي اليه ويأبون إلا أن يبلغوه إنما يطمعون في غير مطمع وقد يضطربهم ذلك إلى الشك . وأنخشي ان يكون هذا الشك هو الذي دفع اليه الكاتب بطموحه هذا الغالي إلى المثل الأعلى ، وما أجدر الذين يريدون كل شيء بألا يبلغوا شيئاً .

كم أحب أن يقرأ شبابنا هذا الكتاب ليشعروا ان الحياة ليست يسراً كلها وليست لعباً كلها وبأن فيها كثيراً من الجهد الذي ينبغي لهم ان يفكروا فيه وان يتعمقوه .

الصِّراع

أريد أن أمس في هذا الحديث من بعد كتاباً رائعاً إلى أقصى غايات الروعة للكاتب الفرنسي النابه جان جيونو ، وهو لا يعرف بهذا العنوان ، وإنما عنوانه الدقيق « الفارس فوق السقوف » **Les Hussards sur les toits** وهو عنوان غريب كما ترى ولكنه يصور حقيقة من الحقائق الرائعة التي عرضها المؤلف في كتابه . فبطل القصة فارس ايطالي لم يبلغ الثلاثين بعد ، وقد بلغ مرتبة الكولونيل في جيش من جيوش الثورة التي جاهدت في استخلاص شمال ايطاليا من احتلال النمسا في النصف الاول من القرن الماضي .

وهو قد فارق وطنه فاراً إلى فرنسا اشفاقاً من الغتاب

على خطأ تورط فيه وتعرض للسجن والمحاكمة فآثر
الفرار المؤقت محتفظاً بنفسه لاستئناف الجهاد في سبيل
تحرير وطنه ...

ولكنه يبلغ فرنسا في ذلك العام المنكر الذي اجتاحتها
فيه وباء الكوليرا الخطير الذي وقع سنة ١٨٣٨ واذاق
الفرنسيين في الجنوب أهوالاً مروعة حقاً .

والكاتب يصور لنا ما كان من صراع هذا الفتي للموت
الذي تعرض له مرات لا تحصى أثناء اقامته في جنوب
فرنسا ، وهذه المحاولات التي لا تحصى للفرار من هذا
الوباء ، فهو قد فرّ من وطنه ليتجنب المحاكمة والسجن
فأصاب في منقاه الاختياري ما هو أشد خطراً وأروع
روعاً من السجن ومن العقاب الذي كان يتعرض له لو أقام
في وطنه . في ذلك الوقت لم يكن العلم قد استكشف ما
يعرف الآن من ضروب العلاج لهذا الوباء ، ولم تكن
النظم الصحية الفردية والاجتماعية قد بلغت ما بلغت من
الدقة والتقدم في هذه الايام . فكان الوباء اذن منكراً
مروعاً ساحقاً ماحقاً بأدق معاني هذه الكلمات وأوسعها
وأبعدها مدى ، وكان كل ما استطاعته الحكومة الفرنسية
في ذلك الوقت هو عزل المصابين والاحتياط لمحاصرة
المدن والقرى الموبوءة حتى لا يطرأ عليها الاصحاء
ولمحاصرة المدن والقرى التي لم يبلغها الوباء حتى لا يلزم بها
الموبوءون فيحملوا اليها الوباء . وفي ذلك الوقت لم تكن

وسائل المواصلات قد نظمت على هذا النحو المعروف من اليسر ، وانما كان الناس يتنقلون من مكان إلى مكان على ظهور الدواب أو في تلك العربات التي كانت تجرها الدواب ، ولم يكن الطب الوقائي قد تجاوز أيسر ما كان الناس يعرفونه من تلك المحاولات الساذجة لوقاية الاجسام مما كان يمكن أن تتعرض له من آفات .

فكان الوباء إذا ألمّ باقليم من الاقاليم حصده أهله حصداً وأذاقهم الوائاً من الوبال والنكال والهول . وليس من اليسر ان افصل لك هذه القصة الرائعة ولا ان اخصبها تلخيصاً متقارباً . وانا لا أملى هذا الحديث لاحاول فيه شيئاً من ذلك ، فهو غير يسير لأن التفاصيل في هذا الكتاب أكثر من أن تحصى وأعسر من أن يحاول محاول تلخيصها فضلاً عن استقصائها . بل الغريب من أمر هذا الكتاب ، هو ان مؤلفه قد نسي نفسه ونسي قارئه ، ولم يذكر الا فته الخالص الذي غرق فيه إلى أذنيه ، وأمعن في العناية به وفي تجويده واثقانه ، حتى ان أول أثر من آثار قراءته المباشرة إنما هو هذا الملل الذي يأخذ القارئ قبل أن يبلغ الخمسين من صفحاته ويوشك ان يصرفه عن المضي في القراءة إذا لم يأخذ نفسه بالصبر والمطاولة ، فاذا حمل القارئ نفسه على ما تكره واخذها ، بالمضي في القراءة على كثرة ما يصدّه عنها ويزهده فيها لم يلبث ان ينسى نفسه وينسى صاحب الكتاب ، وان يفنى في الفن كما في

فيه الكاتب نفسه ، وإذا هو ملح في القراءة ماضٍ فيها لا يلوي على شيء . لا يبلغ حدثاً مروعاً من الأحداث التي تعرض فيه حتى يشعر بالشوق الشديد إلى استقصائه وإلى الانتقال إلى غيره من الأحداث الأخرى التي تليه . وما يزال كذلك متنقلاً من حدث مروع إلى حدث آخر أشد منه ترويعاً حتى يألف الروع والهول ولا يعدل بهما شيئاً : وأغرب ما في هذا الكتاب أنه يخدع القارئ عن نفسه حتى يوشك أن يحب إليه هذه الأهوال التي لا تحمل ولا تطاق وإذا هو يبلغ آخر الكتاب فيشعر بشيء من الأسف غير قليل لأنه قد فرغ من القراءة ، وفارق هذه الأهوال الشداد . وهو محتاج بعد ذلك إلى وقت طويل ، إلى قراءات مختلفة شديدة التنوع لينسى هذا الكتاب ولا يضطر إلى لزوم التفكير فيه والوقوف الطويل عند هذا الحديث أو ذاك من أحداثه الثقيل .

والكتاب بعد هذا كله آية في تصوير خصلتين متناقضتين من خصال الحياة الإنسانية الاجتماعية . هما خصلة التنافر والتدابير من جهة أخرى .

فالناس متنافرون متدابرون في هذا الكتاب ما داموا أصحاء لم يبلغهم الوباء ، كل منهم حريص أشد الحرص وأقواه على أن يفر بنفسه من الكارثة قبل أن تصيبه ، فهو أثر إلى أبعد غايات الأثرة لا يحب أن يرى غيره ولا أن يدنو منه غيره ، ولا يحب أن يشاركه أحد من الناس

في أي مرفق من مرافق الحياة ، فهو فردي تنتهي به
الفردية إلى غايتها ، وهو مستوحش أبد كهذه الوحش
الآبدة في أعماق الصحارى ، وفي شعاب الجبل وعلى
قممها الشاهقة . فهو يعمد إلى سلاحه ليرد به عن نفسه كل
إنسان يريد أن يقربه . وهذه الظاهرة الفردية تشيع في
الأصحاء ، وتستقر في نفوسهم وتسيطر على عقولهم وجوارحهم
حتى تصبح ظاهرة اجتماعية مزعجة حقاً . فإذا ألمّ الوباء بمدينة
أو قرية ظهرت الخصلة الأخرى ، خصلة التضامن والتعاون
والتآلف والمشاركة في احتمال المكروه ومحاولة دفعه إن أتيح
للناس أن يدفعوه ، ومحاولة الصبر عليه وتجرع كأسه إلى ثمالتها
إذا لم يكن من ذلك بد . ومع الكاتب في تصوير هاتين الخصلتين
المتناقضتين حتى يظهر لك الإنسان شيطاناً مارداً أحياناً حين
تملكه الآثرة ، وملكاً مطهراً أحياناً أخرى حين يسيطر عليه
الإنسان . فيعطيك بذلك صورة كأوضح ما تكون الصور من
هذا الإنسان الغريب ، الذي يقسو حتى تبلغ به القسوة أقصى
ما يستطيع أن تبلغ ويرفق حتى يبلغ به الرفق مرتبة القديسين
الابرار .

وفي هذا الكتاب ظواهر كثيرة كلها يحتاج أن تقف
عنده فتنطيل الوقوف . منها ظاهرة المغامرة التي تستأثر ببعض
الناس فتوجههم إلى الخير الخالص ، حتى تنتهي بهم إلى
البطولة ، والمغامرة التي تستأثر ببعضهم الآخر ، فتدفعهم إلى
للشر الخالص ، حتى يصبحوا مرده لا يقتلون شيئاً ولا

يخفون بشيء ، ولا يقفون عند خلق أو دين ولا يرجون
لشيء أو لأحد وقاراً .

فهذا مغامر خير يريد أن ينجد الملهوف ، وينقذ
المكروب ، ويسعف المحروب ، ويعين المحتاجين إلى
المعونة ويواسي الذين لا يملك لهم معونة ولا انقاذاً ،
فيمضي في ذلك منغمساً في الوباء إلى اذنيه لا يخاف الموت
ولا يحفل به ولا يحسب له حساباً ، وإنما يسعف وينقذ
ويواسي ويعين حتى يتركه القضاء المحتوم فيسقط صريعاً
شهيداً بين صرعى الوباء وشهادته .

وهذا مغامر آخر لا يفكر في الناس ولا في حاجتهم
إلى المعونة والبر والاحسان ، وإنما يفكر في نفسه وفي طموحه
إلى الثروة والغنى والكسب من كل طريق ، فهو لص
فاتك وهو مارد لا يحفل بالحق ولا بالعدل ولا بالقانون
ولا يحسب للسلطان حساباً قد برئ قلبه من كل رحمة
وبرئت نفسه من عواطف الخير كلها ، فهو ينعم بشقاء
الاشقياء ويسعد ببؤس البائسين ويثري من فقر الفقراء
ويوشك أن يحيا من موت الذين يتخطفهم الموت ، وربما
اجتمعت الظاهرتان في شخص واحد ولكن في شيء من
الاعتدال والانسجام كما اجتمعتا في هذا الفتي الايطالي الذي
نراه مرة مواسياً منقذاً ممعناً في هذا كله غير حافل بالوباء
ولا حاسب لنتائجه أي حساب ، وإنما ينغمس فيه مع تلك
الراهبة الشيخة إلى قمة رأسه ، فهو يعين المرضى الذين

يسقطون في الطريق يغسل عنهم آثار القيء والإسهال وهو يغسل الموتى ويعين على نقلهم إلى حيث تحرق جثثهم ، وهو ينسى نفسه في هذا كله نسياً تاماً. وتراه مرة أخرى مشفقاً من الوباء إلى أقصى آحاد الإشفاق حتى انه يلزم سقوف الدور يكره ان يخالط أهمل المدينة الموبوئين او أن تكون بينه وبينهم صلة قريبة أو بعيدة ، ويحتال أغسرب الاحتيال في التماس أيسر ما يقيم الاود من الطعام والشراب يتبلغ بها في هذه العزلة المخيفة . ونراه مرة وقد أعياه التماس القوت وسدت عليه طرق الحيلة فأخذ يناجي نفسه بالسرقة لا ليكسب غنى أو ثراء ولكن ليقم اوده ، وإذا هو ينحدر متلصصاً مترقياً إلى احدى الدور في أعماق الليل لعله ان يصيب فيها قطعة من خبز أو شربة من ماء وهو ينحدر وينحدر يظن ان احداً لا يشعر به فاذا بلغ آخر السلم الذي انحدر فيه رأى نوراً يظهر فجأة وفتاة لم تتقدم بها السن رائعة الجمال بارعة الحسن تسأله من هو ؟ وماذا يريد ؟

فيضطر إلى أن يجيبها بالحق فتتلطف في شيء من الغلظة والاحتياط والتحفظ ان صبح هذا التعبير .

وتؤويه إلى احدى الحجرات وتقدم له بعض الطعام والشراب وقد عرف انها وحدها في هذه الدار الكبيرة فينكر أمرها ويسألها اليست خائفة منه ؟ فتظهر له سلاحها الذي تستطيع ان ترد به عن نفسها الغوائل ، حتى إذا طعم

وشرب عاد إلى سقفه الذي أوى إليه وترك هذه الفتاة
آمنة موفورة وفي نفسه ما فيها من الإعجاب بها والاكبار
لها وشيء آخر أكثر من الإعجاب والاكبار .
ونراه مرة ثالثة وقد احتال حتى سرق فرساً واعتلى
صهوته ومضى به مصعداً في الجبل متخذاً طريقه كما
يستطيع ليتقي الوباء من جهة ويلبغ الحدود ويعود سالماً
إلى وطنه ليستأنف جهاده في تحرير ايطاليا ان استطاع
الافلات من هذا الوباء .

وهو يمضي في طريقه متنكباً كل قرية أو مدينة أو بيعة
يكثُر فيها الناس لا يكاد يمضي اياماً حتى يلقي فارس
آخر يمضي في نفس الطريق ، وما هي إلا ان يبصرا
بالجند محاصرون قرية أو مدينة ويردون عنها الطارئين عليها
فيفران ثم يتفارقان ، وإذا هو يرى في هذا القارس تلك
الفتاة التي آوته وأطعمته وسقته منذ ليل ، غير خائفة منه
ولا معنية بغير اسعافه ، وهي قد فرت من دارها تريد أن
تعود إلى قصرها ذلك البعيد في عطف من أعطاف الجبل
لم يبلغه الوباء . وقد أصبحا رفيقي سفر يتعاونان على
احتمال ما يعرض لهما من الاخطار . ومنذ ذلك الوقت
تنشأ في القصة الرائعة قصة أخرى أشد روعة وهي قصة
هذه المرافقة التي تخلص من جميع الشوائب ، والتي ترتفع
فيها المودة إلى أعلى درجة من الطهر والعفة والنقاء والايثار ،
وما أكثر ما يلقي الرفيقان من المصاعب وما أكثر ما

يعترضهما من الخطوب وما أكثر ما يلم بهما من حلول
التجارب ومرّها ومن جد الحياة الصارم وهزلها المر فهما
يتعرضان للجند ويتعرضان للصوص ويؤخذان أسيرين إلى
حيث يلقيان في معزل من هذه المعازل التي يلقي فيها
الاصحاء حتى يتخطفهم الموت . وهما يفران من هذا
المعزل بعد خطوب ، ويخلصان آخر الأمر حتى يوشكا أن
يلغا مأمّنها في ذلك القصر الذي تيممه تلك الفتاة . ولكنها
لا يكادان يشرفان من بعد على مأمّنها ذاك حتى يلم الوباء
بالفتاة فيأخذها القي وتسقط على الأرض مبهورة ، وما
أسرع ما ينحيا الفتى إلى أعماق الغابة من الغابات . وهناك
يقوم على تمريضها كما يستطيع نافياً عنها الأذى ، ملتصقاً
لها الدف ، ساقياً لها ما يستطيع ان يسقيها من دواء حتى
يأخذها الإعياء آخر الليل ، فيغني اغفاءة ثم يحس شيئاً
فيقيق وإذا الفتاة تلقي عليه معطفها تريد أن تقيه
يه من البرد . وقد برئت الفتاة وارتفعت بينهما الكلفة
آخر الأمر ، فهي توجه إليه الحديث بلغة المخاطب الفرد
كما تتحدث الفتاة إلى أخيها أو إلى زوجها . قد ألغى الوباء
ما كان قد بقي بينهما من كلفة ولكن حبهما ظل نقيّاً
طاهراً كما يكون الحب بين الأخوين .

وهو يبلغ الفتاة مأمّنها ويقم في قصرها يوماً أو يومين
ريثما يشتري جواداً أصيلاً ، ثم يستأنف السفر إلى وطنه

ليعود إلى الجهاد ، وما يمنعه من ذلك وهو لا يكاد يطلع من وراء هذا الجبل حتى يرى أعلام إيطاليا .
وما أكثر ما أهملتُ من الظواهر الفنية في هذا الكتاب ولكن ظاهرة واحدة لا أحب أن أهملها لأن الكاتب قد صورها أروع تصوير وأبرعه ، وهي هذه التي تصور لنا الطير ولا سيما جوارحها وقد أنست إلى الموت واعتادت العكوف على هذه الجثث الكثيرة المتناثرة كما يصور لنا شعراؤنا القدماء عكوف الطير على جثث القتلى في ميادين الحرب بعد انتهاء المواقع . وربما استوحشت بعض الطير المستأنسة فعادت سباعاً تعيش على لحم هذه الجثث الإنسانية، وهي قد ألفت ذلك حتى انها ستدنو من الأحياء تظن ان الموت منهم قريب ، وان جثثهم ستصبح كلها مرتعاً بعد قليل حتى يخاف الانسان من الطير وحتى استخفت الطير بالانسان ، فلم تشفق منه ولم تستوحش من قربه وانما اتخذته لنفسها مطعماً .

وبعد فهل صور الكاتب هذا الصراع بين هذا الفتي وبين الوباء فحسب ، أم هل تجاوزه من حيث يلري أو من حيث لا يلري إلى تصوير صراع آخر أقوى وأبقى من صراع الانسان لوباء من الوبئة ، وهو تصوير الصراع الذي يكون بين كل انسان وبين الموت سواء كان وباء أم لم يكن ؟

فهل حياة الانسان مقيماً أو ظاعناً ، مطمئناً أو قلقاً ،

موسراً أو معسراً ، سعيداً أو شقيماً ، الا صراع بينه وبين الموت الذي يكمن له في كل حركة من حركاته ومن حركات الأحياء والأشياء من حوله وفي كل ثنى من أثناء طريقه وفي كل ما يعرض له من الخطوب ما دق منها وما جل . وأكبر الظن ان الكاتب لم يُرد إلى هذا النحو من الفلسفة العليا ولكن كتابه يوحى به إحاء . وهذا عندي أوضح دليل على ان الكتاب رائع حقاً وعلى انه من أبرع الصور الفنية التي انتجها الأدب الفرنسي المعاصر في هذه الأيام .

من أدبنا الحديث

بين أجيالنا الأدبية المعاصرة شيء من الجفوة طال عليه الزمان وكثر فيه القول حيناً وكاد ينتهي إلى شيء من القطيعة بين الشباب والشيخ من الأدباء . يشكو الشباب من أن شيخ الأدباء لا يحفلون بهم ولا يلتفتون إليهم ولا يمهّدون لهم طرق النجاح ولا يعرفونهم إلى القراء كأنهم يوثرون أنفسهم بما أتبع لهم من ارتفاع المترلة وبعد الصوت . ويشكو الشيخ من الشباب أنهم يكبرون أنفسهم ويسرفون في الاعتداد بها ولا يكادون يقلّرون ما لقي الشيخ من عناء وما احتلوا من مشقة وما ذلّوا من عقاب .

وهذا الخلاف بين الأجيال طبيعي لا غرابه فيه ولكنه يوشك في مصر أن يتجاوز الحد الذي ينبغي له . فهناك

تضامن بين الاجيال يجب أن يرمى وحقوق للابناء على الآباء يجب أن تؤدي ، والآباء بطبعهم قد قطعوا أكثر الشوط فيجب أن يعينوا أبنائهم على أن يخلفوهم فيحسنوا خلافتهم ويحققوا من الأمر ما لم يجدوا إلى تحقيقه سبيلاً . وهناك حقوق للآباء على الابناء يجب أن تؤدي في شيء من البر والرفق والتلطف ، وألا يحول الغرور والطموح دون تأديتها ، والآباء معلمون والشباب متعلمون ولا ينبغي ان تنقطع الصلة بين أولئك وهؤلاء .

وأريد أن أخصص طائفة من هذه الأحاديث لأدب الشباب الذين لم ينصفهم النقد ولم يعلمهم أيضاً ، وقد شبع الشيوخ نقداً وتعلماً وعلمتهم التجارب أكثر مما علمهم النقد ، فليس كثيراً ان يتفخوا بأبنائهم ببعض ما انتفعوا به من التجارب والخطوب التي تعرضوا لها على اختلاف الليل والنهار ، وتتابع الاحداث والخطوب .

وبين يدي طائفة من الكتب كثيرة ليس من الممكن أن أتحدث عنها في فصل واحد ولا بد من ان اختار أحدها لأتحدث عنه اليوم .

فليكن الحديث اذن عن هذه القصة الضخمة التي كتبها الأستاذ يوسف السباعي وسماها « اني راحلة » . وهي قصة ممتعة حقاً أخذت في قراءتها فلم أدعها حتى أتممتها . ولم أفعل ذلك متكلفاً له أو صابراً نفسي عليه ، وإنما القصة هي التي اضطرتني اليه اضطراراً وحملتني على أن أفرغ لها

وأترك ما بين يدي من عمل لم يكن تركه يسيراً .
والاستاذ يوسف السباعي يحدثنا في مقدمة كتابه بانه لم
يألف كتابة القصة الطويلة حتى دعاه إلى ذلك المازني رحمه
الله فأقبل عليه ذات صيف ولم ينصرف عنه حتى أتم قصته
هذه التي تتجاوز صفحاتها المئات الأربع واثمها في عشرين
يوماً . ومعنى ذلك ان فته واتاه وان خياله أمله وان لغته
لم ترهقه من أمره عسراً . وإذا كان هو قد كتب قصته في
عشرين يوماً فاني قرأتها في أربعة أيام لم أجد أثناء قراءتها
سأمًا أو شيئاً يشبه السأم وانما وجدت رغبة واقبالاً وحرصاً
على ان أفرغ منها بل على ان أنتهي إلى غايتها .
والقصة يسيرة من جهة وعسيرة من جهة أخرى . يسيرة
لأنها تحدثنا عن أمر الحب بين فتين وما أكثر ما يتحدث
الناس عن الحب ، وعن الحب بين فتى وفتاة . ولكنه أثناء
حديثه عن هذا الحب وقف في غير استطراد عند أشياء
كثيرة صورها فأحسن تصويرها ، وعند أشياء أخرى حلها
فأجاد تحليلها . فتاة كانت تنظر إلى ابن خالتها في كثير من
التجهم والاعراض أثناء الصبا ، وكان يلقاها بمثل ذلك
حتى شب كلاهما والتقيا ذات مساء فوق كل منهما في
نفس صاحبه . وأكبر الظن ان هذا التجهم والاعراض لم
يكن في حقيقة الأمر إلا مظهرًا لحب دفين كشف عن نفسه
حين أتاحت له الظروف ان يكشف عن نفسه حين أصبحت
الفتاة ناهداً يمكن ان تحقق معنى الحب ، وحين أصبح الفتى

ضابطاً وسمي الطلعة يمكن ان يصبو وان تصبو اليه القلوب .
وقد دار هذا الحب بهذين الشابين الوائناً مختلفة من
الدوران ، انكر نفسه أول الأمر مع انه لها عارف وبها
موثمن ، ثم جعل يخلص قليلاً قليلاً من هذا الانكار ويكف
عن هذه المداورة حتى صرح عن نفسه ذات مساء ولم يترك
للعاشقين سبيلاً إلى جحوده أو الشك فيه .
أزال من طريقه اذن تلك المصاعب الخاصة التي كانت
في نفس هذين العاشقين والتي ترجع أكثر ما ترجع إلى
بعض هذه العقد النفسية التي تعرض للصبيّة والشباب . ولم
يكف يخلص من هذه المصاعب حتى ثارت في سبيله مصاعب
أخرى جاءت من اسرة الفتاة . فأبوها رجل من كبار
الباشوات له مطامع لا تنتهي ، وهو على ذلك من طراز
الآباء الذين لا يعرفون لبناتهم حقاً في الحرية أو الاختيار
وانما يأخذونهن بالشدة والعنف والطاعة في غير جمجمة ولا
اعتراض . وهو من أجل ذلك يرد خطبة الفتى ويقدم ابنته
ضحية لمطامعه ، فيزوجها كارهة من فتى سخيّف لا خطر
له الا أنه من أبناء رجل عظيم من رؤساء الوزارة السابقين
والذين يمكن ان تعود اليهم رئاسة الوزارة ، والفتاة يائسة ولكنها
صابرة والفتى يائس ولكن فيه شيئاً من آباء ، وقد زفت الفتاة إلى
زوجها البغيض ولم ينتظر عشيقها هذا الزفاف فتزوج من فتاة
أخرى لا يحبها ولا يهواها . ولا يكاد الزمن يتقدم حتى تستكشف
هذه الفتاة الخيانة من زوجها ومن رفاقه المترفين فتفر من

بينها بعد خطوط وينتهي بها التطواف إلى تلك الساقية القذعة التي ظهر فيها حبها لذلك الفتى وظهر فيها حب ذلك الفتى لها في صراحة لا تختمل جدالاً وفي عنف لا يقبل مقاومة . وتريد الاقدار التي يدبرها الكاتب كما يحب هو ان تلقى الفتاة عند هذه الساقية عاشقها القديم ، وما هي الا ان يفرآ إلى الاسكندرية هاربين بحبهما مرضيين لحاجتهما من هذا الحب في عش بعيد على ساحل البحر . ولكنهما لا يعودان من هذا الفرار ، وانما يستأثر بهما الموت .

ولم الخص القصة ، فليس من اليسير ان تلخص قصة بهذا الطول في مثل هذا الحديث وانما اشرت إلى سياقها اشارة هي إلى اللوح أقرب منها إلى أي شيء آخر . وقد ذكرت ان القصة أخاذة مشوقة تبدأ قراءتها فلا تستطيع عنها انصرافاً حتى تنمها وهي مع ذلك قد كتبت في لغة عربية فصيحة رائقة على هئات تلقاها هنا وهناك .

وما أحب أن أخفي على صاحب القصة اني لم أرض عن كثير مما اضطره اليه فنه اضطراراً ، ولن اذكر له ذلك في اطالة وانما اشير اليه كما اشرت إلى سائر القصة .

هناك أشياء تنكرها كتمزيق الخيط وتمزيق الشعر وتذكير الموثث وتثنية ما حقه ان يكون جمعاً . وهناك أشياء لا يسيغها اللوح وما أكثر ما يتورط الشباب من كتابنا فيما لا يسيغه اللوح . فهذان العاشقان يتحدثان في موطن من مواطن الحب العنيف الذي يريد ان يخفي نفسه فلا يستطيع ، وإذا هما ستهيان في بعض

حديثها هذا ، الذي كان يجب ان يخلص من المادة ، عن المسطردة
والعدس والكوشري والدقة واسخف ما يمكن أن يتحدث عنه
أصحاب الشره والنهم في موطن من موطن الجوع والازدراء
والالتهام .

وهناك أشياء لا يسيغها الفن نفسه وإنما هي متكلفة مصطنعة قد
شدت من شعرها كما يقول الفرنسيون ، فهذه الزوج البائسة
البائسة التي فقدت أملها واستكشفت خيانة زوجها وكرهت حياة
المترفين وحياة الناس وكادت تقضي على نفسها بالموت ، وانتهت
آخر الأمر إلى ساقيتها تلك القديمة تذكر حبها الضائع وأملها
الخائب ، وأنها لفي ذلك وإذا عاشقها القديم يقبل عليها كأنما كانا
على ميعاد . وهو لا يقبل عليها زوجاً بائساً بائساً مثلها وإنما يقبل
عليها حراً طليقاً قد ماتت زوجه لأن القصة أرادت أن تموت ،
وهناك عيب في القصة يوشك ان يفسدها لولا انه يقع في
آخرها ، حين تنتهي من قراءتها ، فالفتاة هي التي تكتب القصة
وهي التي تنبشأ من السطر الأول بأنها ستموت بحيث نتظر موتها
كلما دنونا من آخر الكتاب ، فإذا بلغنا موتها رأيناها منكراً غريباً
نائباً لا يسيغه الفن المتقن .

المطولة .. رزقابي

هذه هي القصة التي أهداها إليّ الأستاذ يوسف السباعي منذ أسابيع والتي أنفقت في قراءتها وقتاً ليس أقلّ منها طويلاً . فهي لا تقرأ في يومين ولا في أيام قليلة وإنما تقرأ في الايام الكثيرة وفي الليالي الكثيرة أيضاً لأنها أطول من شهر الصوم الذي انقضى أخيراً ، ومن عرقوب تلك الفتاة الذي شبهه الشاعر القديم بشهر الصوم في بيته المشهور :

نبئت ان فتاة كنت اخطبها

عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ولا اشبهها بليالي الشتاء . ففي ليالي الشتاء طول ممل ، وليس في قصة الأستاذ السباعي على اغراقها في الطول ما

يمل أو يغري بالملل . ولكنها تمضي في طريقها هادئة حيناً
وعنيفة حيناً آخر . فلا يكاد هدوؤها يغريك بالملل حتى
تعنف فجأة وترد عنك الملل رداً وتشغلك بأحداثها
وأوصافها وتغريك بالقراءة والامعان فيها حتى تبلغ من
العلم بهذه الأحداث والأوصاف ما تريد . ثم تردك مرة
أخرى إلى الهدوء .

وهي لا تكاد تمضي مستقيمة مطردة حتى تلتوي بك
إلى اليمين مرة وإلى الشمال مرة أخرى . فتريحك من هذه
الاستقامة التي كادت تشق عليك ثم تردك إليها بعد أن كاد
الالتواء يرهقك من أمرك عسراً .

والفرنسيون يسمون مثل هذه القصة قصة نهرأ يجعلون
النهر لها صفة ولا يضيفونها إليه لأنهم يشبهونها بالنهر في
طوله وفي كثرة ما يلتوي به مجراه وفي كثرة ما يعترض
مجراه كذلك من العقبات والصخور التي تخرجه عن هدوئه
واطرادته واستقامته وتضطره إلى شيء من العنف والثورة
والالتواء ليشق لنفسه طريقه إلى مصبه القريب أو البعيد .
ولست أخفي اني انما سميتها المطولة رجوعاً بالذاكرة إلى
ذلك الكتاب الذي كنا نعرفه أيام الطلب في الأزهر والذي
كان شيوننا يحدثونا عنه ولا يقرأونه لاغراقه في الطول ،
وهو كتاب من كتب البلاغة .

ويكفي ان نعلم ان صفحات القصة تتجاوز الالف ثم
تتجاوز المائتين بعد الالف وانها تُقدّم اليك مرة واحدة

لا مرات يتبع بعضها بعضاً . فاذا رأيت امامك هذين
المجلدين الضخمين أنخذك شيء من الروع ... ثم لم تلبث
ان تحس شيئاً من فتور الهمة والاشفاق من أن تبدأها
ثم تصرفك الصوارف عن اتمامها . واشهد اني رضيت
عن نفسي حين رأيتني أفرغ من قراءة الصفحة الحادية
عشرة بعد المائتين والالف . وكنت أقدر اني لن
أبلغها .

واشهد كذلك ان الاستاذ السباعي نفسه قد أخذ شيء
من الدهش حين انبأته بأنني قرأت قصته هذه إلى آخرها .
كما ان بعض الصديق أصابهم مثل هذا الدهش واعترفوا
بأنهم حين رأوا القصة لم يحاولوا الاخذ في قراءتها لأنهم
يشعرون من اتمام هذه القراءة .

وأنا بعد ذلك لا آسى على ما أنفقت في قراءتها من
الايام والليالي ، بعد أن سعدت بهذه القراءة كل السعادة
واغتبطت بها أعظم الاغتباط .

فالقصة جديرة ان تقرأ حقاً وان تقرأ في اناة ومهل
لا في سرعة وعجل ، وعسى أن تكون من خير ما أهدي
الاستاذ السباعي إلى قرائه ان لم تكن خير ما أهدي اليهم ،
لولا هنات سيكون الالمام بها بعد حين .

فانت واجد في هذه القصة حين تقرأها الواناً كثيرة
مختلفة من تصوير الحياة المصرية في ربع القرن الاخير .
تجد فيها السياسة وتجد فيها الاسراف في البؤس والاسراف

في الثراء والاسراف في هذا التفاوت لا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين أبناء المدينة الواحدة بل بين أبناء الحي الواحد أو الجزء الضئيل من هذا الحي . فهذا القصر الضخم الفخم الذي تسرف الايام على اهله بما تتيح لهم من النعيم ، وهذا البيت الصغير الحقير الذي تسرف الايام على اهله بما تصبّ عليهم من الفقر والشقاء والحرمان وبما تذكي في قلوبهم على رغم ذلك من الأمل والطموح ، هذا القصر الضخم وهذا المنزل الضئيل متجاوران ليس بينهما إلا خطوات يمكن احصاؤها . وأنت واجد في القصة إلى جانب التصوير للحياة السياسية والاجتماعية تصويراً آخر أعمق منه عمقاً واروع منه روعة وأشد منه امعاناً في الجدة والطرافة والغرابة جميعاً . واريده الحب الذي يلغى الفروق ويمحو الآماد ولا يحفل بالسياسة ولا يحفل بالحياة الاجتماعية ، وإنما يمضي في طريقه كما تمضي القصة ، بهداً حيناً ويعنف حيناً آخر ويستقيم مرة ويلتوي مرة أخرى حتى ينتهي إلى غاية بعد خطوب أيّ خطوب ، وبعد عبث بالقلوب وتعذيب للنفوس وارهاق للاعصاب وامتحان لقدرة الانسان على الصبر والمطاولة وعلى الجهاد والكفاح وعلى النفوذ من المشكلات والتغلب على الخطوب حين يركب بعضها بعضاً وحين تجعل حياة الناس جحيماً لا يطاق . وانت واجد بعد هذا كله فنوناً من تحليل النفس الانسانية وأهوائها وعواطفها وآلامها وآمالها ودخائلها الملتوية المعقدة

وأسرارها التي تكاد تخفي حتى الضمير نفسه والتي تدفع
الناس إلى أن يعملوا ويأملوا دون أن يعرفوا لمَ يأملون
ويعملون . ثم أنت متقل أثناء هذه القراءة بين بيئات
مختلفة متفاوتة أشد التفاوت ، فانت في هذه الضيعة بين
القصر الشامخ الضخم والبيت المتواضع الفقير ، ثم أنت في
بيئة أخرى تخالفها أشد المخالفة ، بيئة المدرسة الحربية على
ما لأساتذتها وطلابها وضباطها من تقاليد وعادات. وأنت في
القاهرة ثم أنت في الاسكندرية ثم أنت على ساحل البحر
مما يلي الصحراء ، ثم أنت في أعماق الصحراء قد بعدت
أشد البعد عن النهر والبحر جميعاً وعشت في خيام لا يرى
أهلها إلا رمال الصحراء وشمس السماء ونجومها ، فقدّر
أنت ما يكون لاختلاف هذه البيئات وتفاوت الحياة فيها
والمعايشة لأهلها من الأثر في نفسك حين ينقلك الكاتب
بينها في اناة ورفق مرة وفي سرع وعنف مرة أخرى .
وليس هذا كل ما تجد في هذه القصة بل أنت واجد فيها
الواناً من العلم قلما تعرض عليك في كتاب . فحياة الجند
في ثكناتهم منذ يصبحون إلى أن يظلمهم الليل ومنذ يمسون
إلى أن يسفر عنهم الصبح ، والصلة بينهم وبين الضباط ،
والصلة بين بعض الضباط وبعض على اختلاف مراتبهم
ومنازلهم في نظامهم ذاك العسكري .
كل هذا تجده مفصلاً في القصة تفصيلاً يرضي حاجتك
إلى المعرفة والاستطلاع .

ولولا ان كاتب القصة قد بلا حياة الطالب في المدرسة الحربية وحياة الضابط منذ يتخرج في هذه المدرسة إلى أن يبلغ المرتبة التي بلغها من مراتب الجيش لما أتيح له أن يعرض عليك هذه الفنون من المعرفة في هذه الدقة التي أشهد انها تروق وتشوق .

وأشياء كثيرة أخرى تجدها في قراءة هذه القصة . ولست أريد أن أمضي في الحديث عنها لأنني لا أريد أن أطيل كما أطال الأستاذ السباعي . ولو حاولت لما رضي قراء هذه الفصول . فهم إلى وقتهم أشد حاجة وهم عليه أعظم حرصاً من اضاعته في قراءة الاحاديث المطولة . وخير لهم ان يتفقه في قراءة القصة نفسها فسيجدون فيها من المتعة ما هو أقوى وأقوم مما يجدونه حين يقرأون هذا الحديث .

والقصة على طولها واختلافها بين الهدوء والعنف وبين الاستقامة والالتواء يسيرة التلخيص ، أو قل ان ما يمنع منها ويروق يسير التلخيص . فنحن في قصر شاهق في اتيق من قصور الأمراء السابقين ، وصاحب القصر يمشي في بستانه متفقداً شجره وزهره وزيتته . والبستاني عبد الواحد يسعى بين يديه بحبه حين يسأل ويطيعه حين يأمر ويتملقه في الاستجابة والطاعة جميعاً . ولهذا البستاني غلامان لم يتجاوزا صباهما بعد ، صحبا أباهما إلى البستان في ذلك اليوم وامتنحيا حين ظهر الأمير ، وان الأمير لماض في تفقد

بستانه ، يرضى حيناً ويسخط أحياناً ويرفق مرة ويعنف مرة أخرى ، وإذا صبيحة مخيفة تخرجه عما هو فيه ، فإذا تبين مصدرها عرف ان ابنته الصبية « انجى » قد خالفت عن أمر أبيها وركبت عربة من عربات النقل الخفيفة على قضبان هيئت لها في البستان ، وانحدرت العربة بها مسرعة لا تلوي على شيء فعرضتها لخطر لا شك فيه حين تبلغ غاية القضبان ، والمربية تصبح مرتاعة والامير ينظر وليس أقل منها ارتياحاً ، ولكن العربة تقف فجأة لأن جسماً ممتداً على هذه القضبان قد اعترضها فانقذ الاميرة الصبية من الموت . فاذا حاول الامير ان يعرف هذا الجسم الذي انقذ ابنته راعه انه ليس إلا علياً ابن البستاني وأكبر صبيته سناً .

ومنذ ذلك الوقت شغفت الصبية بالصبي لأنه أنقذ حياتها وشغف الصبي بهذه الاميرة الناشئة لأنه أنقذ حياتها أيضاً . والاميرة مدينة لهذا الصبي ترى ان له عليها حقاً يجب ان تؤدى اليه ، والصبي مستخزٍ من مكانه ذاك ومن ظهور الامير عليه في بستان القصر الذي لا ينبغي ان يلم به إلا السادة والخدم الذين يعملون فيه ، وهو مستخزٍ كذلك من ثيابه الرثة وبنطلونه المرقع الذي يكره ان يرى مكان الرقعة منه . ومهما يكن من شيء فقد اتصل قلبا الصبيين وكان لهذا الاتصال ما بعده .

والصبي ينمو ذكي القلب حاد الذهن رقيق الشعور

دقيق الحس منظوياً على نفسه متقدماً في الدراسة حتى
يتاح له النجاح في كل ما يؤدي من امتحاناته . والقصة
كلها تدور حول هذين الصبيين اللذين التقيا في ذلك
الموقف . فلم ينس أحد منهما صاحبه وانما استقر في قلب
كل واحد منهما حب لصاحبه جعل ينمو ويشد ويزداد قوة
على مر الايام حتى انتهى إلى ما لم يكن بد من ان ينتهي
اليه . فابن البستاني يحب الأميرة هائبا لها يائساً منها، والأميرة
تحب ابن البستاني رفيقة به عطوفاً عليه يائسة منه . وليس
بد للحب من أن يلغي هذا الفرق الهائل بين المحبين . فلا
بد من أن تنزل الأميرة إلى ابن البستاني أو يرقى ابن البستاني
إلى الأميرة . وكلا العاشقين يؤدي إلى الحب دينة كأحسن
ما يؤدي الدين ، فابن البستاني قد أصبح طالباً في المدرسة
الحرية بعد خطوط كثيرة ملتوية معقدة ، والأميرة تنزل
عن كبريائها ، والمصادفة تهبُّ لهما اللقاء بين حين وحين ،
وقد أصبح ابن البستاني ضابطاً في الجيش وأصبح جديراً
إن رآته حبيته الا تفتحه عينها . وهي سعيدة بتدرج
الفتى في هذا الرقي ، ترى في ذلك تقريباً لما بينهما من
أمد بعيد . والمتاعب تكثر والمشكلات تتعقد بين العاشقين
يدنوان ليعدا ويعدان ليدنوا ، وليس بد من الثورة لتريح
العاشقين من شقائهما المتصل ولتلغي ما كان بينهما من
فروق ولتتيح لهما ان يخلصا كل منهما لصاحبه ، ولكن
بعد أهوال أي أهوال .

وقصة الثورة وتاريخ الاحداث التي مهدت لها والظروف التي اقتضتها وما نشأ عنها من تغير في حياة السادة والمسودين وفي النظم السياسية والاجتماعية ، كل هذا هو الذي أطال القصة وأمعن بها في هذا الطول . ولا بد من الاعتراف بأن هذه القصة تنقسم في حقيقة الأمر إلى اقسام ثلاثة : احدها قصة الثورة وما كان قبلها وما كان بعدها من الخطوب . وهذا القسم على طوله لا يعطي القارئ شيئاً جديداً ولا يقفه موقفاً طريفاً ، وإنما هو التاريخ السيامي لمصر منذ ولي فاروق إلى أن أقصته الثورة عن مصر . وهو التاريخ السيامي كما قرأه الناس في الصحف قبل الثورة وكما قرأوه بعد الثورة . هو التاريخ السياسي الرسمي الذي يعرفه الناس الآن ، ليس فيه جديد وعسى ان ينقصه كثير جداً من التحقيق والتعمق . والقسم الثاني قيم حقاً . ولكنه ينفع العقل أكثر مما يمس القاب ، وهو القسم الذي تصور فيه حياة الضابط المصري في بيئته العسكرية بين زملائه وبين الجند مع تفصيل مطول ولكنه نافع ممتع لأنه يظهر مثلك ومثلي من الذين لا يعرفون شؤون الجيش ولا حياة الضابط على حقائق من الخير لهم أن يعرفوها .

أما القسم الثالث فهو أقوم هذه الاقسام كلها واعظمها حظاً من الامتاع للقلب والعقل واللوق جميعاً . وهو تصوير هذا الحب بين هذين الصبيين وكيف نما وكيف

تطور وكيف عبث به البعد والقرب جميعاً . وكيف اذاً
فيه اختلاف الطبقة وتفاوت المتزلة وكيف اتبع له آخر
الامر ان ينتصر ويفوز .

في هذا القسم استطاع الأستاذ السباعي ان يكون كاتباً
ماهراً حقاً ، فهو قد عرف كيف يحلل نفوس طائفة من الناس
يتفاوتون في الطبقة والمنزلة ، وفي الذكاء والغباء ، وفي العلم
والجهل ، وفي التواضع والكبرياء ، وفي الثقة بالنفس والشك
فيها ، وفي الايمان بالله والشك فيه أيضاً . وفيه أتقن الأستاذ
السباعي أيضاً تصوير الطموح الذي يستأثر بنفوس الطبقات
الفقيرة ويدفعها إلى الجد والكد ويعرضها للانخفاق مرة
وللنجاح مرة أخرى ويخرجها على كل حال من طورها الضئيل
المتواضع إلى طور الطبقة الوسطى التي لا حد لمطامعها .

وفيه كذلك صور الأستاذ السباعي أدق تصوير وأصدق
عبث الشباب وافتانهم بما يتعرضون له من المغريات ومضي
هذا العبث إلى غايته مرة وتحوله مرة أخرى إلى الحب
القوي العنيف الذي يذهل صاحبه عن كل شيء .

ولو شئت لمضيت في تصوير ما تمتاز به قصة الحب
والمحبين وما يحيط بها ويكتنفها من المشكلات والخطوب ،
ولكن هذا القسم الثالث وحده جدير ان يكلفك قراءة
للقصة على طولها وعلى إصرافها في إنباتك بما تعرفه من أنباء
السياسة وخطوبها . وأنا أعترف بأنني كنت أعرض للملح
في قراءة هذا التاريخ السيامي الطويل لأنني لا أجد فيه

جديداً فلا يتقلني من الملل الا مهارة الكاتب في الرجوع بنا إلى قصة الحب قبل أن يصرفنا الملل عن القراءة .
وليس لي بعد ذلك إلا ملاحظتان اثنتان كنت أتمنى ألا اضطر اليهما . فأما أولاهما فتتصل باللغة وهي لا تخلو من طرافة ، فقد خيل الي حين أخذت في قراءة القصة ان الكاتب قد عاد إلى الحق ورجع إلى الصواب وآمن باللغة العربية الفصحى واعرابها . ولكني لم أكد أمضي في قراءة القصة مثني صفحة حتى راعني ما فيها من استخفاف بالفصحى وازدراء للاعراب واعراض عن أيسر أولياته وتورط في فنون من الهجن لا تخطر لكاتب ولا لقارئ عل بال ، وكأن القصة طالت على الكاتب نفسه فعني باللغة في أولها ثم أدركه السأم فأرسل قلمه بغير حساب ، وكأنه قد اطمأن إلى ان مثلي من الذين يتخرجون في اللغة لن يقرأوا هذه القصة إلى آخرها . فأطلق نفسه على سجيتها وكتب غير حافل بخطأ أو صواب . وربما لم يحفل هو بمثل هذه الملاحظة لأنه لا يهتم للاعراب ويريد أن يشاركه الناس في الاعراض عنه والازدراء له . ولكني أوكد له ناصحاً ان هذا الاهمال يشين قصته حقاً ويسـيـئ اليها في غير استحقاق منها هذه الأساءة .

• أما الملاحظة الثانية فتتصل بآخر القصة الذي هو جدير بفيلم من أفلام السينما كما نعرف الأفلام السينمائية في مصر ، فهذه الاحداث الكثيرة العنيفة التي يتبع بعضها بعضاً

في سرعة خاطفة ، وهذا الدم الذي يسفك ، وهذا العاشق الذي يجرح في ظهره ، والعاشقة التي تجرح في قدمها ، والرصاص الذي ينطلق بحساب أو بغير حساب ، كل هذا يهبط بالقصة من منزلة كانت رفيعة إلى منزلة لا أحبها لكاتب مجيد كالأستاذ السباعي .

فمَن يتاح لكتابنا ان يراقبوا أقلامهم وان يمتلكوا أنفسهم والا يستجيبوا لهذه الدعوة الخطيرة التي تدعوهم اليها السينما والتمثيل الرخيص ؟

هذه قصة بدأت كأحسن ما تبدأ القصص وانتهت كأسوأ ما تنتهي واضطربت بين بدايتها ونهايتها في ألوان من الإجادة الرائعة والتهافت المؤلم :

ولو راقب الكاتب نفسه أولاً وقلمه ثانياً لاهدى إلى قرائه قصة من خير ما يهدى إلى القراء في هذه الأيام :

من أدبنا الحديث

أريد اليوم أن أتحدث عن كتابين من كتب شبابنا القصاص ، هما «يوم الثلاثاء» و «أرض الخطايا» للأستاذ أمين يوسف غراب .

وأحب قبل كل شيء أن اسجل اغتياطي بأنني استكشف في آثار الشباب أدباً خليقاً بالعناية والرعاية حقاً ، لست أدري أهمله غيري من الشيوخ كما أهملته أنا أم انفردت أنا بهذا الإهمال المعيب . فقد صرفت عن هذا الأدب الخصب الرائع إلى الأعمال العامة أحياناً ، وإلى الأدب القديم أحياناً أخرى ، وإلى الأدب الأوروبي والأمريكي طوراً ثالثاً ، ثم إلى أدب الانتراب والنظراء مرةً أخرى ، وأهملت ما كان الحق يقضي بأن أمنحه من الوقت والجهد ما هو أهل له .

وأكاد أعترف لهؤلاء الشباب بأن من حقهم ان يغضبوا

وان يفتبوا بل ان يلوموا ويشقلوا في اللوم ، فهم يكفون
وبجلون وفتتجون ففبفسون الانتاج ثم لا بجلون صفى
لجهفهم وكفهم ، وانتاجهم إلا ما يكون من هفا الصفى
الففى الذى فترفد فى نفوس القراء ففن فقرأون ففرضون
أو بسفطون ثم لا ففربون عما بجلون من الرضى والسفط
لأنهم لفسوا نقافاً ولا كفافاً وإنما هم قراء بأنفلون ما
فقدم الفهم ، فاذا فرغوا منه انصرفوا إلى ففره وانصرفوا
إلى أعمالهم ونسوا ما قرأوا كما ففسون ما فأكفون وفشربون.
وأفب بفف ذلك أن أهففى إلى الأستاذ أمفن فوسف
غرباف أففف الشكر وأفلففه وأفمله لأنف قرأت كتابفه
فلم ترهففى قراءفهما من امرف عسراً ولم افكلف ففهما ما
أفكلفه فى قراءة ففهما من الكفب الفف فففى الفففففف
من اففافة الففف وائفان الفففر وفففر الأسلوب والمفاففة
على مفزلة مفوسطة بفن الفرفب الذى لا فساف والمففل
الذى لا فطاق .

فالاستاذ أمفن فوسف غرباف كafb ففرف لففه فف
المعرفة ، وففسن الفصرف فففا فف مفكلف ولا مففففف ،
لا فففرج عن ذلك إلا ففن فففسفره الفن إلى هفا الففروج
ففن ففرفى فففة عامفة أو فففر الففار بفن رففلن أو
امراففن أو رففل وامرأة من أهل الرفف . فاما ففن ففرب
عن ذات نفسه فهو فوفف ما ففرف فى لغة نففة واسلوب
صفو ، ولفظ فففره فففسن فففره . وهو فرففف فى كفف

من الاحيان إلى ألوان من التشبيه الرقيق الدقيق الذي يعد في غرابته حتى يفاجأ القارئ فجأة حلوة ويقع من نفسه أحسن موقع ويترك فيه أحسن الآثار ، والكاتب على ذلك لم يتخرج في الجامعة ولا في الأزهر ، ولم يختلف إلى المدارس ولم يجلس إلى الاساتذة والمؤدبين ، وإنما علم نفسه فأحسن تعليمها ، وأخذها بفنون من العنف حتى انقادت له فأحسن الانقياد وقرأ ما أرادها على أن تقرأه ، فعرفت كيف تقرأ وكيف تفهم ، وكيف تسبخ ما تقرأ وما تفهم وكيف تتمثله ثم ترده بعد ذلك أدباً طريفاً فيه كثير من روعة وفيه كثير من جمال لأنها أضافت اليه من خلاصة طبعها ما أسبخ عليه سداجة حلوة واجرى فيه روحاً مصرياً عذبة .

وهو قد قرأ أدب المعاصرين من بني وطنه ، ثم قرأ أدب القدماء ، فأكثر قراءته ، ثم هو لم يتعلم لغة أجنبية ولكنه رغم ذلك قد تأثر بما قرأ وبما نقل عن اللغات الأجنبية لم يكد يترك منه شيئاً . واتيح له من هذه القراءة المختلفة المتنوعة فن من الأدب لا شك في اصالته وفي طابعه المصري الخالص ولا شك مع ذلك في انه متصل بالحياة العامة التي يحياها الناس على اختلاف أجناسهم ولغاتهم في هذا العصر الحديث .

ولست أزعم ان الاستاذ أمين يوسف غراب قد وصل إلى أرفع منزلة من الادب ، فبينه وبين هذه المنزلة امد لا

يزال بعيداً ، وأي الناس يصل إلى هذه المترلة حتى
يتاح له ما لم تتح لهذا الكاتب الأديب من وسائل الاجادة
والاتقان ، وانما ازعم انه دليل أي دليل على ان في النفس
المصرية من الخصب ، وجودة الطبع ، وصفاء الذوق ،
واعتدال المزاج ، ما يتيح لها ان تشارك في الأدب الرفيع
فتحسن المشاركة .

والاستاذ أمين يوسف غراب قاص مقصر إلى الآن ، لم
يحاول ان يطيل القصص فيما اعلم ، وأكبر الظن ان
الوقت لم يتح له كما لم يتح له فراغ البال ، وانه انما يكتب
هذا القصص القصير مستجلباً لفنه من ناحية ولضرورات
الانتاج السريع المنتظم من ناحية أخرى .

وأحسب أنه لو فرغ لفنه وقدر له ان يجنب ما تفرضه
الحياة اليومية من العسر لأتبع له انتاج أكثر امتاعاً واغزر
مادة واقدر على طول البقاء . وهو يشق احاديثه هذه
القصار من حياتنا المصرية اليومية فيحسن اشتقاقها ويرفعها
من طور الواقع المبتذل إلى حيث يجعلها أدباً فيه عبرة
وعظة ، وفيه اثارة لعواطف الرضى والسخط والسرور
والحزن والامل واليأس ، وفيه ميل شديد إلى التشاؤم ،
فهو يجيد أكثر ما يجيد تصوير الآمال الخائبة والظنون
الكاذبة والالوهام التي تدفع أصحابها إلى التورط في الخطأ
الذي لا سبيل إلى اصلاحه واقراراف الإثم الذي لا أمل
في استدراكه ، فهذا الفتي يضطرب بين البؤس البائس

والامل المختلط الترق حتى يقترف جريمة القتل والسرقة ،
ثم لا يلبث ان يستكشف انه لم يسرق الا وهماً لأن
النقد الذي سرقه وقتل في سبيله نقد أجنبي لا يغني عنه
شيئاً إلا أنه يسلمه إلى السلطان ليقتص منه . وهو مع
ذلك قد اضطر إلى الأثم اضطراراً ، وقاوم الأثم ما
استطاع ان يقاومه . وهذا الرجل الذي يقرأ كتباً فيرى
فيها حياً آثماً قد تورطت فيه امرأته فيخرجه الغضب عن
طوره وتسيطر الحفيظة على امره كله ويستيقن ان امرأته
تلك التي تلد في المستشفى انما تلد نتيجة الأثم والفجور .
فلا يكاد يردها ويرد معها الصبي إلى داره حتى تنتهي
الغيرة إلى خنق هذا الصبي البريء . ثم لا يلبث ان يتبين
انه لم يقتل الا ابنه لأن تلك الكتب الآثمة لم تكن موجهة
إلى امرأته وإنما كانت موجهة إلى الخادم التي طردت من
الدار حين استكشفت سيدتها هذا الأثم .

وهذا الرجل الساذج من أهل الريف كان يرعى الغنم
على عمدة القرية فزوجه العمدة من ابنة خادم تعمل في
داره . وهو محب لزوجته محسود على انه قد تزوجها ولكنه
يسمع تعريضاً بأن امرأته أثرة عند العمدة فيقتلها ثم
يستكشف بعد دقائق بأنها لم تكن أثرة العمدة إلا لأنها
كانت ابنته من خادمه .

والكاتب لا ينتهي بقصصه دائماً إلى الأثم المقطوع
المبهظ الذي تسيل فيه الدماء وتزهق فيه النفوس ، ولكنه

يتمهي في كثير من الاحيان إلى خيبة من الآمال ليست
أقل شنعاً وبشاعة من ذلك الأثم . وأسلوبه في تصوير خيبة
الامل هذه يشبه كثيراً ما تألفه عند السكائب الفرنسي
موياسان ، فأكبر الظن أنه قرأ ما ترجم إلى العربية من
هذا الكتاب وقرأ كاتبنا العظيم محمود تيمور فأحسن
الانتفاع بما قرأ .

وهو من أبرع الناس في تصوير البؤس والشقاء والحرمان
سواء أكان مصدر هذه الخصال هو سوء النظام الاجتماعي
أم هو الانحراف عن جادة الفضيلة وطريق الخلق القويم .
هل أن من الاسراف ان يقال ان كاتبنا يجيد دائماً ، ويوفق
دائماً إلى ما يحب ، فما أكثر ما يخطئه التوفيق فيتمهي إلى
غير غاية ، وما أكثر ما يضطر أحياناً إلى التزيد والاعراق
في الوصف ، ولا سيما حين يصف الترف والمترفين ،
وما أكثر ما يتورط في عيب آخر يشارك فيه كثيراً من
أترابه الكتاب الشباب هو الاسراف في وصف جسم المرأة
وجماله وفتته المغرية . واحسبه واحسب أمثاله من الكتاب
يتملقون بهذا الاعراق استجابة الناس للفرائر وإيثارهم لكل
ما من شأنه ان يشر فيهم هذه الاستجابة ، وينسون ان
الأدباء إنما يكتبون لتأديب الشعب وتهذيبه لا لتملقه واغرائه .
وكاتبنا من أقل الكتاب كلفاً بالابتدال في اللفظ ولكني مع
ذلك أحب له الا يغلو في وصف الطعام على هذا النحو
المتهاك الفج الذي يجب أن يشير إليه الادب دون أن

يعن فيه .
أما بعد فاني اهنيء كاتبنا بأدبه هذا الخصب الرائق ،
وما أشك في انه إذا أمعن في القراءة واحسن اختيار ما
يقرأ وراقب نفسه حين يكتب واشتد في مراقبتها سيتهي
بأدبه إلى غاية بعيدة من الاجادة والاحسان والارتفاع .

مِنْ أَدَبِنَا الْجَدِيدِ

أريد اليوم أن أحدثك عن كتاب رائع بأدق معاني هذه الكلمة وأصدقها للاستاذ نجيب محفوظ ، وهو كتاب «زقاق المدق» .

وقد يثقل هذا العنوان على لسان الناطق وأذن السامع ، ولكنك لا تكاد تسمعه وتنطق به حتى تتبين أنك مقبل على كتاب يصور جواً شعبياً قاهرياً خالصاً . فهذا العنوان يوشك أن يحدد موضوع القصة ويشتها ، وقد ذكرت القصة ومن قبل ذلك ذكرت الكتاب لأن لهذا السفر قيمتين خطيرتين حقاً ، احدهما انه قصة متقنة رائقة لا تكاد تأخذ في قراءتها حتى تستأثر بك استئثاراً كاملاً وتشغلك عن كل شيء غيرها ، ثم تمضي فيها حتى إذا فرغت منها لم تستطع الاعراض عنها كما تعرض عن

كثير من الكتب والقصص بعد أن تفرغ من القراءة ،
ولأنما أنت ذاكر للقصة مفكر في كثير من أحداثها وأشخاصها
حريص على أن تسترید من مصاحبة الكاتب والنظر فيها
أظهر من كتب أو قصص أخرى ، قد أحبت الكاتب
واستعذبت روحه وشق عليك أن تفارقه أو أن تشغل عنه
بغيره من الكتاب .

أما القيمة الثانية الخطيرة لهذا السفر الضخم فهي انه
بحث اجتماعي متقن كأحسن ما يبحث أصحاب الاجتماع عن
بعض البیئات يصورونها تصويراً دقيقاً ويستقصون أمورها
من جميع نواحيها . وما أكثر ما خطرت لي وأنا اقرأ هذا
الكتاب انه لم يوجه إلى الكثرة من القراء ليجدوا فيه ما
يطلبون من المتعة الفنية الخالصة التي تشوق وتروق ، وإنما
وجه أيضاً إلى الباحثين الاجتماعيين الذين يبحثون ليعلموا
وإلى الباحثين الاجتماعيين الذين يبحثون ليصلحوا . ولا
أكاد أعرف كتاباً أجدر بأن يقرأه وزراء الشؤون الاجتماعية
ورجال البحث والاستقصاء في هذه الوزارة من هذا
الكتاب . فهو قصص وعلم في وقت واحد ، وهو من
أجل ذلك مرضٍ للقلب والعقل والنوق جميعاً .

وهو يصور لك حارة صغيرة في هذا الحي القاهري
الخالص بين الغورية والازهر ، ثم يصورها تصويراً يحصي
دقائقها ولا يغادر من أمرها كبيراً ولا صغيراً إلا أحصاه
كأحسن ما يكون الإحصاء ، وكأصدق ما يكون

الاحياء أيضاً .

في هذه الحارة الصغيرة قهوة شعبية يطرأ عليها الطائرثون من الاحياء القريبة والبعيدة أيضاً ، ولكن يختلف اليها في كل يوم أشخاص بعينهم لا يتخلفون عنها مهما تكن الظروف . وفيها وكالة شعبية أيضاً في مظهرها وحركاتها التي يضطرب بها الناس فيها . ولكنها على ذلك تؤدي ثراء عظيمًا ضخماً وترزق عمالاً وموظفين كثيرين ، وصاحبها رجل من الشعب ، قد امتاز بالثروة والغنى ، وظهرت عليه آثار هذا الامتياز فهو أنيق الزي وسمي الطلعة بخالط أهل الحي مخالطة متصلة ويمتاز منهم على ذلك ، امتيازاً ظاهراً تغدو به على الزقاق وتروح به من الزقاق عريضة أنيقة تجرها الخيل . ولها جرس يسمعه أهل الزقاق فيعلمون بغدوه ورواحه . ولكنه لا يكاد يبلغ الزقاق حتى يصبح واحداً من أهله . يأنس اليهم ويأنسون اليه ، ويمتاز منهم بعد ذلك بهدوئه وأناته وشيء من الترفع ليس استعلاء ، ولكنه يوشك ان يبلغ الاستعلاء ، وأهل الزقاق يكبرونه ولكنهم يرونه واحداً منهم ، يرونه سيداً أو شيئاً يشبه السيد . بينهم وبين الذين يسودهم هذه الالفة الانيقة التي تقربه منهم كل القرب وتبعده منهم بعداً شديداً .

وفي الزقاق حانوت حلاق ، وبائع للبسبوسة ، وفرن خباز تتسلط فيه الزوجة على زوجها تسلطاً كاملاً .

وفي الزقاق بعد ذلك بيتان يستأجر حجراتها وغرفاتها

هؤلاء الذين يعيشون فيه ، ويقوم فيها بعد ذلك صاحبهما .
 فأما أحدهما فرجل تعلم في الأزهر حتى كاد يتخرج
 فيه ، ولكن الله لم يفتح عليه بالعالمية ، وقد طابت نفسه
 عن هذا الاخفاق ، واقبل على شيء من التصوف ذكت به
 نفسه ، وطهر به قلبه وصفى به طبعه وذوقه فأحبه أهل
 الزقاق وأكبروه ، واتخذوه لأنفسهم ناصحاً ومرشداً
 يستشيرونه حين تشق عليهم مشكلات الحياة ويفزعون
 اليه حين تلم بهم النائبات . والاخرى امرأة بلغت الخمسين
 أو قاربها ترملت منذ عهد بعيد وشقت عليها الوحدة
 حتى ضاقت بها ، فهي تنوق الى الزواج في استحياء ، ثم هي
 حريصة بخيلة كاتزة للمال ، متهاكة عليه ، ترهق سكان بيتها
 من أمرهم عسراً . ولا بد من ان نذكر كائناً آخر غريباً
 يعيش في الزقاق قريباً منه ويرقون له أحياناً . قد صور القذارة
 أبشع تصوير وأشنع ، قذارة الجسم ، وقذارة الزي ، وقذارة
 النفس ، وقذارة السيرة . وهو شحاذ ، أو قل أستاذ الشحاذين
 يعلمهم المهنة ، ويهيئهم لها ويتكلف لهم العاهات والآفات
 التي يحتاجون اليها ليستدروا اشفاق الناس وعطفهم ، وهو
 يسكن حجرة قلرة ملحقة بالمخبز ، خالية أو كالحالية من
 كل شيء يتفق فيها النهار كله ، وشطراً من الليل . ثم
 يخرج في جوف الليل كأنه الشيطان فيطوف على تلاميذه
 ليأخذ منهم الاتاة التي فرضها عليهم .

ويختلف على القهوة في الزقاق اذا أقبل المساء من كل يوم ، رجل غريب الاطوار ، كان موظفاً في الاوقاف ، وانتهى به أمره الى تصوف ذاهل أو ذهول متصوف . فهو يسمع ما يجري من الاحاديث حوله ، ولكنه لا يقول شيئاً ، وهو هائم في ذهوله بأهل البيت - وبست السئات - منهم خاصة . قد غمره حبها وانقطع لها انقطاعاً لا يكاد يتبينه ، وهو يجلس في القهوة بشخصه ولكن نفسه غائبة عنها وربما عادت اليها بين حين وحين فنطقت بجملة أولها عاقل وآخرها مجنون . وأهل الزقاق يرونه ولياً من أولياء الله الصالحين ، يتبركون به ولا يستطيعون أن يستغنوا عنه بحال من الاحوال .

هذا هو الزقاق ، وهوؤلاء هم أهله ، ولكل واحد منهم قصته التي تصور حياته ومزاجه واخلقه ومواطن الحسب والشرف فيه . وهذه القصص الكثيرة يتصل بعضها ببعض ، ويدخل بعضها في بعض ، فهي متشابكة تشابكاً غريباً والكاتب مع ذلك يعرضها كلها عليك في نظام أي نظام ، في نظام واضح متسق سهل لا غموض فيه ولا لبس ولا التواء .

في نظام يذكرك بمذهب الكاتب الامريكى « دوس باسوس » والكاتب الفرنسي « جان بول سارتر » وهو مذهب يجري القصة كما تجري الحياة . فالتناس يعيشون معاً في زمان واحد وأماكن متقاربة ، والاحداث تعرض لهم في وقت

واحد ، فمن الطبيعي ان تعرض هذه الاحداث اطرافاً
كما تحدث . يقص الكاتب عليك طرفاً من أحداث هـذا
الرجل ، ثم ينتقل بك الى طرف من احداث رجل آخر ،
ثم الى طرف من احداث امرأة ، وما يزال ينتقل بك بين
احداث الاشخاص على اختلافهم حتى اذا استقصى طائفة
من احداثهم عاد بك من حيث ابتداء ، فقص عليك طرفاً
من احداث الرجل الاول ، وتنتقل بك بين الاطراف
والاشخاص ، وما يزال يفعل هذا عوداً على بدء ، وبعدها
على عود حتى ينتهي بك الى آخر الكتاب ، وقد اجتمعت
لك الاحداث التي اراد الكاتب ان يصور بها حياة هؤلاء
الاشخاص جميعاً .

فصاحب القهوة قد كان من الفتوات في شبابه ، ثم
انتهى به الامر الى قهوته تلك ، وهو رجل ممتحن في
بنية كلهم ، يعرض لهم الفساد فيخرجهم عما يحب الناس في
حياتهم المألوفة . وهو ممتحن في أخلاقه وسيرته بشيء من
السلوك المنكر ، الذي يعرضه للفضيحة بين حين وحين
وينقص عليه حياته في منزله دائماً .

وهو على ذلك يحب أهل الزقاق ويحبونه وتجري الحياة
بينه وبينهم على ما عرف الناس من حسن العشرة وتيسر
الجانب . والحلاق في ساذج لا يكاد يكسب الا ما يقيم
أوده ولكنه يرى هذه الفتاة التي تقيم مع أمها أو مع من
تقوم مقام أمها ، يراها فيطير طائره ، ويشغف قلبه ،

ويذهب إليه ، حتى لا يعيش إلا بها ولها . وهذه الفتاة
نفسها غريبة الاطوار حقاً لا تعرف لنفسها ولا يعرف
الناس لها أباً . وقد ماتت أمها وكفلتها امرأة خاطبة ،
وهي فتاة شرسة شמוש شديدة الطموح ، لا ترضى عن
شيء ولا تقنع بشيء . ولا تحفل بشيء ولا بانسان ،
وانما تريد الغنى والزينة والترف ، مع أنها تعيش في اللرك
الاسفل من البؤس .

وهي تخرج كل يوم فتمشي في الطريق حتى تلقى
صاحبات لها يعملن في بعض المشاغل فتعود معهن ثم ترجع
الى دارها . وقد جعل الفتى يرصدها حتى أتبع له أن
يتحدث اليها وان يخطبها بعد جهد أي جهد فتقبله غير
راضية به ولا مطمئنة اليه .

وقد ترك الفتى مهنته وترك زقاقه على مضض ومضى
يلتمس السعة بالعمل في الجيش البريطاني ليعود موثقاً
ويتبع لامراته حياة ناعمة . وقد غاب فأطال الغيبة ، ثم
عاد في اجازة ليرى خطيبته ولكنه لا يكاد يبلغ الزقاق
حتى يعلم ان الفتاة خرجت ذات يوم فلم تعسد ، وهو
يائس يائس يوشك اليأس ان يقتله ويذهب الحزن به كل مذهب ،
وهو يبحث عن الفتاة ما استطاع ، ولكنه يراها ذات
مساء في عربة وقد اتخذت من الزينة ما بهره ، ويعلم بعد
ذلك من أمرها — ما لم يكن يعلم ، وما علمناه نحن ،
لان الكاتب قصه علينا في أسلوبه الرائق فكنا شهداء

وكان الفتى غائباً يعمل في الجيش البريطاني .
فقد لقيت الفتاة من أغواها بعد عناء طويل وخطوب
شداد ، فأصبحت فتاة سوء تبيع اللذة للجنود البريطانيين
وتكسب لنفسها ولمغويها مالا كثيراً . ويدركها الفتى
آخر الامر وهي ضيقة بذلك الذي أغواها لانها لا تحبه وهو
يتخذها مكسباً . وقد كان الفتى عليها ساخطاً قد أزمع
ازدراءها ان لقيها . ولكنه لا يكاد يراها ويسمع صوتها
حتى تسرق منه عقله وقلبه . واذا هو يريد ان ينتقم من
مغويها قبل كل شيء ، ويصبح اداة في يدها للانتقام من
هذا الرجل ، وقد ضربا للانتقام موعداً . وانه ليمر ذات
مساء ببعض الخانات ، واذا هو يراها بين جماعة من الجنود
تشرب وتلعب ، فيجن جنونه ، ويهجم على الفتاة ،
ويرميها بزجاجة من زجاجات الخمر ، ويتكاثر عليه الجنود
فما يزالون به ضرباً ولكماً حتى ينقل الى المستشفى آخر
الامر ، ليفارق فيه الحياة والحب والانتقام جميعاً .
ولم أخلص لك القصة ، لأن تلخيصها عسير جداً ، لا
مبيل اليه في فصل من هذه الفصول ، وانما تلخصت لك
منها أطرافاً قليلة جداً . وما أشك في ان ما تركته
من أطراف القصة ، عظيم الخطر بالقياس الى ما تلخصته
منها . عظيم من الناحية الاجتماعية أولاً ، لانه يشخص
الزقاق ويشيع فيه روحاً خاصاً ، ويعرض عليك هذا
الروح الحلو المر الذي يسر قليلاً ، ويسوء كثيراً ويدعو

أشد الدعاء واقواه الى الاصلاح العاجل السريع الذي
يعصم هذا الشعب القوي القسبي الخصب من الفساد
والانحلال . وعظيم الخطر من الناحية النفسية لأن الكاتب
يحلل لك حياة الرجال والنساء والفتيان والفتيات تحليلاً
دقيقاً رائعاً ويعرض عليك خباياها عرضاً ، قلماً يحسنه
البارعون في علم النفس .

وعظيم الخطر من الناحية الفنية لأن الكاتب يصور لك
هذه الحياة الساذجة المعقدة السعيدة البائسة تصويراً يروك بدقته
وصدقه حتى كأنك تعيش بين هؤلاء الناس ، فتضحك
حين يضحكون ، وتحزن حين يحزنون ؟

والكتاب طويل ولكنك تفرغ من قراءته فراه قصيراً :
والكتاب مفصل ، ولكنك تمضي في تفصيله فراه مجملًا ؟
وما أعرف كتاباً يذود عن قارئه الملل كهذا الكتاب ؟
وهو مكتوب في لغة فصيحة سهلة قد برئت من التكلف
وامتازت بالاسباح ، تتخللها بين حين وحين عبارات شعبية
تقرأها فلا تضيق بها ، ولا تحس تناقضاً بينها وبين ما
حولها من هذه اللغة السمحة المستقيمة على هنات قليلة فيها
لا تستحق ان تذكر . فهو مثلاً يثني « ذات » فيقول
« ذاتا نبقتين من اللؤلؤ » والخير ان يقول ذواتنا ؟
وهو يقول « قد استخار الله فأخاره » والجيد ان يقول :
فخار له .

ولكن هذه هنات يسيرة ، وهي بعد ذلك قليلة في

هذا الكتاب الطويل :

ما أجدر هذا الكتاب ان يقرأ ، فهو كتاب متمسك
حقاً ، قد صدر عن كاتب ممتاز ، ما في ذلك شك .
ولقد فرغت منه بعد أن أنفقت في قراءته أياماً فلم
يسعني الا أن آخذ في كتاب آخر من كتبه هو « بداية
ونهاية »

أنا السُّبِّ

قصة للاستاذ محمد فريد أبو حديد :

أو قل انهما قصتان تمضيان في طريقين مختلفين وتنتهيان الى غايتين مختلفتين ايضاً ولكن بينهما تشابهاً قوياً ؛ احدهما تنبئ بسعادة اثنين والاخرى تنبئ بسعادة شعب بأسره :

احدى هاتين القصتين انسانية بالمعنى الدقيق الصادق لهذه الكلمة ، والاخرى سياسية لا تخلو من المغامرات والمقامرات وما تستتبعه السياسة عادة من الاضطراب واختلاط الامور ؛ والاستاذ فريد ابو حديد قاص بارع ما في ذلك شك ، يعرف براعته من قرأ قصصه « زنوبيا » و « أزهار الشوك » و « الوعاء المرمرى » ، واستحضر الساعات العذاب التي أنفقها وهو

يقرأ هذه الكتب الرائعة التي تستهوي القلوب وتستأثر بالالباب . فهذه القصة الاخيرة لا تقدمه اليها لاننا نعرفه منذ زمن بعيد ، وهي لا تنبئنا من أمره بشيء جديد ولا تحدثنا عن ناحية طريفة من نواحي فنه الذي يمتاز بالصدق والدقة والاتقان .

فهو في هذه القصة كما عرفناه في غيرها متقن للتصوير محسن لاستقصاء خصال الاشخاص الذين يصورهم والبحث عن أسرارها ، والنفوذ من مشكلاتها المعقدة أشد التعقيد . وهو كعهدها به باحث عن خبايا النفوس ، نقاذ الى دنائنها لا يحب العجلة ولا يطمئن الى السرعة ، وانما يطيل الوقوف عند ما يريد درسه من شؤون الافراد والجماعات حتى يشفي نفسه ويشفي قارئه من كل حاجة الى الاستطلاع . ولفظه كما عرفناه دائماً جزل رصين تشيع فيه عذوبة محبة الى النفس لولا هنسات تلتقاك هنا وهناك ليست بذات بال ، ولولا لوازم لا يكاد يبرأ منها شأنه في ذلك شأن كثير من الكتاب تلح عليهم ألوان من التعبير فلا يستطيعون منها فكاكاً .

وقد قلت ان هذه القصة توشك ان تكون قصتين تجري احداث احدها في مدينة بعينها من مدن الاقاليم هي دمنهور ولا تكاد تخرج من هذه المدينة الا حين يسافر بطل القصة الى القاهرة فيصحبه حبه الذي لا يريد عنه انصرافاً ولا يريد هو منه خلاصاً لأنه لا يعيش الا به

ولا يعيش الا له كما يقول .

وهذه القصة الاقليمية هي القصة الانسانية حقاً لأنها تصور حياة طائفة من الناس في سرها وفي جهرها ، وفي استقامتها والتوائها ، وفي خيرها وشرها ، وفي حبها وبغضها وتذبذبها بين الحب والبغض كما تصور كيد الناس للناس ، ومكر الناس بالناس ، ووفاء الناس للناس ، وكم تصور صفو الحب حين يكون بين الأم وابنها وبين الاخت وانيها ، وصدق الحب ، وحياءه واستخفائه وانكاره لنفسه وان أيدت عنه الظروف حين يكون بين عاشقين بملك كل منهما لنفسه كأحسن ما يملك الانسان نفسه ويضبط شعوره كأحسن ما يكون ضبط الشعور .

وقد اختلفت بهما طرق الحياة فاتيح لاحدهما الرء والسعة والنعم وكتب على أحدهما الآخر العسر والضيق وفرض عليه الجد في كسب القوت . فأحدهما محب يستحيي ان يظهر ذات نفسه لأنه مترف موفور . والآخر محب يأنف ان يظهر ذات نفسه لأنه معسر أبي . وهما التماوت بين المحبين ، وهذا الحياء وهذه الكبرياء ، كل هذه الحصال هي التي تتيح للحب ان ينمو ويدكو ويملا قلوب العاشقين رضى وسخفاً وحزناً وسروراً ، ويشير فيهما لوعة أي لوعة في أكثر الاحيان وسعادة أي سعادة في احيان أخرى ، ويتيح لاحداث القصة ان تتصل وتجري في نسق مستقيم لا عوج فيه .

فبطل القصة فتى من دمنهور قد فقد أباه وهو تلميذ
 في المدرسة الثانوية فاضطربت عليه الامور أشد الاضطراب
 حتى زهدته في الدرس وصرفته عنه آخر الامر واضطرت
 ظروف الحياة الى ان يلتمس العمل ليكسب لنفسه ولأمه
 القوت . وهو يحاول فلا تغني عنه المحاولة شيئاً ، ثم
 تشير عليه أمه ان يلجأ الى رجل من أغنياء المدينة واصحاب
 التجارة الواسعة فيها كانت بينه وبين أبيه مودة وما زالت
 هذه المودة باقية بين أسرته وأسرة الفتى ، ولا يكاد الفتى
 يلتقى هذا الصديق القديم لايه حتى يحسن لقاءه ويكلفه
 العمل في محلجه ، ثم يصطفيه ويختصه بكثير من الرعاية
 والحب . ولهذا الرجل ابنة في أول الشباب عرفها الفتى
 منذ كانا طفلين ونما بينهما حب نقي ولكنه حب شديد
 الحياء لا يكشف عن نفسه لصاحبيه إلا في اناة شديدة
 ومهل بطيء . فاذا كشف عن نفسه لها استحيا كل واحد
 منهما ان يحدث به صاحبه ، واستحيا كل واحد منهما
 ان يعرب عنه لأحد من الناس . وأمر القصة تضطرب
 بين العسر واليسر وبين الشدة واللين ، ويكثر فيها الكيد
 والمكر والعبث ، وتختلف فيها الخطوب والثقال . وما أريد ان
 ألخصها لك لا لأن في تلخيصها شيئاً من العسر بل
 لاني حريص على ان تقرأها وتستكشف ما فيها
 من روائع التصوير وبراعة في تحليل النفوس والاعمال
 التي تصدر عنها .

وقد كاد للفقي بعض زملائه فأقصاه هذا التاجر عن عمله ولكنه حفظ له كثيراً من المودة والعطف ، والفقي مضطرب في شؤون الحياة يحاول التجارة البسيرة فيواتيه الحظ لأن رفيقاً من رفاقه البائسين في المدينة قد أعالبه فأحسن معونته ، والكاتب يصور لنا هذا الرفيق أبرع تصوير وأصدق وأعظم استهواء لنفس القاريء .

وفي أثناء هذا الكد والجهد تنشأ القصة الثانية . فقبيد اتصل للفقي بالسياسة من طريق الانتخابات والتمويل لأحد المتنافسين فيها والتعرض لما كان عملاً الانتخابات من كيد يكيد به بعض الخصوم لبعض ، ومن عيث يعبه السلطان بالذين يروجون لمن يخاصم السلطان .

واتصال الفقي بالسياسة من هذه الطريق يظهره على ذات نفسه ويكشف له عن حقيقة أمره . فيستكشف أولاً انه كاتب يحاول القصص فيجعله ويبرع فيه ، ويستكشف ثانياً انه خطيب يحسن إثارة الجماعات والهاجها . ويستكشف بعد ذلك ان له مثلاً علماً في السياسة ، وانه مؤثر لها أشد الاثر مخلص لها أعظم الاخلاص مؤمن بها إيماناً لا يسعى إليه الشيك ولا تنال منه الخطوب ، صادق اللهجة اذا أحرب عن رأيه قادر على ان ينقله الى سامعيه والى قارئيه لا يجد في ذلك مشقة ولا عسراً وانما هو طبيعة له قيد ركبت فيه وجعلته رجل جهاد ونضال لا يعرف ضعفاً ولا خوفاً ولا يهاب الهول مهما عظم ومهما يكن مصيره .

وليس القى في حقيقة الامر هو الذي استكشف هذه
الناحية من نواحي نفسه وانما استكشفها صديق حميم له لم
يلبث أن وصل أسبابه بأسباب صحيفة من صحف القاهرة
ثم لم تلبث الصحيفة ان دعتة الى المشاركة في تحريرها فانتقل
الى القاهرة ومعه حبه ذاك ومن ورائه أمه واخته تعيشان
في دمنهور من سعيه العسير الرضي والسعيد الشقي في
القاهرة .

ولا أخلص لك هذه القصة الثانية أيضاً وان كسان
تلخيصها يسيراً لا لاني أريد ان تستكشفها بنفسك بل
لأنك تعرفها حق المعرفة . واي القراء في مصر لا يعرف
حياة الصحفيين وما يعرض لهم من الخطوب حين يصدقون
أنفسهم وقراءهم ويخلصون لآرائهم ومذاهبهم ، ويجادلون
السلطان عن هذه الآراء والمذاهب ، ويعارضون الحكومة
في عنف لا يعرف اللين وصرامة لا تعرف السباح .
كل القراء عرف ما كان الصحفيون الصادقون يتعرضون
له قبل الثورة من الحاح النيابة في التحقيق ، ومن السجن
الاحتياطي الذي يتصل ويسرف في الطول ، ومن الاغراء
والاضطهاد حين لا يجدي الاغراء ، وما كانت الصحف
تعرض له من المصادرة وما يتبعها من الخسارة المالية ،
وقد صور الكاتب هذا كله ولكنه فيما أرى لم ينبش
بشيء لم نكن نعرفه وانما أعاد الينا شيئاً ألفناه فطال
إلفنا له وضحنا به أشد الضيق : وقد أحسن الكاتب تصوير

حياته في السجن حتى بلغ اثاره الالم في نفوسنا ، ولكنه
على ذلك قد سبق الى تصوير السجن وحياة الكتاب فيه
والى تصوير السجن المصري نفسه وحياة الكتاب المصريين
فيه ، سبقه الى ذلك من ذاق الحياة في السجن دون ان
يحتاج الى خيال أو الى افتنان ، لان الحياة في السجن
المصري ولا سيما حين تفرض على كاتب لانه أعرب مخلصاً
عن ذات نفسه أقوى وأشد نكراً من ان يحتاج الى تجاوز
الحقيقة الى الخيال .

ولست أدري أصورتُ الكتاب حق تصويره حين قلت
انه يعرض علينا قصتين ، فقد يخيل اليّ ان فيه قصة ثالثة
ليست عظيمة الخطر ولا كثيرة التفصيل ولكنها قصة على
كل حال ، فيها فتاة وفيها شيء يوشك ان يكون فتوناً
وفيها بعد ذلك مفاجأة حين يقدم ذلك الرفيق البائس
القديم الذي أصبح بفضل الكيد من أهل اليسار ، حين يقدم
ذلك الرفيق الى القاهرة ليزور صديقه القديم في سجنه
فيلقى تلك الفتاة ويحبها ويدخل بحبها في مغامرة أخرى
ليست بذات بال وان احتاج الكاتب الى ان يبلغ بنسبها
غايته .

وبطل القصة بل بطل القصتين يشقى بقصتيه معاً ، يشقى
بحبه الذي لا يعرف له غاية ولا يرى السبيل الى ارضائه
وان مدت له الاسباب الى هذا الارضاء لانه يكبر نفسه
عن ان يطمح الى فتاة مرفقة ليس له من ترفها نصيب ،

يخشى ان يتهم بالطمع في مال الفتاة ان سميت نفسه اليها وان كان حبها يحرق قلبها تحرقاً ، والفتاة تحبه ويصدها الحياء عن ان تستجيب لهذا الحب لأنها لا تستطيع ان تبدأ بالخطوة الاولى ولو قد ارادت لما أتسح لها ذلك . فقد خطبها الى أبيها فتي من أبناء اللباشوات ، وقبل أبوها الخطبة وأذعنت هي لأمر أبيها واستياس العاشقان من ارضاء حبها ذلك البائس الذي كتب عليه الحرمان . صاحبنا شقي بهذا الحب كما شقي العنريون بحبهم من قبل ، وهو شقي بقصته الثانية فجهاده في السياسة يبلغه من تحقيق الى تحقيق وينقله من سجن الى سجن ويملحه بكثير من الخطوب في نفسه وفي الزملاء . ولكن لكل قصة غاية يجب ان تنتهي اليها ، ولكل مشكلة حلاً يجب ان تصير اليه من طريق أو من أخرى .

وقد وفق الكاتب كل التوفيق الى حل القصة الاولى ، قصة الحب في غير مشقة ولا تكلف بل في براعة أي براعة وفي صدق أي صدق ، وفي افادة لقراءه كأحسن ما تكون الافادة للقراء لانه درس بيته حبه ذلك أحسن درس واعيمقه واعطانا من الذين يضطربون في هذه البيئة صوراً تملؤها الحياة وفيض منها النشاط وتظهر لنا حقائقهم قوية أخاذاً فيها للرائع وفيها المروع . فهنا الغلام البائس الذي ألسع عليه البؤس حتى ادركه الهزال وبلغ منه الجهد وانتهى به الى شحوب مخيف عرف به بين الناس ، وكانوا يسمونه

جادة الأصغر ، والذي يعيش من الموال وتكف الناس
والذي المختلط في نفسه الخير والشر والمخطئ والراضي
والحزن والعزور حتى أصبح صورة مزعجة للبؤس المضطرب
الذي لا يعرف ما يأتي وما يدع والذي لا يؤمن بنفسه
ولا يؤمن بغيره وإنما هو أشبه شيء بالهامة التي تعبت بها
الرياح فتوجهها حيث تشاء . وهذا الفتى قانع بالقليل حين
يتاح له القليل . فإذا أدر كنه صفة أو سمه جناح نعمتة
أسرع إلى لذته فاندفع إليها واسرقت فيها ، ويجب أن
تكون لذته قصيرة مثله بائسة مثله فهو لا يتبجح إلا بأسف
المخانات ولا يشرب إلا أروع الخمر واقتكها بالفسوس
والاجسام .

وهو لا يحفل بنفسه ولا يحسمه كما أنه لا يحفل بالاخلاق
ولا بالأوضاع الاجتماعية لأنه يحس أن الجماعة قد بذتته
نبدأ فهو ليس منها وهي ليست منه في قليل ولا فسي
كثير . فليفتل حياته ، وليختلص ما يتاح له فيها من
متاع ، وليسلك إلى انحلاس الحياة ومتاعها كل سبيل ولا
عليه أن تكون سبلة معوجة أو مستقيمة وإن تثر سريره
رضى الناس أو سخطهم ، وهو على ذلك كله ليس خطواً
من كلى خير . فيه هذا الخير المادي الذي يبيع له شيطان
النجاح في التجارة حين تمد له أرباحها فينفع نفسه وينفع
صديقه بطل القصة . يربح هو قليلاً من المال يتفقه في
لذاته ومنحه العاطفة ويربح صديقه مالاً لا بأمن به يورثه

في التجارة ويغريه بها لولا انه مريض بالكتابة والسياسة
 جميعاً . فيصرفه مرضه هذا عما كان جديراً ان يغنيه ويدنيه
 من ارضاء حبه ذاك ، وذلك الفتي الآخر الذي يعمل مع
 بطل القصة في المحلج والذي يظهر عليه الرفق والتألف
 وسباحة النفس وسجاجة الخلق ، ومن وراء هذا كله اثره
 منكراً وكيد خبيث ومكر بعيد الغور فهو وادع حسين
 تلقاه وحين تقول له وتسمع منه ، وهو شيطان مريد حين
 تنأى عنه يكيد لك الكيد ويمكر بك المكر البغيض ويسعى
 بك عند الرؤساء ويفسد عليك الامر كله بين الناس .
 وهذا الصديق الحميم الذي يعمل معلماً في احدى المدارس
 والذي تصفو نفسه الى اقصى غايات الصفاء ويخلص وده
 للصديق حتى يبلغ الايثار ، ويصدق نصحه للصديق أيضاً
 حتى يصبح له مرشداً وهادياً الى ما ينفعه ويرضيه ونائياً
 به عما يسوءه ويؤذيه . وهذه الامة البرة الحنون التي
 تعيش لابنها ولا تؤثر به شيئاً وترضى عن كل ما يعمله
 وتشفق عليه من أيسر الاشياء حتى من النصيح الذي لا
 يلائم هواه . وهذه الائمة الناشئة ذات النفس السمحة
 والروح العذب والدعابة الحلوة والتي تحسن الاخلاص لانيها
 وامها وكل من تحب تجد في ذلك كل الجد وان لم تظهره
 الا في صورة الفكاهة والمزاح .

كل هؤلاء الاشخاص صورهم الكاتب أبدع تصوير
 وابرعه واصدقه حتى أصبح كل واحد منهم درساً في

الحياة يعلم الناس اين يكون الخير والشر ، واين يكون
الكرم واللؤم ، واين يكون النصيح والخداع .
وذلك التاجر الماهر في التجارة أعظم المهارة وابعدها
مدى ، الماكر في المعاملة أنفذ المكر وابلغه . ذلك الذي
لا ينظر الى المال الا نظرة الجد الصارم الذي لا مزاح معه
ولا يبلغ منه الصديق والصراحة شيئاً ، وابته الحسناء الوادعة
ذات الخفر الذي لا تكاد نعرفه الا عند أولئك الحسان
اللاتي كان العنريون يهيمون بهن ويتحدثون عنهن في ذلك
الشعر الخالد الذي لا ينسى ، والتي تحسن حفظ الود وتعرف
كيف تصونه في أعماق نفسها ولا تكاد تبدي عنه الا حين
تضطر الى ذلك اضطراراً .

هؤلاء كلهم هم الاشخاص الذين يضطربون في تلك البيئة
الاقليمية التي صورها لنا الكاتب فأحسن تصويرها . وعرض
هؤلاء الاشخاص كما قرأته الآن يكفي لينبئك كيف
انتهت قصة الحب الى غايتها . تاجر ماهر ماكر في شئون
المال وفي جمعه ولكنه ساذج فيما وراء ذلك ، ومن حوله
أصحاب الكيد والمكر واصحاب المطامع والمتافع ، وهو بعد
ذلك سريع الاستجابة حين تدعوه اللذة فأى غرابة في أن
يطمع أحد الباشوات في ماله الكثير ، فيسعى في الاصهار
اليه ، وأي غرابة في ان يجيبه التاجر الى ما يريد ثم أي
غرابة في ان يكيد له الكائدون ليظهروا بعض ما خفي
من أمره حين كان يستجيب لهواه ، وفي ان يتسلسل

عليه خرف القضيحة فيقضي عليه الموت المفاجيء الذي
يعجله عن أيسر التفكير والتدبير ؟

والأمور تخفي بعد ذلك في سر الى غايتها . فقد يصبح
الباشا مديراً لأمور الاسرة بعد ان ظلمت عائلها ، موثقاً
نفسه وابنه بخبر ما تركه الفقيه ، معرضاً هذه الاسرة الى
خبياع الثروة كلها أو أكثرها . ولا بد من ان يصبح بكل
القصة منفذاً لهذه الاسرة البائسة ، وهو ينقذها مستجيباً عليه
الحال من كل غرض ، المبرأ من كل طمع ، ويلقى آخر
الأمر جزاء هذا الصديق والنصح والاخلاص فيضرب الأمر
بينه وبين حبيته الى غير ما يجبان .

على هذا النحو من الدقة والصدق ومن البراعة واليسر
تخفي هذه القصة الإنسانية الرائعة ، وعلى هذا النحو تنتهي
الى حاجتها لا يظهر فيها تكلف ولا يبدو فيها جهد على
كثرة ما أنفق المؤلف فيها من الجهد . حب صادق بحبيبه
حب صادق مثله وتقوم من دونه العقاب التي يعقدها الكيد
ولكن النصح والاخلاص والجد النقي من كل شائبة كل
ذلك ينزل هذه العقبات ، بل يحورها ويليع للحب ان
يناصر والمثل العليا ان تغوز .

ولا كذلك القصة الثانية فالكاتب يعرف كيف يبلوؤها ،
فليس غريباً ان يستكشف في نفسه القصة على الكتابة
أو ان يستكشف غيره له ذلك فيمضي فيما يسر له ، وليس
غريباً ان تستطه الميامة فيمتعجب لها خلصاً صادقاً كسماً

كان غفصاً صادقاً في الحب . وليس غريباً آخر الأمر ان يلتقى من أهوال السياسة وخطوبها ما يلتقى أمثاله فمن المخلصين الصادقين في تلك الأيام الشداد ، وانما الغريب حقاً هو انتهاء القصة إلى غايتها على هذا النحو الذي انتهت إليه ، فهي تبلغ غايتها لجماعة وعن غير ارادة من الكاتب أو استعداد لاتمام قصته ، وهو يعترف بذلك اعترافاً فيه كثير من السذاجة . فالثورة هي التي أنمت هذه القصة السياسية وكانت غليظة ان تنضي إلى غير مدى دون أن تنبسط بشيء جديد أو تظهرنا على شيء غير مألوف :

والثورة قد فجأت الكاتب كما فجأت كثيراً غيره من الناس حتى ظن أنها كرامة من كرامات الحسين رحمه الله لأن داره كانت قرية من مسجد الحسين وكان كثيراً ما يصلي في هذا المسجد وكان لا يمر به إلا قرأ الفاتحة ، وواضح جداً ان الكاتب لم يؤمن في ذات نفسه بهذه الكرامة ولكن الثورة فاجأته وطالت به القصة فلم يحاول للثورة تعليلاً وهذا هو التقصير الذي تأخذه به ونعاقبه فيه .

فالامجاد فريد أبو حديد ليس من عامة الناس ولا هو من أوحاطهم وانما هو من أولي العقل والشفافة والقطنة والرأي ، وهو من غير شك كان يقدر كما كان يقدر أمثاله ان حياة مصر في آخر العهد الماضي لم تكن إطمينية وان اتصالها كما كانت لم يكن ميسوراً ولا محملاً ولا ممكناً ، وكل الذين اتبع لهم مثل ما أتبع للكاتب الأديب من

الذكاء والفطنة والثقافة كانوا يقدرون ان تلك الحياة لا
تستطيع أن تتصل ولا أن تجري على ذلك النحو السذي
كانت تجري عليه ، وكانوا ينتظرون حدثاً خطيراً
ذا بال يغير حياتهم ويردها إلى طريق ادنى إلى الاستقامة
وأقرب إلى القصد وان لم يكونوا يعرفون كيف يأتي
هذا الحدث .

لم تكن الثورة مفاجئة اذن لاولي الفطنة والذكاء والنظر
البعيد وإنما كانت متوقعة مترقبة ، وكان كثير من الناس
يتعجلونها ويتحرقون شوقاً اليها . وكنت أحب للكاتب
الأديب ان يعنى في قصته السياسية هذه بالاحداث الخفية
التي كانت تجري في أعماق الشعب وتهيئه للثورة إن أتاحت
له أسبابها وتهيئه لتقبل الثورة والابتهاج بها ان شب نارها
القادرون عليها .

كنت أحب أن يصور لنا بوّس الجماعات وضيقها بهذا
البوّس وطموحها إلى الخروج منه كما صور لنا بوّس حماده
الاصغر وما ورطه فيه هذا البوّس من النكر والفساد .

وكنت أحب أن يصور لنا سعة الهوة وعمقها بين
الحاكمين والمحكومين حتى كان كل فريق من هذين الفريقين
يمضي ممعناً في طريق غير التي كان الفريق الآخر يمضي فيها
بحيث لم يكن من الممكن ان يلتقيا .

وكنت أحب أن يصور تردد الحكام وضغطهم واضطرابهم
بين هذه الأهواء الكثيرة التي كانت تعبت بالنفوس ، واختلاط

الأمر واضطرابه على الموظفين الذين كانوا يدبرون المرافق العامة ضائقين بتدبيرها زاهدين في هذا التدبير ، يطمع فريق منها فيسرف في الطمع حتى تصبح مناصبهم وسيلة لا غاية ، وتبأس كثرتهم فيلح عليها اليأس حتى تنظر الى العمل نظرة الماقت له ، النافر منه الذي يراه وسيلة الى المرتب الذي يأخذه في آخر الشهر . ولو قد عني الاستاذ فريد أبو حديد بتصوير هذه العلل والآفات التي أفسدت حياة المصريين قبل ان تشب الثورة لعرف انه كان يعمل لهذه الثورة ويهيئ لها ويتعجل وقوعها ويتنظر هذا الوقوع كما يتنظر الساعون الى غاية من الغايات ان يصلوا الى غايتهم ويتعجلون الوصول اليها فاذا بلغوها لم يفجأهم بلوغها ولم يروا ولم يظنوا انه كرامة من كرامات الحسين أو غيره من الاولياء الصالحين .

ولست أخفي على الكاتب الاديب اني كنت أجسد نوعين مختلفين أشد الاختلاف من الشعور حين كنت أقرأ قصته هذه ، أحدهما شعور الغبطة والرضى والشوق الشديد الى المضي في القراءة ، والآخر شعور الفتور والسأم والشوق الى أن أرى الكاتب قد ضاق بمدينة القاهرة واشتاق الى مدينته تلك أو دعاه أي داع للعودة الى دمنهور في قطار الليل أو في قطار النهار لاني كنت أحب أشد الحب ان أعيش معه في دمنهور حيث أشخاصه أولئك الذين تكشف حياتهم لي عن شيء جديد كلما مضيت في القراءة . وكنت

أبعد كثيراً من السأم في أن أعيش معه في القاهرة
لسبب يسير وهو أنني عشت معه في القاهرة أرقائاً
طوالاً وبلوت هذه الحياة التي يصورها حتى مشمتها وضقت
بها . عرفت تحقيق الثبابة وشهود المحاكم وما يلقاه
الصحفيون من الشر في ذات أنفسهم وفي نفوس زملائهم ؟
وعرفت النثر الظاهرة والخفية التي تسعى الى الصحفيين
الصادقين لتنفص عليهم الايام وتورق عليهم الليالي .
عرفت هذه الحياة فلم أكن في حاجة الى ان تعاد علي
قصتها ولم أعرف حياة أولئك الاشخاص في دعتهم - دور ،
فكنت الى معرفتها مشوقاً وبها مشغولاً . ومهما يكن من
شيء فان انتهاء هذه القصة ينبئنا بشيء نرقبه ونعجبه
ولرجو ان يكون أشقى لنفوسنا وارضى لعقولنا على ما
في هذه القصة من متاع ورضى ، فالامتنان فريد أبو حديد
ينبئنا بأن انتهاء قصته هذه انما هو ابتداء لقصة أخرى .
فمتى يتاح لنا ان نقرأ هذه القصة الاخرى ؟ عسى ان
يكون ذلك قريباً .

شهریار

قصة تمثيلية شعرية للاستاذين عزيز أباظة وعبد الله البشير

قرأت في هذه الايام قصتين تمثيليتين موضوعهما واحد وهو شهرزاد ، احدهما للشاعر الفرنسي المعروف جبول سوبرفيل والآخرى للشاعر المصري الكبير عزيز أباظة . وقد كتب الشاعر الفرنسي قصته منذ أعوام تبلغ العشرة أو تكاد تبلغها ومثلت في باريس ولم تظهر من النجاح بما كان ينتظره لها صاحبها ان لم تكن بي الذاكرة . وعنوان القصة شهرزاد ، كما ان شهرزاد هي المحور الذي تدور عليه . أما شاعرنا فقد جعل شهریار عنواناً وبطلاً لقصته . ونهاية القصة عند الشاعرین واحدة . فشهریار يخضع نفسه من الملك فیها جميعاً ولكنه یخلص للحب ولحب شهرزاد خاصة عند الشاعر الفرنسي ، ویخلص للدين والنسك ويهجر الحب

وشهرزاد جميعاً عند الشاعر المصري . وبعد اتفاق القصتين في الموضوع وفي الغاية الى حد بعيد يختلف الشاعران فسيا ابتغيا من وسيلة وما ملكا من طريق لعرض قصتيهما على النظارة واجراء ما يكون فيها من حوار وما يقع فيها من احداث . فأما الشاعر الفرنسي فالفنّ وحده هو غايته وهو وسيلته فهو لا يرمي الى غرض خلقي ولا سياسي ولا يحاول تأديب الناس ولا تهذيبهم ولا يكاد يفكر في بيته التي يعيش فيها ناقداً لها ، ومثنيّاً عليها ، وإنما هو شاعر عرف قصة شهرزاد واراد ان يعرض منها صورة فنية يمنع بها قراءه ونظارته ويرسل فيها خياله الى حيث يريد أو الى حيث يستطيع ، تهذيبه أعلام الفن وحدها ولا تقيدته ظروف خاصة قريبة منه أو بعيدة عنه .

أما الشاعر المصري فالفنّ عنده وسيلة أكثر منه غاية ، فهو يفرض على نفسه قيوداً ثقلاً ، فهو مؤدب للناس مقسوم لآخلاقهم مهذب لطباعهم يحقق الأثم ويغض الفسق ويكسره الفجور ويحرص على ان يكره هذه الخصال كلها الى الذين يقرأون قصته أو يشهدونها . وهو منكر لسياسة قدعة مؤثرة لسياسة جديدة لا يحقق شيئاً كما يحقق الطغيان ولا يؤمن بشيء كما يؤمن بالعدل والقسط وحق الشعوب الكامل في الحرية والعدل وفي الكرامة والمساواة وفي حقها الكامل في ان تحكم نفسها كما تشاء لا كما يشاء السادة والملوك . وهو من أجل ذلك يصور الطغيان في أبشع صوره وابغض مظاهره ويصور ما

يستتبعه هذا الطغيان من ذلة الوزراء والهاشمية واذعانهم
للهمون وتخضوعهم لما يصدر اليهم من أمر لا يراجعونه ولا
يجادلون فيه ، وغلوهم في النفاق واظهارهم بعد ذلك لأنفسهم
وامعائهم في الجشع واغراقهم في كل ما يمحو المروءة
ويزري بالرجولة ويغض من قدر الانسان الذي لم يخلق
للدلة والهوان وانما خلق للعة والكرامة .

وهو يذهب في تصوير هذا كله مذاهب مختلفة ويسلك
اليه طرقاً متشعبة ، ولكنه بعد ان فرض على نفسه كل هذه
القيود أصبح يعيش بيتنا يخوض فيما نخوض فيه ، ويعيد علينا
أحاديث نفوسنا حين نخلو اليها وأحاديث بعضنا لبعض حين
نلتقي وأحاديث ما نقرأ من الصحف مصبحين وممسين
وأحاديث الكتب السياسية والحلقة التي نقرأها بين حين
وآخر .

وهو يتناول هذا كله من قريب ومن قريب جداً ،
لا يبعد في التعمق ولا يعمق في الاستقصاء ولا يحلق في
جو بعيد ، وانما هو في الأرض يتحدث الناس ويحدث المصريين
خاصة عن حياتهم التي يحيونها والتي كانوا يحيونها في بعض
تاريخهم ، يسلك في هذا كله طريق الذين يحبون ان يكون
الأدب للحياة ، وما أرى هؤلاء الا يحبون قصته أشد الحب
ويرضون عنها أعظم الرضى . فهو لا ينأى عن حياتهم الواقعة
قيد أصبح ، وهو حريص أشد الحرص على ان تكون قصته
نافعة للناس في تهذيب أخلاقهم وتقويم سيرتهم ، واصلاح ما

ويكون بينهم من صيلة وانحضاع السهامة ونظامها كلها لها
يكفل مصالحهم ويرضي طموحهم الى حياة ناعمة في ظل
العدل والمساواة والائتاء . وليس هذا كله بالشيء القليل .
وقصة شاعرنا مرآة صادقة لآلام الناس وآمالهم
وحياتهم كلها ما ظهر منها وما بطن . وأكاد أعتقد ان
المحنة التي دارت عليها أحاديث الف ليلة وليلة قد تضاعفت
حتى كادت تستغفي . فشهر يار قد ذاق مرارة الحياة
فقتل زوجه وعشيقها العبد ، وأغري بعد ذلك بالفجور
الاجبر فله كل ليلة عروس وله في كل نهار دم مسفوك
هو دم هذه العروس :

ولكنه لا يكاد يلقى شهرزاد حتى يُصرف عن هذا
الآثم المنكر ، وحتى تصبح شهرزاد طيباً لا تداويه ميسن
هذا الآثم وحده بعد ان صرف عنه ، وانما تداويه من حب
القتل والرغبة في صفك الدماء ، وتداويه كذلك من الطغيان
والجور وتريد ان تخلقه خلقاً جليداً وتجعله ملكاً بلائيم
ما للشعوب من مثل عليا في الحكم الصالح النقي المستقيم .
وقد كف الملك عن قتل النساء ولكنه سريع الى قتل
الرجال جريص على المال ، يرى ان الشعب وما يملكه ملك
بخالص له لا ينبغي ان يجادله في ذلك مجادل أو يصده عن
ذلك صداد ..

شهرزاد فيلسوف سياسي خلقي يريد ان يكف الملك
عن القتل كله ، ويريد ان يرد الملك الى العدل كله ، ويريد

ان يجعله ملكاً حكيماً لا يقرب الشر ولا يميل اليه ..
وهي تسلك الى أغراضها طريق القصص اذا كان الليل ،
وطريق الوعظ والارشاد اذا كان النهار ، وطريق العلاج
النفسي على مذهب المحدثين . عرفت ان في نفس الملك
عقدة جاءت من هذه الحياة الاولى فهي تسليه عنها بالقصص
وعرفت ان الاسراف في ازهاق النفوس وسفك الدماء
دون ان يلومه في ذلك لائم أو يعارضه فيه معارض ، قد
ألقى في روعه أنه صاحب السلطان الاعظم والسطوة التي
لا حد لها ، وانه جبار الارض والسماء ، يقسم أحياناً بعزته
وجلاله . قد نام عنه ضميره ونسي طبيعته الانسانية فأزمنت
أن توظ له هذا الضمير وان تذكره بهذه الطبيعة وان
تذكي في قلبه جذوة الندم . وأتيخ لها النجاح في هذا كله
بعد خطوب وأهوال ، وأتيخ للشاعر نفسه نجاح عظيم في ذلك
الفصل الذي يصور فيه ضمير الملك وقد استيقظ وأخذ
الندم يذو منه ليستقر فيه وجعلت صور الماضي وما كان
فيه من آثام تمر أمامه وتتحدث اليه فتغريه أحياناً وتخيفه
غالباً حتى يثوب الى رشده ، ويعرف نفسه ، ويضع طبيعته
الانسانية حيث وضعها الله ، ويخرج من حياته الآثمة القانية
ليستأنف حياة أخرى نقية صافية بريئة من الشر والآثم
ومن البغي والطغيان .

وشاعرنا قاسم صارم قسوة العدل وصرامته فهو قد أنقذ
الملك وأخرج من حياته تلك البغيضة الى حياة التسلك

والزهد والشطف والعفاف . ولكنه عنف شهرزاد فقرض
عليها الوحدة وفرض عليها الحرمان وفرض عليها الحزن
وتركها تداوي نفسها من آلامها ويأسها بنفس الفلسفة
أو بشيء يشبه الفلسفة التي داوت بها شهریار . فقد ينبغي ان
نذكر ان شهرزاد لم تكن فيلسوفاً مصلحاً فحسب وإنما
كانت امرأة عاشقة ، وقد أتاح لها الشاعر النجح في فلسفتها
واصلاحها وقضى عليها الانخفاق واليأس في حبها . فهي قد
شقيت ليسعد الملك وليسعد الشعب ، وهي جديرة أن تجد
من حكمتها وفلسفتها ونجحها فيما قصدت اليه عزاء عمن
هذا الشقاء .. وهنا يكون الخلاف بين الشاعر المصري
والشاعر الفرنسي . كلا الشاعرين قد انتهى الى غاية واحدة
فخلع الملك من ملكه طوعاً لا كرهاً . ولكن الشاعر
الفرنسي أرضى الحبيبين فأخلص الملك لشهرزاد وأخلصت
شهرزاد للملك ، أما شاعرنا نحن فقد أخلص الملك لله وأخلص
شهرزاد لليأس والبكاء ولم يرد ان يريحنا وان يظهرها لنا
راضية قد وجدت في سعادة الملك والشعب عزاءً وأملًا ،
وبين الشاعرين اختلاف آخر ، فالشاعر الفرنسي يكتب قصته
نثراً أو قل يكتبها شعراً مثوراً ولا يكاد يعمد للشعر
المنظوم الا قليلاً ، وهو من أجل ذلك لا يشق على
نفسه ولا يشق على الناس ولا يشغلهم عن قصته بأوزان
الشعر وقوافيه . وقد قلت انه يكتب قصته شعراً مثوراً
فهو يستجيب لخياله ويمضي معه الى حيث يريد ، ويخرج معه

لا على قيود الشعر وحدها ، بل على قيود الحياة الواقعة أيضاً .
ففي قصر الملك ساحرة تصنع الاعاجيب ، ولا يعجزها
حتى ان تنقل قصر الملك واهله من بغداد حيث تقسح
أحداث القصة الى أقصى الشرق حيث يحكم أخوه ولا
يعجزها كذلك ان ترد القصر وما فيه ومن فيه الى موضعه
من بغداد بعد ان يستيقظ ضمير الملك وتثوب اليه نفسه
وتشمله العافية والشفاء .

تفعل هذا كله في طريقة عين دون ان تجد مشقة أو
جهداً لأنها ساحرة ولأن صاحب القصة شاعر يستجيب للفن
أكثر مما يستجيب لقيود الحياة الواقعة .

أما شاعرنا فقد ملك قصته كلها شعراً منذ تبدأ الى ان
تنتهي ، وكلفه ذلك وكلف قراءه ونظارته ثقلاً ثقيلاً .
والاستاذ عزيز أباطه يعرف رأيي في التمثيل الشعري في
هذه الايام كما يعرفه غيره من القراء ، وهو يرد على رأيي
هذا في مقدمة قصته بعد ان رد عليه فيما مضى رداً مطولاً
منصلاً ولكنه لم يقنعني الآن كما لم يقنعني من قبل ، وما
أريد ان أعيد القول في هذا الخلاف بينه وبينني ، وانما
أريد ان أقف عند شعره في هذه القصة وقفة قصيرة لا أشق
فيها عليه ولا على القراء .

هل استقام الشعر للشاعر في هذه القصة كما يريد هو
وكما نريد نحن ؟

أما أنا فأشك في ذلك شكاً بعيداً . فالقصة قد طالت

واختلقت أحداثها ومناظرها وألوان الحوار فيها وطبقات
الناس الذين شاركوا في هذا الحوار وتلك الأحداث . ولم
يستطع الشعر ان يثبت لهذا كله ثباتاً متصلاً متسقاً ويحتفظ
بما ينبغي له من السمو والارتفاع ، وانما اضطر أحياناً الى
ان يهبط قليلاً . وانظر مثلاً الى حديث الجوقة في مطلع
القصة ، ولتلاحظ بين قوسين كما يقال ان الشاعر ادار
الحوار بين أفراد الجوقة والأصل ان تصور الجوقة شخصاً
واحداً وان يتحدث عنها رئيسها وان تغني مجتمعة بسين
حين وحين .. وربما أضافت الى الغناء شيئاً من رقص
توقيعي كما كان يصنع القدماء . ولتقل القوسين كما يقال
ايضاً ولتنظر الى حوار الجوقة . فهذه فتاة منها تبتدىء
القصة بهذه الايات :

وهكذا يطوى سجل الحياة

في ذلك القصر المقيت الرهيب

بين معار يتمادى لظاه وشقوة تطغى ودمع صيب

الهل مضروب علينا مطاه والقلق الاسود ملء القلوب

فانظر اليها في البيت الأول تتحدث اليها من قصر
الملك نفسه في هو من أبهائه فهي قريبة منه كأدنى ما
يكون القرب لانه يحتويها ، ولكنها تشير اليه اشارتها الى
الشيء البعيد فتقول في ذلك القصر لا شيء الا لان الوزن
لم يستقم الا على هذا النحو من انحاء الاشارة :

وانظر الى البيت الثاني في السعار الذي يتأدى لظاه ،
فالتأدي هنا أقامت وزن البيت لا أكثر ولا أقل . وانظر
الى المطي في البيت الثالث والى موقعه من السامعين
والقارئ في هذه الايام ، والى ما يشعر به من هذه
الاستعارة التي يشبه فيها الذل بناقة لها ظهر وقد تمطى
فيمتد ظهرها ويطول كأقصى ما يكون طوله . ومما
جاءت هذه الكلمة الا لتقيم القافية التي التزمها الشاعر في
الشطور الأولى لهذه الايات :

الحياه .. لظاه .. مطاه

وانظر الى هذا البيت من حديث الفتاة الثانية :

الذئب ! أين الذئب من شهريار

هه لا يشب الوثبة الا بدم

وما أرى اتي في حاجة الى أن أنيبه الى قلبي
هذا الدم في موضعه من القافية مع هذه الباء التي جاءت
لتيم وزن البيت .

وانظر الى هذا البيت الأول من حديث الثالثة :

الموت حق : والبرايا فوان ...

لكن قتل النفس خطء كبير ..

الموت حق كل الناس يعرف ذلك وكسل الناس
يقوله ، فهذه العجوز لم تعلم شيئاً وكلمة « الفواني » هنا
تأية بما في ذلك شك في آذان كثير من النظارة : وقتل
النفس خطء كبير جملة قرآنية : ان قتلهم كان خطئاً

كبيراً .

فهذه العجوز تتكلم بما يتكلم به الناس جميعاً ولا تنسى
إلا شيئاً واحداً وهو أنها تتحدث عن لسان شاعر لا عما
استقر في نفسها كما استقر في نفوس الناس جميعاً...
وأستطيع أن أمضي في مثل هذا النقد الى غير مدى
ولكنه على ذلك نقد يسير . فقد اضطر الشاعر الى أن
يتحدث الى الناس فتحدث اليهم بما يعلمون وبما يرددون
أكثر مما تحدث اليهم بما ليس لهم به علم أو عهد . ولكن
هناك شيئاً آخر لا يختص به شاعرنا وإنما يشاركه فيه غيره
من الذين يقصون التمثيل شعراً وهو هذا التنقل السريع الكثير
الممض بين أوزان الشعر المختلفة وبين القوافي التي لا تحصى ،
يلترم الشاعر وزناً من الالوزان وقافية من القوافي ثم لا
يلبث ان يضيق بالوزن والقافية أو ان يضيق به الوزن
والقافية ، فيشب الى بحر آخر من بحور الشعر والى قافية
أخرى من القوافي . فأنت بين سرعة وبطء ، وبين صعود
وهبوط ، وبين حركة ومكون ، لان أوزان الشعر تقتضي
هذا كله لكل وزن منها ما يلائمه . فالتنقل بينها في الموقف
الواحد في الحوار الواحد فيه انحراف عن الموسيقى ينفسر
منه السمع وتضيق به النفوس .

ولست أدري ما يمنع الشعراء الممثلين من ان يرمحوا
أنفسهم من القوافي فيضعوا عنها ثقلًا ثقيلاً قد سبقوا الى
التحرر منه منذ زمن طويل . ولم لا يلتزمون في كل فصل

من فصول قصصهم نطأ بعينه من الشعر حتى لا يزعجوا السامع
بهذا الصعود والهبوط ، وبهذا العدو والسكون في الوقت
الذي يريد ان يفرغ فيه لجمال الشعر وما يريد الشاعر ان
يلقي في نفسه من المعاني .

ولم يلائم الشاعر بين الوزن والقافية والموضوع الا
حين أنطق المفتي برجز المتون هذا الذي تحدث به فاحش
الحديث وأضحك قراءه وسامعيه .

وتمصيل النقد للقصة يطول وما أظن ان الصحف اليومية
تمتع له ، ولكني أحب آخر الامر ان أهدي الى الشاعر
ولزميله أصدق الشكر لتفضلها عليّ باهدائها القصة اليّ .
وأحب بعد هذا كله ان أثني على ما بذل شاعرنا
الكبير من جهد ضخم خصب ان لم يتح له فيه التوفيق
كله فقد أتى به منه شيء كثير .

صح النوم

قصة رمزية للإستاذ يحيى حقي

لو كتبت هذه القصة قبل سنين لكانت جليماً جميلاً رائع الجمال .. ولو كتبت بعد سنين لكانت تاريخاً صادقاً دقيقاً .. ولكنها كتبت في هذه الأيام ، فاحتفظت بجمال الحلم وروعة جماله وأخطأها التأويل الصادق الدقيق لهذا الحلم الرائع الخلاب .. وكذلك شأن الكتاب المجودين ، يحلمون دائماً وترتقي أحلامهم في كثير من الأحيان الى حيث تبهر وتروع ، فاذا حاولوا تأويل أحلامهم وقفت الحقائق الواقعة حائلاً بينهم وبين ما يحاولون ، وكذلك شأن الحياة الاجتماعية مع القصص دائماً بحسن فهمها في أحلام الليل ، فاذا انجلت عنها الظلمات وغمرها نور النهار المطلق فأظهر أجزاءها مفصلة وكشف دقائقها من جميع

أقطارها ، ظهر الأمد بين حقائقها الواقعة وبين الصور التي
عرضتها الأحلام البعيدة إلى أقصى غايات البعد . والقاص
البارع شاعر يعرض علينا شعره مثوراً فيروعنا ويسحرنا ،
ونخبر له ألا يهبط من سماء الشعر إلى أرض الحياة الواقعة
لأنه يوشك أن فعل أن يجعل شعره الرائع نظماً لا
جمال فيه .

والاستاذ يحيى حقي قاص شاعر في قصصه ما في ذلك
شك ، قد أقام على ذلك فيما قدم من قصصه أدلة لا يعرض
لها الشك ، وهو فيما سبق من قصصه قد بدأ أحلامه في
الأرض ثم ارتقى بها في الجو قليلاً قليلاً حتى بلغ مواطن
الشعراء فوق السحاب ، ولم أنس قصته الرائعة التي نشرت
في الناس منذ أعوام طوال : « قنديل أم هاشم » .

ولكنه في قصته هذه الأخيرة بدأ حلمه في مواطن
الشعراء فوق السحاب ، ثم جعل يتزل به شيئاً فشيئاً حتى
وصل إلى مواطن الناس ، والحمد لله على أنه قد وصل إلينا
سالمًا موفوراً لم يهض جناحاه ولم يتركها هذا الأعياس
الذي يمنعها من التصعيد مرة أخرى أو مرات أخرى في
طبقات الجو ، ليحلم هناك أحلامه الشائقة الممتعة .

ولو قد كان الاستاذ يحيى حقي شاعراً بالمعنى الدقيق
لهذه الكلمة لكان من الشعراء الرمزيين الذين يرتفعون بفنهم
عن هذه الصراحة الصريحة إلى هذه الصور المجيدة التي تشرق
وتبرق بما يحيط بها من الغيوض والتي تخيل اليك أنها

قرية منك لقوة حظها من الصدق ... فاذا حاولت ان
نحققها في نفسك أو تناولها بيدك نأت عنك نأياً بعيداً ، فهي
ثانية نائية وهي يسيرة عسيرة وهي تخليك وتصيبك بهذا
لقرب البعيد نفسه .. تمنيك حتى تملكك وتطمعك ثم
توثسك ، وتعلقك في هذه المترلة الحبيبة الى النفوس بين
لرجاء والقنوط .

وقد طوف كاتبنا الاديب في أقطار الارض وأقام
في فرنسا حيناً من الدهر . وهو من الذين لا ينفقون حياتهم
بما لا يغني عقولهم وقلوبهم ولا تشغلهم الحقائق الواقعة التي
زدحم حولهم في كل يوم عن ان يفرغوا بين حين وحين
لـ يغلو العقول والقلوب ويمتع الطباع والأذواق من
وائع الادب والفن والموسيقى ، وهو من أجل ذلك يمتاز
بن كتابنا بالميل الظاهر الى الرمزية في الادب .. فهو حين
تكتب قريب الينا وغريب فينا على نحو ما .

وقصته هذه أصدق مظهر لقربه وغربته جميعاً .. فهي
تنقسم الى قسمين مختلفين أشد الاختلاف .

تقرأ القسم الاول منها فيمتعك ما فيه من رمز ومن
قوة في التصوير ومن تعبير يسير حلوا عما يريد ان يصور
ك . ولكنك تحس في الوقت نفسه شيئاً من الغربة في
لذه البيئة التي يعرضها عليك . فهذه القرية التي يصفها
التي يعيش فيها ويحب اليك ان تعيش فيها معه مصرية اذا
ظرت الى دورها وما يصور لك من مظاهرها من الحقول

التي تحيط بها والقناة التي تجري منها غير بعيد . وهي مصرية
لأن أهلها يتكلمون لغة المصريين ، وتجري على ألسنتهم بين
حين وحين جمل مصرية شعبية من هذه التي نألفها عند
أوساط الناس في الريف .. ولكنها على ذلك بعيدة عن
مصر كل البعد بهذه الحانة التي تقيم فيها ، والتي اتخذها
أهل القرية مثابة لهم يستريحون فيها ويستريحون إليها إذا
أوشك النهار أن ينقضي بعد أن يفرغوا من أعمالهم :

فلما نعرف في قرانا حانة تشبه هذه الحانة التي صورها
الكاتب لنا ، ولما نعرف من أهل الريف المصري من
يخلص لصناعة صاحب الحان ، ولا من يفرغ له من الجماعات
منذ يقبل المساء حتى يتقدم الليل ... وبناء الحانة نفسه
غير مألوف في قرانا ... هذا البناء الذي تقام الحانة في
أسفله ويسكن صاحب الحانة وزوجه في أعلاه ، وتفرغ
ربة البيت لتدبير الحانة وترتيبها إذا أسفر الصبح ثم تعود
إلى بيتها لتفرغ فيه إلى واجباتها المنزلية :

كل هذا لا نعرفه في قرية مصرية ، ولكنه مألوف كل
الآلاف في كثير من القرى الفرنسية والإيطالية . والمترددون
على الحانة أنفسهم من أهل القرية مصريون فيما يبدو من
أشكالهم وصورهم ولغاتهم ، ولكن أطوارهم وأخواقهم وأعمالهم
وما يدبرون بينهم من حديث كل ذلك أجنبي قد نقل إلى
مصر نقلاً ... نقل من فرنسا أو نقل من إيطاليا
أو نقل من أي من هذه البلاد التي أقام فيها

الامتنان يحى حقي إقامة طويلة أو قصيرة ... وإذكر اني
جمعت ذات يوم ان اسعى في ان يعم الراديو قراينا المصرية
ليكون أداة من أدوات الثقافة وصلة بينهم وبين ما يقع
من الاحداث في القاهرة ... فتحدثت في ذلك الى بعض
أهل الريف ، فسمعوا مني ثم ضحكوا لي وقال قائلهم :
اين نحن من الفراغ للراديو : وانما نحن عاملون في حقولنا
منذ يسفر الصبح الى ان تخرج الشمس الى الغروب ،
فاذا رجعنا الى اهلنا اختطفنا عشاءنا اختطافاً ثم أومئنا الى
فراشنا لنستريح من كد النهار الى نوم الليل .

وهذا الفنان الذي هام بالموسيقى حتى يش منه أبوه
صاحب العربة التي يجرها فرس واحد ، وكل هؤلاء الأشخاص
الذين عرضوا علينا من الرجال والنساء ليس بينهم وبين
ريفنا المصري إلا اسباب واهية ضئيلة لا تكاد تستمسك .
وليكني على ذلك كله ، قرأت هذا القسم من القصة
مستمتعاً بقراءته أعظم الاستمتاع وأقواه وأصفاه لأني
قطعة من الادب الممتاز الرائق حقاً ... قد لا يطابق
الواقع من الحياة المصرية كل المطابقة ولكنه بشر إليها
من بعيد ، ويكسبه هذا شيئاً من الجمال الفني لا سبيل الى
مقاومته بشرط ان يكون لقارئه حظ من المشاركة في
الثقافة والادب والفن وعلم بشؤون الحياة في غير مصر .
ولست أخفي اني قرأت هذه القصة ثلاث مرات وباعدت
بين هذه القراءات المختلفة متعبداً فلم ينقص اعجابي بهذا

القسم الاول منها وعسى ان يكون قد زاد .
وليس هذا القسم وصفاً للقرية واهلها فحسب ولكن
فيه فوق ذلك قصصاً مؤثرة حقاً ، نقرأه فتتحقق له قلوبنا
وتهتز له نفوسنا ، ونفكر في كثير من القصص الساذج
العميق الذي نقرأه لبعض الكتاب الغربيين ... فهذه الفتاة
السمراء التي خلقت للحب تدفعها اليه عواطف ثائرة يظهر
عليها الهدوء ، ونفس جامحة تظهر عليها الدعة ، واحساس
بالبوّس يعطفها على الذين يشاركونها فيه .. واذا هي تشفق
عليهم ثم تقنّ بهم ثم تمنحهم حياتها كلها ... وهذا القضايب
الذي رق قلبه وصفت نفسه وكرم طبعه فارتفع عما ألق
الناس من الاثرة والجموح في الذود عن هذه الاثرة
واطمانت نفسه الى حب الخير والرفق بالضعيف والبر بأولي
القربى حتى تجاوز عن كثير مما لا يحب الناس ان
يتجاوزوا عنه .

كل هذا وكثير غير هذا قد صور في هذا القسم من
القصة أقوى تصوير وأصدق وأبلغه تأثيراً في النفوس ،
والاستاذ يحيى حقي يعرض علينا هذه القرية بما فيها
من الفقر والبؤس والتعزي عن آلام الحياة بما في الحانة
من ألوان الشراب وبما في أهلها من اختلاف الامزجة
وتباين المذاهب وتناقض الميول ، يعرض علينا هذا كله
ليرسم لنا قرية بائسة شديدة الحاجة الى الاصلاح ، ولينمّح
لنا بأن مصلح هذه القرية ليس بعيداً عنها وانما هو قى من

أبنائها يقيم في القاهرة منقطعاً للدرس والتحصيل والتفكير
أيضاً في شأن قريته وهو الامتاز كما يسميه أهل القرية ..
ويعود الامتاز الى قريته فيبدأ القسم الثاني من القصة ،
ويتنزل الكاتب من مكانه ذاك البعيد في الجو الى الارض
التي يعيش فيها الناس . وفي هذا القسم يعرض علينا تأويل
حلمه الجميل .. فهو كان يتمنى لهؤلاء البائسين من أهل
القرية ان يخلصوا من البؤس وان تزول عنهم أسبابه ،
وان تفيض في قريتهم ينابيع الفساد ، وتنفجر فيها ينابيع
الاصلاح . فيأكل الجائع ويكرم المهين ويعز الذليل وتصفو
الناس وتطهر القلوب مما غشيها من الدنس والرجس ، وتبرأ
الطباع من الكسل والعجز والخنوع ، وتجري في القرية حياة
نقية راقية ليس فيها مكان لعاجز ولا لخامد ولا لمنحرف ..
وقد غاب الكاتب عن القرية حيناً ثم عاد اليها فرأى
المعجزة ورأى تأويل حلمه الجميل . ولكنه على ذلك رأى
بين أهل القرية أفراداً من الساخطين والطامعين والمناققين ،
ورأى فيها كذلك فلاسفة قد مستهم الاحداث بعصبي
ساحرة فأصبحوا حكماء يقبلون الحياة كما هي ويرضون
بمخطوئتهم منها ، فقد أصبح صاحب الحانة فيلسوفاً يعيش بين
القبور ويستمد فلسفته من دفن الموتى وملاحظة ما يصيرون
اليه من البلى ، وهو يتحدث عن الحياة والموت حديث
الفلاسفة الذين تعمقوا أسرار الحياة ، وأصبح القصاب ناسكاً
يجد أمن القلب وهناء النفس ورضى الضمير في الصلاة

والعفو عن ابداء الناس له ومكرهم به واطلاق ألسنتهم فيه .
ويتحدث عن الصلاة حديث المتصوفين الصادقين . وأصبح
سائق العربى سؤلة قد لزم باب المسجد يتلقى
من الناس بعض ما يتصدقون به عليه راضياً بحياته هذه
رضى الرهبان الذين يجدون النعمة في تكف الناس .
والاستاذ بالطبع هو محدث هذه المعجزة ولكن المعجزات
على خطرهما ومهما يكن شأنها لا تخلق الناس خلقاً جديداً
ولا تمحو مشكلات الحياة محو تاماً .. واذا كان الاستاذ
يحبى حقي قد عرض علينا في القسم الاول من قصته حلماً
جَمِلاً رائعاً وصوره تصويراً دقيقاً بارعاً ، فهو قد عرض
علينا في القسم الثاني منها تأويلاً لهذا الحلم وبرناجاً من
برامج الاصلاح .

وواضح ان قريته تلك هي مصر ، ولا غرابة اذن في
أن تكون فيها الحانة والعاكفون عليها من الناس .
وواضح ان محدث المعجزة هو قائد الثورة وأصحابه
وأعدائه .. وواضح آخر الامر أن الكاتب يريد ان يرضينا
عما تم في مصر من الاصلاح ، ويعزينا عما لا يزال فيها
من آثار الضعف وبقايا الفساد لان باريس لم تب في يوم
واحد كما يقول الفرنسيون . ولكني لا أكنم الكاتب الاديب
اني أؤثر حلمه الرائع الجميل على برناجه في فلسفة الاصلاح
لاني أجد في حلمه أدباً رفيعاً بارعاً ولا أجد في برناجه
الا كلاماً نقرأه في كل يوم . وتعليل ذلك هين يسير ، فلم

يأتى للثورة المضرة بعد أن تكون موضوعاً للقصاص الأدبي
الرفيع لأنها ما زالت قائمة لم تبلغ غايتها بعد .. فتحن
نشهدنا ولا نحلم بها ، ونحن اذا تحدثنا عنها آثرنا النصيح
الضادق والمشورة الخالصة وأخذنا أنفسنا بألوان من القصد
قد لا يألها الخيال .

وأنا مع ذلك حريص أشد الحرص على ان أهنيء
الكاتب الاديب بقصته وأتمنى ان يذهب بعض شبابنا مذهبه
في أحلامه وفي تصويره البارع لهذه الاحلام ...
وفي القصة بعد ذلك هنات لغوية ما ارى الا ان
الكاتب قد غفل عنها حين صحح تجارب الطبع ، وما أشك
في أنه سيستبدها في طبغاته المقبلة ان شاء الله ، وحسبه انه
كتب قصته بلغة فصيحة نقية ليس فيها شيء من الابتذال .

مِنْ تَارِيخِ السِّعْرِ الْعَرَبِيِّ

هذا كتاب في تاريخ الادب العربي ، قرأته كما تعودت ان أقرأ أمثاله من الكتب التي تعرض للأدب العربي وغيره من الآداب الاخرى ، ولكني لم أقرأه بعقلي وحده كما تعودت ان أقرأ كتب التاريخ الادبي ، وانما قرأته بعقلي وقلبي وشعوري ، وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التي تثور في نفس الشيوخ حين يستحضرون اطرافاً من حياتهم في عصر من عصور شبابهم الاول .

عواطف هذا الحنين الى شيء لا سبيل اليه او الى أشياء لا سبيل اليها ، وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع في تحقيقه ، وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذي لا سبيل الى استدراكه ولا الى انقضاء

ما يثيره في النفس من المفضض واللوعة والأسى .
ثم عواطف الانس بتلك الآمال العذاب السني طالما
تعلقت بها النفس واثقة مطمئنة والتي صدقت ولم تكذب
وتحققت ولم تخب ، فملأت القلب غبطة وبهجة وسروراً
وأعانت على العمل والجد والكد والنشاط واتاحت لكثير
من المني ان تحقق ثم انقضت ، وانقضت أيامها فأصبحت
وكانها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة السني
أثارته وأثارت الرضى به ثم مضت الى غير رجعة ومضى
معها حلمها ذلك السعيد .

نعم هذا كتاب يتجه الى العقل لأنه يؤرخ عصرآ من
عصور الشعر العربي القديم ، ولكنه بالقياس الي والى نفر
من رفاقي في ذلك الجيل الذي مضى يتجه الى القلب أيضاً
لأنه قطعة من شبابنا ، ولأنه يصور لونآ من ألوان تلك
الحياة التي كنا نحياها في أول هذا القرن والتي لا يحياها
الشباب الآن بعد ان تغيرت الحياة المصرية وذهبت معالم
تلك الحياة القرية البعيدة واصبحنا لا نستطيع ان نستحضرها
الا بالذكرى ، حينما تتيح لنا الحياة الحاضرة واعمالها
وأثقالها ان نخلو الى نفوسنا ونفرغ لذكرياتنا ، وما أقل
ما تتاح لنا الخلوة الى النفوس وما أندر ما يتاح لنا هذا
الفراغ الى الذكريات .

نعم وهذا الكتاب لا يتجه الى هذه الناحية وحدها
من نواحي قلوبنا وحياتنا في أول الشباب ، وانما يتجه الى

ناحية أخرى هي ناحية الحب الرفيع النقي الكريم الذي لا تشوبه نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التي تتعلق بحب الانسان للانسان فتفسده أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء . ذلك هو حب الشباب الطامع الطامع المتطلع للاستاذ الذي يرضي الطموح والطمع والتطلع ويخرج النفوس عن أطوارها ويرفعها الى حيث تستطيع نفوس الشباب ان ترقى اليه من منازل الاكابر والاعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا ، لا يصدها عن ذلك صائد ، ولا يردها عنه راد ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التي تملأ حياة الشباب على اختلافها وتباين أشكالها وألوانها . هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي سمعناه في أول شبابتنا في تلك الجامعة المصرية القديمة من أستاذنا الايطالي العظيم كارلو فالينو منذ أربعة واربعين عاماً .

في ذلك الوقت كنت طالباً في الازهر أقيم في ذلك الحى الذي وصفته في كتاب الايام والذي زرته منذ حين لأحدث به عهداً ولأظهر عليه صديقاً لي من أساتذة مدرّيد ترجم كتاب الايام وشاقه هذا الحى فاراد ان يراه ، فلم نكد نلمّ حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم حتى رأيت هذين البيتين يترددان في نفسي :

يا دار مية بالعبياء فالسند

أقوت وطال عليها سالف الامد

وقفت عليها أصيلاً كي أسأئلهما

عيت بجوابا وما بالربع من أحد

نعم أشهد لقد أقوت ولقد طال عليها سالف الأمد
ولقد سألتها فلم تجب ولم أجد فيها أحداً يستطيع أن
يجيب . وما أذهب في هذا مذهب المجاز وإنما هو مذهب
الحق الذي يستطيع الناس جميعاً أن يروه إذا ذهبوا الى
هذا الحي ورأوا فيه تلك الاطلال التي عبث بها الزمان
وأهملها الانسان وخلي بينها وبين البلى والحراب .

كنت أعيش في ذلك الحي أخرج منه مصباحاً الى
الازهر فأسمع فيه دروس الادب من الاستاذ العظيم السيد
علي المرصفي ، واخرج منه مع المساء الى الجامعة المصرية
فأسمع فيها دروس الادب من الاستاذ العظيم كارلو نالينو
وكانت دروس الادب تلك التي كنت أسمعها في الازهر
حين يرتفع الضحى تردني الى حياة الطلاب القدماء الذين
كانوا يختلفون الى العلماء في مساجد البصرة والكوفة وبغداد .
وكانت دروس الادب التي كنت أسمعها في الجامعة
حين يقبل المساء تدفعني الى حياة الطلاب الذين يختلفون
الى الجامعات في روما وباريس وغيرها من المدن الجامعية
الاوروبية الكبرى ، فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه
النهار ، وأعيش مع الحاضر الاوروبي الحديث آخر النهار ،
وتشغلي خطوط الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك
الوقتين ، وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ما كنت

أجد . ويسعدون حين يعودون الى الماضي ويسعدون حين يدفعون الى الحياة الغريبة التي كانوا يتطلعون اليها . ويشقون بين ذلك بالركود والجمود .

وينبغي ان يتصور القراء من الشباب المعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الازهر في أول القرن . حياتهم المادية وحياتهم العقلية أيضاً . وان يقدروا ما كان يملأ قلوب بعضهم من الرضى والغبطة ، وهذا الغرور الخلو البريء الذي كان يمازج نفوسهم تلك الغضة المتواضعة حين كانوا يدفعون من حي الازهر الى حي قصر النيل ، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الازهر متربعين على الحصر البالية ، ثم يجلسون اذا كان المساء الى اساتذتهم في غرفات الجامعة لا يتربعون على الحصر وانما يجلسون على الكراسي الى تلك الموائد الصغار . وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تلقى في تلك الاوقات وبأيديهم ملازمهم تلك العتيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب ويسمعون لما يلقي عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل . فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون . فاذا كان المساء جلسوا الى اساتذتهم أولئك من الاوربيين فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها تلقى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شيء من التواء الالسنه بهذه اللغة ، فتقع تلك الاحاديث من آذانهم موقع الغرابة ومن قلوبهم موقع الماء من ذي

اللغة الصادي .

فاذا دخلوا الى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار وما يسمعون وما يرون آخر النهار . فاثارت هذه الموازنة في نفوسهم عواطف واهواء وميولاً أقل ما توصف به انها كانت تصور لهم هذه الآمال البعيدة الى أقصى غايات البعد بين قديم سقيم ستموه وضاقوا به ، وبين جديد أحبوه ونهالكوا عليه .

ووازنوا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعربون الا حين يقرأون في الكتب ، فاذا تكلموا غرقوا واغرقوا طلابهم في اللغة العامية الى أذقانهم أو الى آذانهم ، وبين أساتذتهم أولئك الاورويين الذين كانوا يعربون حين يقرأون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث . وكانوا يسألون أنفسهم كيف أتبع لهؤلاء الاورويين ما أتبع لهم من العلم بأمرار اللغة العربية ودقائق آدابها وكيف لم يتبع هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الاجلاء .

وكانت هذه الموازنات تثير في قلوبهم فتوناً من التمرد وتدفق نفوسهم الى ضروب من الثورة والجموح . وكان هذا كله يعرضهم لكثير من الشر ، وحسبك انهم كانوا مقسمين بين الازهر القديم والجامعة الجديدة .

وكان هذا يجعل حياتهم قلقاً كلها ، وأي شيء أجدى على النفوس الشابة من هذا القلق الحصب السذي هو

الاساس المتين لكل تطور منتج في الحياة العقلية والمادية
جميعاً ؟ وما أظن حياة الشباب المطربشين الذين كانوا
يختلفون الى الجامعة الا مشبهة من كثير من الوجوه لحياة
زملائهم المعتمدين .

من أجل هذا كله يستطيع القاريء المعاصر ان يقلر
ما كان للجامعة المصرية القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من
تغير خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال الشباب .
أما أنا فقد سجلت غير مرة وأسجل الآن اني مدين
بحياتي العقلية كلها لهذين الاستاذين العظميين : سيد علي
المرصفي الذي كنت أسمع دروسه وجه النهار ، وكارلو
تالينو الذي كنت أسمع دروسه آخر النهار .

أحدهما علمني كيف أقرأ النص العربي القديم وكيف
أفهمه وكيف أتمثله في نفسي وكيف أحاول محاكاته ،
وعلمي أحدهما الآخر كيف استنبط الحقائق من ذلك
النص وكيف ألائم بينها وكيف أصوغها آخر الامر علماً
يقرأه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئاً ذا بال .

وكل ما أتيتح لي بعد هذين الاستاذين العظميين من
الدرس والتحصيل في مصر وفي خارج مصر فهو قد أقيم
على هذا الاساس الذي تلقيته منهما في ذلك الطور الاول
من أطوار الشباب . بفضلها لم أحس الغربة حين أمنت
في قراءة كتب الادب القديم ، وحين اختلفت الى الاساتذة
الاوروبيين في جامعة باريس ، وحين أمنت في قراءة كتب

الادب الحديث .

فلا غرابة اذن في ان تكون حياتي كلها بـسراً بهذين الاستاذين اكباراً لهما واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا الي من معروف وما أسديا إليّ من جميل . وشهد الله ما قرأت في كتاب ولا حديث ولا حاولت كتابة في الادب الا ذكرت أحدهما أو كليهما وارسلت اليهما من أعماق نفسي تحية الحب والاعجاب والشكر والوفاء .

والذين يقرأون هذا الكتاب الذي أقدمه اليوم السـى القراء المتأدبين يحسن بهم ان يقرأوا ما كان يدرس لشبابنا في ذلك الوقت من ادب في معاهدنا ومدارسنا على اختلافها ليقلروا الفرق الهائل بين ما كان الاستاذ نالينو يلقي علينا في الجامعة وبين ما كان يلقي علينا في المعاهد والمدارس واثـر هذا الفرق في تطور حياتنا العقلية وفي تطور تصورنا للادب العربي قراءة وفهماً وانتاجاً .

فلاول مرة درس لنا الادب العربي درساً منظماً والقي في روعنا ان الشعر العربي لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً ورثاء ووصفاً وهجاء ونسيباً وتشبيهاً فحسب . وانما يختلف باختلاف موضوعاته التي قيل فيها وظروفه التي أحاطت به حين قيل والمؤثرات المختلفة التي أثرت في قائله وفي سامعه أيضاً . ولاول مرة القي في روعنا ما كان للسياسة من آثار دقيقة عميقة في نشأة فنون مختلفة مـسن الشعر العربي في العصر الاسلامي أيام الخلفساء الراشدين وأيام بني أمية .

ولأول مرة ألقى في روعنا الفرق بين الشعر التقليدي وبين الشعر الذي استحدثته السياسة الإسلامية في العراق ، وبين النسيب التقليدي القديم والغزل الذي استحدثته النظام الاجتماعي الإسلامي في الحجاز ، وبين الغزل المحقق الذي نشأ في حواضر الحجاز ، والغزل العذري النقي الذي نشأ في البادية العربية في الحجاز ونجد والعراق .

ولأول مرة عرفنا ان من الممكن ان ندرس الادب العربي على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى ، وان الحياة الانسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما يختلف عليها من الخطوب .

ولأول مرة علمنا كيف نحقق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة الأخرى ملائمين بين ما ينبغي ان نلائم بينه ومخالفين بين ما ينبغي ان نخالف بينه من الظواهر المتباينة التي يذخر بها التاريخ والتي تؤثر في حياة الناس .

ثم لأول مرة تعلمنا ان الادب مرآة لحياة العصر الذي ينتج فيه لأنه اما ان يكون صدى من أصداؤها ، واما ان يكون دافعاً من دوافعها فهو متصل بها على كل حال وهو مصور لما على كل حال ، ولا سبيل الى درسه وفقهه الا اذا درست الحياة التي سبقته فأثرت في انشائه والتي عاصرتة فتأثرت به وأثرت فيه ، والتي جاءت في اثر عصره فتلقت نتائجها وتأثرت بها . فللأدب مظهران اذن ، مظهره

الفردى لانه لا يستطيع ان يبرأ من الصلصة بينه وبين
الاديب الذى انتجه ، ومظهره الاجتماعى لان هذا الاديب
نفسه ليس الافرداً من جماعة ، فحياته لا تتصور ولا تفهم
ولا تحقق الا على انه متأثر بالجماعة التى يعيش فيها ، هو فى
نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن ان يكون أدبه الا
ظاهرة اجتماعية .

كل هذا سمعناه وفهمناه فى تلك اللروس التى كان
الاستاذ نالينو يلقيها علينا حين كان هذا القرن فى العاشرة
من عمره . وكل هذا كان جديداً بالقياس اليها فى تلك
الايام ، وبالقياس الى الازهرين هنا بنوع خاص ، فمن
الطبعى ان يحدث فى نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى
وان يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث .

وليس من شك فى ان حقائق التاريخ الادبى العربى
قد تغيرت منذ ذلك الوقت فى كثير من انحاءها وفى كثير
من تفصيلها كذلك .

وليس من شك أيضاً فى ان العلماء المصريين كان لهم
أعظم الاثر فيما حدث من هذا التغير ، فهم قد تعمقوا
دراسة الادب أثناء هذه الاربعين سنة الاخيرة فاستكشفوا
أشياء لم تكن معروفة فى حياة الادب العربى أثناء القرون
الاولى للهجرة وهم قد نشروا آثاراً قديمة لم تكن قد
خضعت لبحث العلماء فيسروا للباحثين درسها وفقهها
واستكشفوا ما كانت تخفى من الحقائق ، وهم بعد ذلك

قد كسبوا بالدراسات الادبية المصرية منزلة لها قيمتها
خطرة في الدراسات العالمية لادبنا العربي القديم .

كل هذا شيء ليس فيه شك ودلائله تلمس بالأيدي
في هذه الكتب القديمة التي نشرت وفي هذه الكتب الجديدة
التي ألقت وفي الدروس الادبية التي تلقى في جامعاتنا
ومعاهدنا المختلفة وفي انتاجنا الادبي الخالص الذي شغلت
بدرسه وعنت بفقهه ونقله الى اللغات المختلفة البيئات العلمية
في غربي أوروبا وشرقها وفي شمال أمريكا وجنوبها . ولكن
هناك شيئاً ليس أقل من هذا ثبوتاً واستقراراً ووضوحاً
وهو ان دروس الاستاذ نالينو في الجامعة المصرية القديمة
كانت هي الموجه الاول لنهضتها العلمية في دراسة الادب
مباشرة أو بالواسطة . وجهت تلاميذ الاستاذ الذين سمعوا
منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه ثم وجهت أجيالاً من
نشأب سمعوا على هؤلاء الطلاب حين أصبحوا أساتذة
وقرأوا لهم حين أصبحوا مؤلفين .

وكذلك مضى المذهب الحديث في تاريخ الادب بين
الاجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين . وما أعرف
للاستاذ نالينو نظيراً في التوجيه العميق للنهضة المصرية الا
زميله الاستاذ سانتلانا الذي أحدث في مصر نهضة خطيرة
في دراسة الفلسفة الاسلامية وفي فهم الصلة بين هذه الفلسفة
وبين الفلسفة اليونانية القديمة . وقد أتىح للاستاذ نالينو من
البر به بعد وفاته ما أرجو ان يتاح لزميله ، والفضل في

نشر هذا الكتاب يرجع قبل كل شيء وقبل كل انسان إلى
ابنته الكريمة الآنسة ماريّا نالينو ، فهي التي حفظت آثار
والدها العظيم ، وجدت في اعدادها للنشر وظفرت بالمعونة
على نشر هذه الآثار في ايطاليا ، فأهدت للعلم والعلماء
كنوزاً لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة
فيها أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين وما سينتجون من
الدراسات الادبية العربية على اختلاف موضوعاتها .

وأعدت هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ ، لم تغير
فيها شيئاً وإنما وفّت لأبيها أصدق الوفاء واجدره بالاكبار
والاجلال . ووجدت من دار المعارف للطبع والنشر معونة
صادقة على إذاعة هذا الكتاب . فكان للدار وللأستاذة
ماريا نالينو فضل أيّ فضل ، لأنها بنشر هذا الكتاب قد
برتت بأستاذ جدير بالبر وهيأتا لشباب المصريين والشرقيين
ان يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة .

فلهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم الشكر أجمل
ما يكون الشكر والثناء أصدق ما يكون الثناء .

أما أنا فلم امل هذه الصفحات إلا لأسجل بري
بأستاذي العظيم وشكري لابنته الكريمة ولدار المعارف على
ما أتاحتا لي من ان أرى لونا من الوان حياتي في طور من
أطوار الشباب .

حديث الحياة

ما أكثر ما تحدثنا عن الفن والحياة ، وعن الحياة والفن ، وعن أيهما يكون وسيلة إلى صاحبه دون أن ننتهي من هذه الأحاديث التي لا تنتضي إلى نتيجة مرضية أو غير مرضية ، وإنما هو كلام يملأ أنهار الصحف ثم يمضي مع الريح لا يصل إلى شيء ولا يبقى منه شيء .

نُبدئ فيه ونعيد ، كأن الفن عندنا قد ملأ علينا الأرض كلها ، وأخذنا من جميع أقطارنا حتى كاد يغرقنا ، فنحن نتخفف منه بالحديث عنه ، أو كأن الفن عندنا قد التوى عن طريقه فضلً وأضلً ، فنحن نلج في الحديث عنه ، والحديث إليه ، لئلا نرده إلى قصد السبيل ، ونوجهه

إلى وجهته التي لا ينبغي أن يجور عنها .
والناس جميعاً يذكرون ذلك الفيلسوف اليوناني القديم
الذي تحدث الأفاصيص عنه لأنه كان يمشي في ضوء النهار
وفي يده مصباح يبحث به عن الرجل . ويوشك كتابنا
الذين يبدأون في أمر الفن ويعيدون أن يكون كل منهم
ذلك الفيلسوف ذا المصباح إلا أنهم لا يبحثون عن الرجل
وانما يبحثون عن الفن ، أين هو ؟ .. وأن يمكن أن
يكون ؟ .. وان كان بحث ذلك الفيلسوف عن الرجل
ما زال خالداً وما زلنا محتاجين إلى ان نعرف الرجل
الجدير بهذا الاسم أين هو ؟ .. أو اين يمكن أن يكون ؟ ..
ولكن هذه قصة أخرى .

فلنمض في حديث كتابنا هؤلاء ، وحديثهم الذي لا
ينقضي عن الفن ، أين هو الفن الذي يتحدثون عنه ؟ ..
وما لهم حين يتحدثون عنه لا يسمون أصحابه ، ولا
يصفونه بصفاته التي تميزه وتدل على أنه فن للحياة ، قد
سخر لها تسخييراً ، فأصلحها وقواها ، ورقاها ، وجعلها
جديرة أن تحب ، وان تحمل على ما فيها من أثقال .
أو تدل على انه فن قد سخرت الحياة له فصورته في صورة
النضرة الرائعة وجعلته فناً فذاً تهوي اليه الافئدة ،
ويتنافس فيه المتنافسون ، وتغبطنا من أجله الأمم
والشعوب .

أما أنا فأعتمر إلى هؤلاء الكتاب من حديث عسى إلا

يستسيغوه ولا يطمئنوا اليه ... فقد يخيّل الي انه لو قد
كان لنا فن لشغلنا به ، ولأمعنا فيه ، ولذهبنا في نقده
المذاهب ، ولأراحنا هذا كله من هذا الدوار الذي
يوشك ان ينتهي بنا الى الاعياء لكثرة ما ندور حول
الفن في غير طائل دون أن نقف عنده أو نقول فيه شيئاً
ذا بال . وما أرى الا ان أحاديثنا هذه الطوال تشبه
حديث الجياع الذين يحلمون بما يردّ عنهم لذع الجوع
وحديث الظمأى الذين يحلمون بما يكسر عنهم حر الظمأ ،
فهم يرسلون نفوسهم في هذه الاحلام الحلوة الرائقة ، وهم
يتحدثون بما تزينه لهم هذه الاحلام ، يلهون بذلك أنفسهم
عن الجوع ، وعسى ان تغرهم أحاديثهم فتخيّل اليهم انهم
قد بلغوا ما يشتهون ، واي شيء أدل على ذلك من ان
هؤلاء الكتاب عندما يتحدثون عن الفن الذي يكرهونه
انما يذكرون فن القدماء ، ويعيرون انه كان بعضه موجهاً
الى الملوك والاقطاعيين يغرهم ويلهبهم ، منصرفاً عن جماعات
الشعب الكادحة لا يحفل بها ، ولا يحسب لها حساباً ، وقد
يذكرون فن الشيوخ الذين لم يتركوا الحياة الجديدة ،
أو لم تدركهم الحياة الجديدة ، فساروا سيرة القدماء ،
وانتجوا مثل ما كان القدماء ينتجون ، فاذا تحدثوا عن
الفن الذي يحبون ، ذكروا فن جماعات من الاجانب على
اختلاف مواطنهم ، يرون انهم صوروا الحياة فأحسنوا
تصويرها ، وكان فنهم من أجل ذلك نافعا لهم وللناس ،

فاذا أرادوا ان يتحدثوا عن الفن المصري الذي يحبونه لم يقولوا شيئاً لأنهم لا يجدون ما يقولون أو لأنهم لا يجدون الفن الذي يستطيعون ان يقولوا فيه ، فقاموا حيث هم يتمنون ويحلمون وينتظرون ان يهبط عليهم هذا الفن المصري الجديد من السماء أو ينجم لهم من الارض ، أو تأتيهم به معجزة من المعجزات وأعجوبة من الاعاجيب ، وهم كذلك يتحدثون عما كان ، ويحرصون على الابد ، ويتحدثون عما هو كائن في بلاد الغرب ويتمنون ان يروه في بلادهم في يوم من الايام . والتمس ان شئت أثراً فنياً مصرياً يعجب كتابنا هؤلاء ، ثم التمس تقدمهم لهذا الاثر وآراءهم فيه وتوجيههم للذين يريدون أن يتجوا في الفن فلن تظفر بشيء ، ورحم الله ابا العلاء حين ذكر شعر ابن هاني الاندلسي فذكر الرحي التي تطحن قروناً لانها تجمع ولا تنتج شيئاً .

ليس خيراً من كل هذه الاحاديث التي قد بلغت طور الاملال ان نلتمس الاسباب التي قصرت بشبابنا عن أن يبلغوا من الفن ما يريدون ، وان نجد في استقصاء هذه الاسباب ، حتى إذا عرفناها واحصيناها أو أحصينا أكثرها ، بذلنا ما نملك من الجهد لأصلاح ما يحتاج إلى الاصلاح ، وتغيير ما يحتاج إلى التغيير ، ونهية الشباب لأن يتلقوا الحياة مختلطة لها ، شاعرين بها ، بالغين بحسهم وشعورهم وفهمهم أعماقها واعماق ما يكون فيها من الاحداث

لتأثر بها قلوبهم وعقولهم وأذواقهم ، وليحاولوا بعد ذلك تصوير ما يجلبون من هذا التصوير على ان يكونوا قد هبثوا لاحسان هذا التصوير ، ومكنوا من ان يبلغوا به نفوس غيرهم من الناس .

فقد نستطيع ان نمضي إلى غير غاية في الحديث عن الفن للحياة والحياة للفن ، وعن صعود الشعب إلى الفن في سمائه أو هبوط الفن إلى الشعب في أرضه ، وعن الفن للفن ، والفن للناس ، فكل هذا كلام قد قيل من قبل ، وقد فرغ الناس منه أو كادوا يفرغون ، وكان الذين يقولونه ، وما زال الذين يخوضون فيه ، لا يكتفون بالكلام ، وانما يضيفون إلى الكلام عملاً فينتجون أو ينتج غيرهم آثاراً فنية تلائم المذاهب القديمة أو المذاهب الجديدة . ويكثر النقد لأولئك وهؤلاء : ويقرأ الناس كلام النقاد ويسعون إلى هذه الآثار الفنية فينظرون ثم يرضون أو يسخطون . وتتصل الحياة الخصبة بين جماعات الشعب وبين أصحاب الفن ، وبين أولئك وهؤلاء وبين الناقدين ولا يصبح حديث الفن أشبه شيء بحديث الخالمين أو بهذيان المحمومين . وليرح الكتاب أنفسهم ، فهم مهما يفعلوا ومهما يكثروا الحديث ويظيلوا فيه ، لن يستطيعوا تغيير طبيعة الفن .

لن يجعلوه للحياة ، ولن يجعلوا الحياة له ، لأنهم يريدون هذا أو ذاك ، وانما الحياة نفسها هي التي ستفرض على الفن

ان يكون لها ، والفن نفسه هو الذي سيفرض على الحياة ان تكون له عند بعض الناس ، وان تكون به عند أكثر الناس حين تقوى الحياة وترقى ، ويهيئ الشباب للتأثر بها ، والتعبير عنها . ستفرض نفسها على فريق منهم فيستجوبون فناً رفيعاً . وسيفرض هذا الفن الرفيع على فريق آخر منهم فيحاولون المحاكاة ويتفوق منهم من يتاح له التفوق وسيشيع الشعور بروعة الفن فيتأثر به كثير من الناس ، ويتنافسون في السعي اليه والظفر به ، والحرص على اقتناء آثاره وعلى معايشة هذه الآثار ولقائها بين حين وحين . وستوجد الثروة الفنية ، وسيضطر النقاد إلى أن ينقلوا ، لأنهم سيجدون ما يقولون .

وقد عرض صديقي الزيات مثلاً من شعر شاعر قديم عاش مع الشعب في عصره ذاك البعيد ، فصور ألواناً من حياته ، وما أكثر ما عاش الشعراء القدماء مع الشعب ، فصوروا من حياته ألواناً . والمهم هو ان تكون حياة الشعب من القوة والخصب والنشاط والتنوع بحيث تستطيع ان تفرض نفسها على الشعراء والكتاب والمثاليين والمصورين والموسيقين دون أن نرسم لأصحاب الفن طريقهم إلى الشعب ليهبطوا اليه ، أو نرسم للشعب طريقه إلى أصحاب الفن ليصعد اليهم .

كل هذا لغو من اللغو ، وكلام لا غناء فيه . وإنما الجوهر كل الجوهر ان نصلح حياة الشعب ، ونصلح تثقيف

الشباب وتعليمهم ، ونمكن الشعب من ان يرقى إلى الفن شيئاً ، ومن ان يُكره الفن على ان يهبط إليه شيئاً ، ومن ان يتحقق بينهما هذا اللقاء الخصب الذي ينتج ما يتاح للامم الراقية حقاً من هذه الحياة الفنية التي لا تقف عند الحديث المعاد .

ونحن آخذون في اصلاح حياة الشعب ما في ذلك شك . فأما انا آخذون في تهيئة الشباب ليكونوا قادرين حقاً على ان يحملوا امانة الفن الرفيع وينهضوا بها وبأعبائها الثقالة فهذا هو الشيء الذي أشك فيه الشك كله .

ولكن الحديث في هذا يطول ، وما ينبغي ان أوتر نفسي به ، وانما ينبغي ان ينحوض فيه الكتاب لعلهم ان يستقصوا ما في تعليمنا وثقافتنا من خصال تباعد بين الشباب وبين ما نتمنى لهم وللفن من هذه الحياة الحصبة الرائعة التي نحلم بها ولا نسمو إليها .

وعا زال الغيث منهراً

وهو غيث على كل حال لانه يصرف القراء عن حياتهم
هذه العقلية الراكدة الى لون من النشاط الذهني لا يتصل
بالطعام ولا بالشراب ، ولا بحاجات رمضان ولا بحاجات
العبد الذي يظلمهم والذي أرجو أن يكون سعيداً ان
شاء الله . ولو لم يكن لتفكيري في ترجمة هذا الشاعر
العظيم أثر الا هذا الغيث المنهمر الذي لا يريد ان يكف
ولا ان ينقطع من جهة والا تفكير الدولة في ان تعني
بالثقافة عناية خاصة وتنشئ الاداة التي تجعل العناية حقيقة
واقعة وترصد المال الذي يتيح لنتائج هذه العناية ان تصل
الى الناس في دورهم كما يصل الماء الذي يشربونه والهواء
الذي يتنفسونه والنور الذي يستضيئون به حين يظلم الليل .

لو لم يكن لتفكيري في ترجمة هذا الشاعر العظيم الا
هذا الاثر لكنت جديراً ان ارضى به كل الرضى وان اغتبط
به كل الاغتباط .

واني لسعيد حين أفكر في ان رئيس الحكومة وزميله
وزير التربية والتعليم قد صح عزمهما على ان يجعلا الثقافة
العليا كما حاولت ان أجعل التعليم منذ أعوام حقاً شائعاً
ميسراً لكل من يسمو اليها كالماء والهواء ، وان كان لفظ
الماء والهواء يغيظ بعض الاصدقاء .

والمهم ان الغيث ما زال ينهمر ، واني منذ عدت من
سوريا ولبنان لا أكاد أقرأ الصحف في يوم من الايام
دون أن أجد في هذه الصحيفة أو تلك حديثاً عن ترجمة
شكسبير .

وأنا أعلم ان البلاد العربية الاخرى تتحدث عن هذه
الترجمة وان بعض الادباء من أهل هذه البلاد يودون لو
يشاركون فيها ، ويعرضون عليّ جهدهم في شيء من
الاسماح الذي أشكره أجمل الشكر .

ولكننا في مصر مختصمون والحمد لله . على ان هذه
الخصومة ليست مقصورة عليّ وحدي وعلى الذين يعارضوني
في هذه الترجمة ، ولكن أدباء آخرين قد تفضلوا بمشاركتي في
الدفاع عن ترجمة شكسبير وأبلوا في ذلك فأحسنوا البلاء .
بعضهم يشارك مشاركة صامتة ولكنها خصبة فيقبل على
الترجمة ويتجرد لها غير محجم عنها ولا متردد فيها .

وبعضهم الآخر يشارك مشاركة ناطقة فرد على المعارضين
وبجاذبهم أطراف الجدل .

وكذلك شغل فريق من كتابنا وقرائنا بأمر هذا
الشاعر العظيم . وكانت هذه الخصومة تمهيداً حسناً يهيئ القراء
لاستقبال آثاره الرائعة ممن تعرض عليهم ان شاء الله بعد
شهور .

وكم أتمنى ان يُتاح لي شيء من مال قليل أو كثير
لأدفع شبابنا وشيوخنا الذين يحسنون اللغات الأجنبية
واللغة العربية الى ترجمة كتاب وشعراء وفلاسفة غير
شكبير .. ولأدفع كتابنا وقراءنا الى الخصومة العنيفة
أو اللينة في هؤلاء الكتاب والشعراء والفلاسفة كما يختصمون
الآن في شكبير .

ومن يدري لعل مصر ما زال فيها قوم يعنون بالأدب
والثقافة والفلسفة ولا يكرهون ان يتزلوا لترجمتها عن شيء
من فضول أموالهم يبتغون تزكية نفوسهم وتطهيرها ، ويبتغون
بذلك أيضاً رضى الناس عنهم وثناء الناس عليهم ، ويبتغون
بذلك آخر الأمر شيئاً من الاحسان الى هذا الشعب الذي
أحسن اليهم فيسر لهم من الحياة الراضية والثراء العريض
ما يمكنهم من ان ينشروا الخير من حولهم . وأي خير
أنفع للشعب من هذا الذي يذكى العقول ويحيى القلوب
ويهدب الاخلاق ويدفع الى النشاط الثقافي الحصب .
وما أكتب هذا الحديث لأطلب الى أغنيائنا ان يتبرعوا

بشيء من فضول أموالهم لتنشيط الحياة العقلية وتقويتها
فلمست أحب هذا النوع من المطالبة ولا من الالحاح . وإنما
أكتبه لأشكر الذين خاصمونني في ترجمة شكسبير وللذين
أيدوني أيضاً خصومتهم وتأيدهم لأنها مظهر من مظاهر
النشاط الثقافي الذي كنت أفقده فلا أجده . وكم أحب ان
تتصل هذه الخصومة وان يثار أمثالها .

ثم أكتب بعد ذلك لارد على بعض الذين يخاصمونني
في هذه الترجمة ، فقد تلقيت آراء جديدة لم أرد عليها فيما
سبق من الحديث ..

قال قائلون لم نترجم كل ما ترك شكسبير من الآثار ؟
ولا نختار منها أجودها وأرقاها وأعظمها امتاعاً وادناها
الى عقولنا وأذواقنا ؟ ونترك ما دون ذلك لتنفق الجهد
والمال في ترجمة آثار فريق غير شكسبير من أعلام الثقافة
والادب والفلسفة ؟ واجب ان أقول لهؤلاء السادة انسي
أولاً شديد التأثير والاعجاب بقول النبي صلى الله عليه وسلم
لبعض أصحابه ما معناه : ان الله يحب من العبد اذا أخذ
في عمل ان يحسنه . وما أشك في أن آثار الكتاب والشعراء
الناجين شيء يتم في نفسه بعد ان يفرغ أصحابه من الإنتاج
وبعد ان يستأثر بهم الموت . وترجمة بعض هذه الآثار
دون بعضها الآخر نقص لا يليق بالقادرين على التمام .
وما أحب ان أمتيح لنفسي ولا لطائفة من أمثالي القضاء
بأن بعض آثار هذا الكاتب أو ذاك أجدر بالعناية من

بعضها الآخر ، ولا بأن يقال : بعض هذه الآثار أرقى وأقوم من بعضها الآخر . ففي ذلك شيء من الجراءة لا أستحبه ، وفي ذلك شيء من الاعتداء على الكتاب والشعراء لا أسبغه ، وفي ذلك آخر الأمر اعتداء على أذواق القراء : فالاختيار قطعة من الذوق وهو بعض العقل بالقياس الى الذين يختارون . وما أحب ولا أستطيع ان أجعل ذوقي وعقلي مقياساً لأذواق الناس وعقولهم ولا أن أفرض عليهم ما يؤثره ذوقي وعقلي من الاختيار . وأنا أستطيع ان أختار لنفسي ان شئت ، ولكي أرى من الغرور أن أفرض اختياري على غيري .

وأقول بعد هذا كله اننا قد امتحنا بالاختيار كما امتحنت أمم أخرى به منذ أقدم العصور ، فأبو تمام يختار حماسه والبحري حماسه ، والذين يختارون من جيد الشعر والنثر كثيرون في اللغة العربية وفي غيرها . وليس بهذا الاختيار بأس وان كنت لا أحبه ، ولكن الاختيار لا يستقيم الا اذا أتيح للقراء ان يتجاوزوه الى قراءة الاصول التي يكون منها الاختيار .

وقد اختار قدامونا ولكنهم لم يلغوا الدواوين التي اختاروا منها ولا كتب النثر التي اختاروا منها أيضاً . وما زال الناس في بلاد الغرب يختارون من روائع الادب ولكن اختيارهم يصورهم هم ولا يلغي الاصول التي اختاروا منها ليستطيع كل قارئ ان يرجع اليها وان يختار منها

ان شاء ؟

وقال قائلون فيمَ ترجمة آثار شكسبير كلها من جديد ، وقد ترجم منها شيء كثير ، فلم لا يترجم منها ما لم يسبق نقله الى اللغة العربية ؟

وأحب ان أقول لهؤلاء السادة ان آثار الكتاب والشعراء النابهين تترجم في البلاد الراقية مرات مختلفة كثيرة جداً . فليس علينا ولا على شكسبير بأس ان نترجمه مرتين أو مرات . ولو ذهبت أحصي عدد التراجم التي نقلت شكسبير الى اللغات الاوروبية الكبرى وحدها لأنفقت في ذلك جهداً ضخماً ووقتاً طويلاً . والتراجم تتفاوت فيما بينها دقة وتقصيراً ، وجودة ورداءة ، وفيها ما يرتقي لفظه وأسلوبه وادائه ، وفيها ما يضطرب لفظه ويفسد أسلوبه ويسمج أدائه .

ومن الناس من ترجموا شكسبير عن الفرنسية لانهم لم يكونوا يحسنون اللغة الانجليزية . وما أظن أن مثل هذا النوع من الترجمة يمكن الرضى به أو الاطمئنان اليه . وقد آن لنا اذا أخذنا في عمل ان نحسنه ، واذا أخذنا في ترجمة ان ننقل عن اللغة التي كتب فيها الاديب أو العالم أو الفيلسوف .

فأما الترجمة عن لغات أخرى غير لغة المؤلفين فقد لجأ اليها قدماءنا حين نقلوا الفلسفة اليونانية عن السريانية ، وحين نقلوا بعض الآثار الهندية عن الفارسية ، ولجأنا نحن

اليها في العصر الحديث ، وقد آن لنا فيما أعتقد ان
نعدل عن هذا النقص ونبرأ من هذا القصور .
ومن أجل هذا دعوت وما زلت أدعو ملحقاً الى تعلم
اللغات الاوروبية الكبرى كلها في مدارسنا الثانوية وفي
جامعاتنا حتى لا ننقل آثار الكتاب الالمانيين مثلاً أو
الروسين عن الترجمة الفرنسية أو الانجليزية لهؤلاء الكتاب .
وقال قائلون ما للجامعة العربية ولترجمة شكسبير ؟ أليس
الحق على هذه الجامعة ان تترجم للعرب ما يمس عروبتهم ،
وما يمس منافعهم المختلفة السياسية والاقتصادية والثقافية ،
بشرط ان تكون هذه الآثار الثقافية متصلة بهم وبأوطانهم ؟
وأنا أعتذر الى هؤلاء السادة ان قلت لهم انهم يفهمون
جامعة الدول العربية على غير ما تفهم الجامعة نفسها ...
فهي حين أنشأت لجنتها الثقافية وادارتها الثقافية أيضاً ،
كانت أوسع منهم أفقاً وأبعد منهم همّاً ، وهي لا تقصر
في ترجمة ما يتصل بالعروبة وبالوطن العربي مما كتب
الغريون ، ولكنها لا ترى ان تقف نشاطها عند هذا
الحد ، وانما تريد ان توسع الثقافة العربية العامة الى أبعد
مدى وترفعها الى أرقى منزلة ، وترى في ذلك ترقية
لشعوب العربية وتمكيناً لها من الاخذ بأسباب النهضة
الصحيحة السريعة المنتجة . ونظمها بعد ذلك لا تتيح
لرئيس اللجنة الثقافية كائناً من يكون ان يستبد برأيه في
الترجمة والنشر ، ويمضي فيها على هواه . ولكنها تفرض

عليه ان يظفر بموافقة اللجنة الثقافية نفسها ثم بموافقة مجلس الجامعة بعد ذلك ، فرئيس لجنتها الثقافية عضو من أعضائها لا أكثر ولا أقل ... وله من هذه الناحية حق الاقتراح كغيره من الاعضاء ، فاذا أقر اقتراحه من اللجنة والمجلس أصبح مشرفاً على التنفيذ .

فليطمئن هؤلاء السادة ، فاني لم أكلف الجامعة العربية فوق ما تطيق ، ولم أدفعها الى ميدان من ميادين النشاط بجاني نظمها واختصاصها .

أما بعد ، فما بالناس لا نختصم إلا في ترجمة شكبير ، مع ان للجامعة نشاطاً آخر في ترجمة كتب أخرى غير آثار شكبير ، ولها نشاط نرجو ان يكون قوياً خصباً في احياء الأدب العربي القديم .

أليس ينبغي ان تثار الخصومات حول هذه الالوان من النشاط ؟ فاني أحب هذا اللون من الغيث الذي لا ينهمر ، فيخرج العقول والقلوب عن يسر الحياة اليومية التي نحياها .

وَالْفَلَسَفَةُ

نعم والفلسفة ، أنترجمها الى العربية كما ترجمها الأولون من العرب فغيروا بترجمتها طبيعة الحياة العربية ، وأقاموا بفضلها هذه الحضارة الاسلامية الرائعة التي كان لها أثرها الخطير في إحياء أوروبة في القرون الوسطى ... قبل ان يتاح لها العلم المباشر بفلسفة الأولين وآدابهم وفنونهم على اختلافها .

هذا سؤال لا يلقى المعاصرون كما ينبغي أن يلقى ولا يفكرون فيه كما يجب ان يكون التفكير فيه ، وانما يقطعون فيه بالرأي الحازم الجازم ثم يهجمون برأيهم هذا في غير تحفظ ولا تثبت ولا روية ليهدموا آراء غيرهم هدماً ويدكوها دكاً . فالمعاصرون من كتابنا محاربون يتقنون

أساليب الهجوم ويتفوقون في المصاولة والمجاولة والمطاولة حتى حين لا يصاولهم ولا يجاولهم ولا يطاولهم أحد . ولعلهم انما يهاجمون حيث لا موضع للمهاجمة ويصولون ويجولون حيث لا موضع لصيال أو جيال . وربما كان الخير في ان يأخذوا ما يعرض لهم من الأمور أنخذاً رقيقاً هيناً فيه شيء من سعة الخلق وسهولة النفس وسجاجة الطبع ورجاحة الحلم . ذلك أجدر ان يهديهم ويهدي غيرهم الى الحق وأحرى ان يلهم ويبدل غيرهم على الصواب . ولكنهم أخذوا أنفسهم بالعنف في غير موضع للعنف ، والجدال في غير حاجة الى الجدال . والقصة كلها تنحل كما يقال الى عناصر ثلاثة تعمل مجتمعة أحياناً وتعمل متفرقة أحياناً أخرى . فأحد هذه العناصر الافتتان بالألفاظ والانخداع بالظواهر . قوم يرون المخترعات الحديثة وما أتبع للغرب عامة ، ولأمريكا خاصة ، من التفوق في تجديد الحياة المادية التي يحياها الناس وابتكار الأدوات الرائعة والمروعة فيبهرون ويسحرون ، وقد ألقى في روعهم ان هذه المخترعات التي تملأ الحياة دعة وسعة والتي تعرض الحياة للموت والقناء ، انما مردها الى تقدم العلم ورقية فيدعون مسرعين الى ترجمة العلم ، لا يتحفظون ولا يشبثون ولا يسألون أنفسهم كيف تكون ترجمة العلم ولما تكون ولماذا تكون ومن الذين سيتنفعون بهذه الترجمة ؟ .. وما عسى ان يكون أثر هذه الترجمة في تمكين العرب

خاصة والشرقيين عامة من المشاركة في الاختراع والابتكار وتجديد الحياة وتعريضها للهول والفناء .

وثاني هذه العناصر ما ألف الناس في هذه البلاد من تعصب كل امرئ لما يحسن ولما يظن انه يحسن . فالمؤرخ لا يعدل بالتاريخ علماً ، والفيلسوف لا يعدل بالفلسفة شيئاً ، والرياضي يرى الرياضة أول العلم وآخره ، والاديب يرى الأدب قوام الحياة . وقد بلونا ذلك حين رأينا رجال التعليم يحاولون أن يضعوا مناهج الدرس وبرامج للمدارس الابتدائية والثانوية ، فتعصب كل جماعة لما تمارس من ألوان العلم . يريد كل فريق منهم ان يقيم التعليم ومناهجه وبرامجه على اللون الذي يفرغ له ويتخصص فيه .

وينسون جميعاً ان الثقافة مزاج يجب ان يأتلف من عناصر مختلفة ، وان تعتدل فيه هذه العناصر فلا يطغى بعضها على بعض . أما العنصر الثالث فيسير جداً وهو الحرص على المشاركة في كل ظاهرة من ظواهر النشاط للظفر بنصيب قليل أو كثير من نتائج هذا النشاط ، مادية كسائت أو معنوية .

وقد قيل للناس ان رئيس الحكومة أرصد خمسين ألفاً من الجنيحات للترجمة . فكل قادر على الترجمة ينبغي ان يكون له نصيب من هذه الالوف الخمسين . نصيب قليل أو كثير فشيء خير من لا شيء ، ومسال الشعب يجب ان يرد الى أكثر عدد ممكن من الشعب . واجب ان

أريح هؤلاء الطامعين الطامحين بالحق وبغير الحق فأؤكد لهم ان رئيس الوزراء لم يضع تحت تصرفي ألفاً واحداً ولا آلاف قليلة ولا ألفاً كثيرة ، ولم يطلق يدي في مال ما لأنفقه كما أحب وأهوى . وانما أظهر استعدادي للعناية بشؤون الادب والفن والانتاج الثقافي كله ، وعهد الى زميله وزير التربية والتعليم وضع ما تقتضيه هذه العناية من نظام .

ووزير التربية والتعليم جاداً فيما طلب الرئيس اليه . فليستظر الطامعون والطامحون اذن ، فقد يتاح لكل واحد منهم نصيبه من هذه الالوف التي قد تبلغ الخمسين وقد تزيد عليها كثيراً .

ولنعد بعد ذلك الى الذين يجادلون ويناضلون ويجاولون ويصاولون متخذهين بالألفاظ والظواهر أو متعصبين لما يحسنون أو ما يظنون أنهم يحسنون من الوان المعرفة فتدعوهم الى كلمة سواء تريحهم وتريحنا وتريح الناس جميعاً من هذا الجدال العقيم الذي لا يغني عن أحد شيئاً . فاما الذين يحبون ترجمة العلوم ، فمن حقهم ان يطلبوا ذلك الى العلماء والى الحكومة . وقد أنشئ في مصر منذ حين مجلس البحوث العلمية فليطلبوا اليه من ترجمة العلم ما يريدون وليطلبوا الى الدولة ان تيسر له ذلك ، فتعيد النظر في نظامه وتمنحه من المال ما يمكنه من البحث واعانة الباحثين ، وما يمكنه من الترجمة واعانة المترجمين الى أبعد حد ممكن :

فليس عليهم في مطالبة المجلس والحكومة بهذا كله حرج أو جناح ، فهم يعيشون في وطن ناهض طامح الى المجد حريص على ان يشارك في تنمية الحضارة الانسانية ، ومن حقهم ان يطالبوا بتوجيه هذا الطموح الى حيث يرون الخير .

واما الذين يطلبون ترجمة الفلسفة فمن حقهم ان يطلبوا هذه الترجمة الى المجلس الجديد الذي تريد الحكومة انشاءه ليقوم على رعاية الآداب والفنون والثقافة ، وأظنهم لا يكرهون ان ينتظروا نشأة هذا المجلس ، فاذا تمت نشأته وأخذ في عمله طلبوا اليه ما يحبون . وأنا مؤمن أشد الإيمان وأقواه بأن ترجمة أصول الفلسفة الانسانية ضرورة من ضرورات الحياة الراقية في كل وطن بطمح الى الرقي ونجد في سبيله ، وأنا مؤمن كذلك بأن لا أمل لوطن حي يريد ان يرقى وأن يكون لحياته حظ من خصب ، لا أمل لهذا الوطن في ان يبلغ ما يريد الا اذا عرف أصول الفلسفة الانسانية على اختلاف مذاهبها وأوطانها .

ولكن كنت أحب هؤلاء ألا يسرفوا على أنفسهم وعلى الناس بهذا الكلام الذي يرسل ارسالا في غير تحفظ ولا تثبت ولا احتياط . فالاولون من العرب لم يؤثروا الفلسفة على الادب حين ترجموا ما ترجموا من آثار الاولين ، وانما ترجموا ما عرفوا وما أتبع لهم ان يترجموا . ولو انهم عرفوا الآداب اليونانية واللاتينية كما كان ينبغي ان تعرف لما قصرُوا في ترجمتها . وما أكثر السخف الذي يقال عن

غير بحث أو تحقيق ، فالعرب لم يترجموا شعر هوميروس ولا شعر بندار ، والعرب لم يترجموا تمثيل الشعراء التمثيليين إعراضاً منهم عن هذه الألوان من الأدب لأنها كانت فيما يزعم الزاعمون وثنية لا تلائم الإسلام . كأن كل ما ترجموا من الفلسفة كان يلائم الإسلام ويطابقه ولا يخالفه قليلاً أو كثيراً . ولا أعرف مقالة أشد امعاناً في الحق والسخف من هذه المقالة .

فقد ترجم العرب من فلسفة الفلاسفة ما يخالف الإسلام أشد الخلاف ، لم يمنعهم ذلك من ترجمته والرد عليه . وقد وجد بينهم في العصور الأولى من خلب لبه بعض الآراء الفلسفية المخالفة للدين ، فألف في ذلك الكتب وكتب فيه المقالات ونظم فيه الشعر ، بجاهر بذلك حين تتاح له المجاهرة ويستخفي بذلك حين لا يكون له بد من الاستخفاء . إنما ترك العرب ترجمة الآداب القديمة لأنهم لم يعرفوها حق معرفتها ، وهم لم يعرفوها لأن المسيحية هي التي سبقت إلى الاعراض عنها واضطرتها إلى ان تستخفي وتختبيء حتى تستكشف في العصور الحديثة . وقد كان المسيحيون كما كان المسلمون يذكرون الشعراء القصصيين والغنائيين والتمثيليين لأن أسماهم هؤلاء الشعراء وقعت إليهم . ولكن أولئك هؤلاء لم يقرأوا آثار هؤلاء الشعراء لأنها لم تكن شائعة ولا مألوفة عند اليونانيين في الشرق ولا عند الذين كانوا يتكلمون اللاتينية في الغرب . وأنا مطمئن إلى ان العرب لو عرفوا الشعر التمثيلي

اليوناني جده وهزله لترجموه ولحاولوا ان يصنعوا مثله ،
ولحاولوا كذلك ان ينشثوا التمثيل وان يجعلوه فناً عريباً
أصيلاً كما ترجموا الفلسفة ثم جعلوها فلسفة عربية أصيلة.
فالعرب اذن لم يتعمدوا الاعراض عن ترجمة الآداب
القديمة وانما اضطروا الى هذا الاعراض اضطراراً . وهبهم
تعمدوا هذا الاعراض فمن الذي يستطيع ان يازمنا ان
نخطيء كما أخطأوا ونقصر كما قصروا — ان كانوا قد
تورطوا في خطأ أو تقصير .

ليطمئن الذين يريدون ترجمة الفلسفة فسنترجم الفلسفة الى
اللغة العربية ، ما في ذلك شك . وسنترجم قديمها وحديثها .
مهما اختلف مذاهبها وأوطانها ، لأن طبيعة الحياة المصرية
الحديثة تقتضي هذه الترجمة وتفرضها فرضاً . وفيه هذه
الخصومة كلها أو فيم كل هذا اللغو الذي لا ينفع ولا يفيد
لقد قلت في حديث مضى ان الناس جميعاً لا يستطيعون ان
يقرأوا العلم ولا أن يصبحوا بحكم هذه القراءة علماء . وان
العلاء يحسنون اللغات الاجنبية ويقرأون فيها علمهم وهم
ليسوا في حاجة الى ان يترجم لهم . واقول مثل هذا
بالقياس الى الفلسفة ، فليس كل الناس يستطيع ان يسيغ
فلسفة ديكارت وكانت وأوجست كونت وأمثالهم من
أعلام الفلسفة في العصور القديمة والحديثة ، وانما يسيغها ويتنعم
بها الذين يفرغون لها من الاساتذة والطلاب وأصحاب
الثقافة العليا . وكل هؤلاء يحسنون لغة أجنبية ، فترجمة

العلم والفلسفة تستطيع ان تنتظر قليلاً حتى تهيأ لها الوسائل
المادية والفنية ، وليس في انتظارها ضرر قليل أو كثير .
ولا أعرف أحداً يستطيع ان يجادل في ان قراء الأدب
والمتفنين به والحريصين عليه أكثر جسداً من قراء العلم
والفلسفة . وأنا حين أفكر في هذه الاشياء لا أفكر في
مصر وحدها وإنما أفكر في البلاد العربية كلها ، وأفكر في
كل الذين يتخلون اللغة العربية وسيلة الى الثقافة والى الثقافة
العليا خاصة . وأنا لا أحاول ترجمة شكسبير وغيره
من أعلام الادب والثقافة باسم الحكومة المصرية وإنما باسم
العالم العربي كله . فليس بأس اذن من ان نبدأ بما ينفع
أضخم عدد ممكن من العرب وان نتظر قليلاً بما ينفع
الخاصة حتى يتاح لنا من الاسباب ما يمكننا من ان نترجم
للخاصة وللكترة معاً . ولن يطول هذا الانتظار فالحكومة
معنية بهذا الامر بجادة فيه كما لم تكن به ولم تجد فيسه
حكومة أخرى من قبلها .

فالذين يخلصون للعلم والفلسفة يستطيعون ان ينتظروا
مطمئنين . والذين يحرصون على ان يكون لهم نصيب من النشاط
في ترجمة العلم والفلسفة يستطيعون ان ينتظروا مطمئنين
أيضاً . والذين يطمعون في أن يأخذوا بحظوظهم من
الالوف الخمسين أو الستين أو من مئات الالوف يستطيعون
كذلك ان ينتظروا مطمئنين . فاذا كانوا لا يحبسون
الانتظار ولا يريدون الا العجلة فليوجهوا الحاحهم وتعجلهم

الى رئيس الوزراء ووزير التربية والتعليم لا الى أنا :
فلست أملك من هذه الآلاف الكثيرة أو القليلة شيئاً . ولو
قد ملكت منها شيئاً للأت عليهم الأرض علماً وفلسفة
وأدباً وفناً ولما أكرهتهم على ان يطالبوني بشيء من
الريث والائنة لكثرة ما أفرض عليهم من الجهد والجهد
والنشاط .

أما بعد فإن الشاعر القديم لم يخطيء حين قال :
قدر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقاً عن غرة زلجها
وأي تقدير للخطو أوجب من تقدير الوسائل المادية
والقنية التي تتيح لنا الترجمة في غير تعرض لزلل أو خطل
أو توقف في أثناء الطريق :

فصل

ليل ساج وظلام داج ، وسحاب ثقال كأنها الجبال ،
وبرد تجمد له اللحاء في العروق ، وتتحجر له الاطراف ،
وتنضب له ينابيع الحياة ، وبرد ينهمر من السماء انهاراً
تسوخ فيه الأقدام حين يمشي أصحابها ، وتكسى منه
الأجسام معاطف من ثلج تتأصل كل ما فيها من حرارة ،
وجماعات كثيرة من الناس مع ذلك لا يجد البيوت التي
تأويها ولا النار التي تدفئها ولا الطعام الذي يغذيها ، فهي
هائمة تتكفف الناس حين يبيع لها اعتدال الجو واسماح
الطبيعة أن تهم ، وهي قائمة واجمة تنتظر الموت حين يحول
اضطراب الجو وعنف الطبيعة بينها وبين الحركة والاضطراب
في الأرض وبسط الأيدي واراثة ساء الوجوه وابتلال

حياء النفوس التماساً لما يقيم الاود من القوت .
كذلك كانت باريس حين اجتاحتها موجة البرد التي
اجتاحت أوروبا في الأيام القليلة الماضية ، وفي ليلة من هذه
الليالي الهوج حين تجاوز الليل نصفه ، وكاد يبلغ ثلثيه ،
كانت مئات كثيرة من الناس ، فيهم الرجال والنساء وفيهم
الشباب والكهول ، قد وقفوا تحت السماء وقد غاصت أقدامهم
من البرد ، وجلل أجسامهم ما يساقط منه بل ما ينهمر منه
انهاراً ، والرياح الباردة تهب عليهم من كل وجه ، وتأخذهم
عواصفها من جميع أقطارهم وقام على أصل جدار متهدم
قيس " يخطبهم فينسيهم أنفسهم ويصليهم بخطبته ناراً تحرق
قلوبهم ونفوسهم ، يذكرهم باخوانهم اولئك الذين يهبط الموت
اليهم من السماء وينجم لهم من الارض ، ويسعى اليهم على أجنحة
الرياح لانهم لا يجدون مأوى ولا ناراً ولا كساء ولا غذاء .
والميسورون من حولهم ساهون لاهون ، لا يحفلون بهم ، ولا
يلتفتون اليهم ، ولا يلقون اليهم بالاً ولا يعلمون بمكانهم ، إنما
هم بين جاد ينعم في دعة بما انتج له جده وبين لاه يستمتع في
استخفاف بما أتاح له ثراؤه العريض . ثم يكف الخطيب
عن الكلام وتنطلق الايدي بالتصفيق ان اتيح لها التصفيق .
ثم يفرقون مسرعين ، منهم من تمضي بهم السيارات
مبارية للرياح ، ومنهم من يعدون في كل وجه ما
استطاعوا العلو ، وقد مضوا جميعاً يلتمسون اخوانهم
اولئك على شواطئ السين وعند جسوره وعند أفواه المرو

وفي كل مكان يألفه المضيعون من الناس .

حدث ذلك في ليلة من تلك الليالي الهوج ، ثم حدث بعد ذلك في الليالي الهوج كلها ، ثم لم يلبث أن أصبح نظاماً يحدث في الليل والنهار ، ويحدث حين تثور الطبيعة ، وحين تهدأ ، وحين تعصف الرياح وحين تسكن ، وحين يعنف البرد وحين يخف . كان يحدث أول الأمر للدفع الخطر الداهم الذي أثاره عنف الطبيعة ، ثم أصبح يحدث في كل يوم لما استقر في النفوس من أن للإنسان بحكم أنه إنسان الحق كل الحق في الإيجوع ولا يظماً ولا يعرى ولا يتعرض للآفات التي تأتيه من فقد المأوى .

وكان أصل هذا كله ذلك القسيس الذي استطاع أن يلهب النفوس ويقر في القلوب جذوة لا تبرد إلا إذا طعم جائع واكتسى عريان وجبر مسكين . ثم لم يستطع هذا القسيس أن يثير نفوس الأفراد وحدهم ، بل أثار معها نفوس الجماعات . فأخذت تتبارى في الجود وتستبق في السخاء وتتنافس أيها يكون أعظم برأً بالبائسين والمحرومين ثم أثار الدولة نفسها فجعلت تسرع إلى تقديم المعونة العاجلة وترصد المال لتحتاط لهذا الشر العظيم فيما تستقبل من الأيام .

ويستطيع كل من أقام في باريس أو ألم بها أن يرى فندقاً من فنادق الترف في شارع من الشوارع الممتازة قد جمع الثراء العريض والبؤس المهلك بين جدرانها ، فسكانه من

المترفين يغفلون ويروحون ويتحدثون في ابياته أثناء النهار
ويسمرون فيها أول الليل ، ويرون مع ذلك أفواجاً من
البائسين المحرومين ، يمرون بهم قاصدين إلى تلك الحجرات
التي خصصت لاستقبالهم ، وأقام فيها فريق من الناس
يوجهونهم إلى حيث يجلسون ما يحتاجون اليه من المأوى
والطعام والكساء والغذاء .

ذلك ان القسيس قد اختار هذا الفندق مترلاً له . وما
أسرع ما أقنع أصحاب الفندق بأن يعينوه على الخير فأجابوه
إلى ما أراد ، وإذا الفندق يوتي مع القسيس شابين تخرجاً
في مدرسة الهندسة العسكرية وهما يعملان معه كاتبين له قد
تطوعا بمجهدهما كما تطوع القسيس بمجهده ، وتطوع آخرون
من الشباب والشيوخ بالساعات من أوقاتهم تقض وتطول ،
وهم يجلسون في تلك الحجرات يعطون السائل وينطعمون
الجائع ويستقون المحتاج ويوجهون طالب المأوى إلى حيث
يستطيع أن يقيم . وهذه محطات السكك الحديدية تخصص
قاعاتها لأيواء الذين لا يعرفون أين يتفقون الليل ، وتذهب
مذهبها محطات المترو ، وتذهب مذهبها كثير من المؤسسات
المختلفة . والمتطوعون على ذلك يطوفون في باريس ليلاً
ونهاراً يجمعون البائسين والمحرومين ويأخذونهم طوعاً أو
مكرهاً إلى حيث يجلسون الذين بعد الشدة ، والطعام بعد
الجوع ، والمسكن بعد العراء .

والغريب من أمر هذا القسيس انه لشا في أسرة غنية

موفورة الغنى يأتيها ثراؤها العريض من احلى صناعات
 الترف وهي صناعة الحرير في مدينة ليون .
 وقد كان منذ شبابه الاول شديد الالف للعمال الذين
 يعملون في مصانع امرته يحبهم ويعطف عليهم ويتبع
 حاجاتهم ويعينهم عليها ما وجد الى ذلك ميلاً . وقد تعلم
 كما يتعلم أمثاله ، ولكن البؤس الذي رآه مصعباً وممساً
 يتج السعادة ، والحرمان الذي رآه في كل يوم يتج الغنى ،
 والعناء الذي رآه في كل ساعة يتج الراحة وتخفض العيش
 كل ذلك زهده في الدنيا وصرقه الى الدين ، فأقبل عليه
 مستجيباً لهذه الدعوة الكريمة التي يوجهها الدين الى قلوب
 الاخيار ، وأصبح قسيساً فلم يفرغ لشؤون العبادة ولم
 يقف نفسه على كنيسة من الكنائس ، وإنما عاش مع الناس
 وأراد أن يصلح من حياتهم ما يستطيع إصلاحه . خاول
 ذلك عن طريق السياسة فأصبح نائباً ثم لم يلبث أن رأى
 طريق السياسة غير متجة فأنحرف عنها ، وانصرف الى
 مواجهة الأفراد والجماعات ، يوقظ ضمائرهم ويثبتهم الى
 الواجبات التي يقصرون في أدائها ، وإلى الحقوق التي
 يهملون في طلبها ، وإلى الحب الذي يجب أن يكون قوام
 الصلة بين الناس ، وإلى المعروف الذي يجب أن يكون
 دواء الغلل الاجتماعية على اختلافها . وتبين له الطبيعة بتورثها
 للجماعة الأخيرة فرصة أي فرصة ، فيحسن انتهازها ويتأخر
 له من النتائج ما أتبع .

وإذا هو يوقظ الضمير الفرنسي من نوم عميق ، وإذا الفرنسيون يستجيبون له أفراداً وجماعات ثم يستجيبون له شعباً وحكومة ، وإذا نوع من النشاط الاجتماعي لمعونة المحتاجين لم تشهده فرنسا منذ عهد بعيد ، وإذا كثير من الفرنسيين تتنبه في نفوسهم عاطفة دينية قوية فيرون هذا القسيس قديساً من القديسين الذين كانوا يظهرون فيما مضى من الزمان ، ومنهم من يسميه باسم القديس المشهور سان فنسان دي بول .

والقسيس نفسه ماض في طريقه لا يحفل برأي الناس فيه ، وإنما يعنيه شيء واحد هو أن تبلغ دعوته القلوب وان يستجيب لها الناس كل في حدود طاقته ، وان يستيقظ في الفرنسيين هذا الشعور الذي لا قوام للأمم بدونه وهو شعور التضامن بين أبناء الشعب الواحد ، حتى يصبحوا وكأنهم أخوة لا يسعد أحدهم إلا إذا سعدوا جميعاً ، ولا يشقى أحدهم إلا أصابهم جميعاً ما أصابه من الشقاء، وكأنهم أعضاء في جسم واحد لا يألم عضو إلا شاع الألم في الجسم كله . وكذلك استطاع هذا الرجل الفرد ان يوقظ شعباً وان يسخر سلطان الدولة ليستجيب لهذه اليقظة العامة ، ثم هو بعد هذا كله ماض في عمله يجمع المال من الاغنياء والفقراء ومن الهيئات الحرة والمصالح الحكومية ومن مجالس البلديات ومجالس الاقاليم ، ويجند الافراد للتعاون على البر والتقوى والسعي بالخير والمعروف بين الناس . آمن

بالاصلاح فسيطر الايمان على عقله وقلبه وضميره ، ثم استفاض الايمان من حوله فألقى في نفوس مواطنيه ضياء ونوراً . قرأ في الانجيل ان الايمان يزيل الجبال من اماكنها فأمن بما قرأ ، وجرب فأسعفته التجربة وأزال من قلوب مواطنيه ما تراكم فيها من الكسل والغفلة ومن الاثرة والانهك في اللذات والاستباق إلى نعيم الحياة ، وحجب اليهم الخير والبر وأثارهم للتنافس في المعروف والاحسان .

كل ذلك وفي حياة الفرنسيين من الاصلاح الاجتماعي ما لم نحاول بعضه نحن إلى الآن . ولكن أنخص صفات الاصلاح انه اشبه شيء بالانهار الجارية لا ينبغي لها ان توقف ولا أن تهمل مجاريها ، وانما ينبغي ان تتعهد بالعناية والرعاية حتى تفيض بالخير على الناس جميعاً وعلى الطبيعة الحية كلها .

كم أحب ان يتفكر المواطنون من المصريين في هذا المثل الرائع الذي ظهر في فرنسا فجأة وعلى غير انتظار ؟ ان في وطننا ثورة تريد الاصلاح ودعوة إلى الخير يجب أن تشمل وتعم وان تتجاوز الآذان التي تسمعها والالسنه التي تكررهما إلى القلوب والنفوس والضمائر فتستقر فيها مهيمنة عليها موجهة لها .

كم أحب أن تصدر دعوتنا إلى الخير من قلوبنا ومن أعماق ضمائرنا لتبلغ قلوب غيرنا وأعماق ضمائرهم ، فان القلوب تحسن التحدث إلى القلوب ، والضمائر تحسن الإيحاء

إلى الضمائر . ثم سئم أحب آخر الأمر أن يتفكر رجال الدين
ويثدبروا ويذكروا ان دعوة القرآن إلى الخير والبر والأصلاح
ليست أقل حرارة والحاجاً من دعوة الأنجيل ، وان قلوب
المصريين وضمائرهم ليست أقل خصباً واستجابة من قلوب
الفرنسيين وضمائرهم ، وان مصر ليست أقل حاجة إلى
الأصلاح من فرنسا ، وان المصريين ليسوا أقل قدرة من
غيرهم على أن يسمعوا القول فيتبعوا أحسنه وعلى ان يدعوا
إلى الخير والأصلاح فيجيبوا إلى الخير والأصلاح .

وَأَجِبْ

نعم واجبٌ طالما ارجيُ واتصل التقصير في ادائه بأصيَاب كثيرة مختلفة ، منها ما يساغ ومنها ما لا يساغ ، حتى كان التفكير في ادائه منذ أكثر من عشرين عاماً ، حين أراد الأزهر الشريف أن تنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية وإن يكون نقله إلى قلوب المسلمين الذين يحسنون العلم بدقائقه ، ويفهمون أسرارَه حتى فهمها ، ويستنبطون لغته حتى إتقانها ، ويعلمون اللغة الأجنبية التي ينقلون إليها ملكاً يتيح لهم أن يتصرفوا فيها تصرف القادرين عليها ، المطوعين لها ، المجيدين لايداعها أدق المعاني في بلاغة تلائم مكانة القرآن ، ومقامه الرفيع من البيان العربي . وقد أحس الأزهر الشريف أن نقل القرآن ببيانه الرائع

المعجز إلى لغة أجنبية شيء لا مطمع فيه ولا سبيل إليه ،
فأثر التواضع ، ولم يفكر في ترجمة القرآن كما يترجم
غيره من الكتب ، وإنما فكر في نقل معانيه إلى اللغات
الأجنبية اعترافاً بالقصور عن الترجمة بمعناها الدقيق ، وتجنباً
لكثير من الحرج الذي يأتي من الدين والفن جميعاً .

وكان الأزهر موقفاً منصفاً في هذا التواضع ، فالترجمة
في نفسها عسيرة أشد العسر ، وهي ممتنعة بالقياس إلى الآيات
الادبية الرائعة ، فكيف بالقرآن المعجز الذي لم يستطع العرب أن
يأتوا بمثله في لغتهم التي نشأوا عليها وبرعوا فيها وبلغ
الناهون منهم أقصى ما يمكن أن يبلغوا من القدرة عليها
والتطويع لها والسحر بما أتبع لهم من البيان والتبيين .

وقد استجابت الحكومة في ذلك الوقت لارادة الأزهر
وقررت النهوض بالاعباء المادية لهذا الثقل . وارصدت لذلك في
ميزانياتها المتتابعة مقداراً رمزياً من المال يتيح للأزهر أن
يبدأ عمله ، حتى إذا خطا فيه الخطوات الأولى أنفقت
الحكومة على العمل عن سعة وفي غير بخل ولا تقصير .

ولكن الأزهر أكثر الحديث في هذا الموضوع ، ثم
سكت عنه فجأة ، وظلت الحكومة ترصد هذا المقدار
الرمزي في ميزانياتها أعواماً متصلة ، والأزهر ساكن لا
يعمل شيئاً وساکت لا يقول شيئاً .

وأشهد لقد هممت بشيء من نقل معاني القرآن الكريم
إلى اللغة الفرنسية غير مرة ولكنني صرفت نفسي عن ذلك
صرفاً ، لأنني لم أرد أن أقحم نفسي على ما أراد الأزهر

أن يختص به من دون غيره من الهيئات . ومن دون غير
الأزهريين من الناس .

ولكنني أقرأ في جريدة الأهرام حديثاً لحضرة صاحب
الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أفهم منه كما
يفهم غيري أن الأزهر قد أعرض عن هذا الرأي ،
واكتفى بأن يؤلف المختصون من رجاله كتباً ورسائل
تعرف الإسلام إلى الناس على أن تترجم هذه الرسائل إلى
اللغات الأجنبية .

ولست أشك في أن تأليف هذه الكتب والرسائل خير
في نفسه وحق على القادرين عليه من المختصين . وقد كنت
أتحدث في أول الصيف في شيء من ذلك إلى صديقين
كريمين . واقترح أحدهما أن نضع كتاباً تبين فيه حقائق
الإسلام كما ينبغي أن تبين ليقراها أصحاب الثقافات المتوسطة ،
ولينقل بعد ذلك إلى بعض اللغات الأجنبية فيظهر عليه
بعض القراء من الأجانب الذين لا يعرفون الإسلام إلا كما
تصوره لهم بعض الكتب الأجنبية تصويراً فيه الخطأ
والصواب وفيه الانصاف أحياناً والجور أحياناً . وقد أمعنا
في حديثنا ذاك ، ولم نفرق حتى وضعنا منهاجاً لهذا
الكتاب وقسمناه على أنفسنا ، واتفقنا على أن يفكر كل
مننا في النصيب المقسوم له من هذا المنهاج أثناء الصيف على
أن نأخذ في الكتابة بعد انصرام القيظ هنا .

وفي أثناء هذا الصيف وحين كنت في عزلي تلك

الأوروبية القصيرة قرأت كتاباً فرض على التفكير المتصل
فيما كان الأزهر يفكر فيه منذ أعوام طوال ، من ثقل
معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية تصويراً صحيحاً
أو مقارباً .

والكتاب الذي قرأته في تلك العزلة كتاب خطير حقاً
ألفه كاتب إيطالي مسيحي معروف هو الأديب العظيم جوفي
بايني ، وضاعت به الكنيسة الكاثوليكية أشد الضيق
فأنكرته وحرمت قراءته على المؤمنين من أتباعها . ولكن
الكتاب مع ذلك ترجم إلى اللغات الأوروبية الكبرى ،
وقرأته أنا في ترجمته الفرنسية .

وموضوع هذا الكتاب هو الشيطان . والكتاب غير
حقاً لا يلري قارئه أنه كتاب ديني أم هو كتاب أدبي ،
بل لا يلري قارئه أنه كتاب قصد به إلى الجد الخالص
والبحث العلمي الصارم أم هو كتاب نخط به الجد والهزل
وامتزج فيه العلم والأدب .

فالمؤلف يصور الشيطان كما وصفته التوراة وكما وصفه
الإنجيل ، وكما وصفه شراح التوراة والإنجيل ، من آباء
الكنيسة وأخبارها ويعرض آراء قديمة في الشيطان وفي
مصيره ، تغضب الكنيسة أشد الغضب . ولكن الكاتب
لا يقف عند هذا الحد . وإنما يصور الشيطان كما وصفته
آثار الأمم المختلفة قديمها وحديثها على اختلاف دياناتها
ومذاهبها الفلسفية .

ثم يتجاوز هذا كله فيصور الشيطان كما رآه الأدباء
وأصحاب الفنون الجميلة على اختلاف بيناتهم وازمتهم ،
وعلى اختلاف طبائعهم وأمزجتهم وكما رآه هو في بعض
أوقاته .

والكتاب ممتع ما في ذلك شك وهو يدل على علم عميق
وثقافة واسعة بعيدة المدى وإحاطة بشؤون الأجيال المتباعدة
المتباعدة من الناس منذ أخذ الناس يكتبون ويصورون
إلى هذا العصر الذي نعيش فيه ... ولكنه على ذلك
مختلط فيه الجد وفيه الهزل ، وفيه الصحيح وفيه المحال
وان ذهب فيه المؤلف منعب العلماء وتكلف فيه سيرة
للذين يحدّون ولا يعشّون .

وقد وقفني من هذا الكتاب تصويره للشيطان كما وصفه
القرآن الكريم . وهذا التصوير هو الذي اضطرني إلى أن
أفكر فيما أراد الأزهر منذ ربع قرن ، من نقل معاني
القرآن إلى اللغات الأجنبية ... ذلك ان الكاتب الإيطالي
ليس مستشرقاً ، فهو لا يقرأ القرآن في نصه العربي ،
ولما يقرأ هذه الترجمة التي نهض المستشرقون بأعبائها في
اللغات المختلفة وفي العصور المختلفة أيضاً .

ولست أدري أي ترجمة وقعت له لأنه لم يدلنا عليها
ولكنها ترجمة خاطئة مخطئة من غير شك . وقد نتج عن
قراءته لهذه الترجمة واطمئنانه إليها واعتماده عليها شر عظيم
يضيق به الأزهر ، ويضيق به الأستاذ الأكبر أشد الضيق

وينكره المسلمون أعظم الإنكار .

فهو قد قرأ فيما يظهر ترجمة لهذه الآيات الكريمة من سورة الحجر حيث أنبأ الله ملائكته بأنه خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وأمرهم إذا سواه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين .. « فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين » .

وقد ترجمت هذه الآية الأخيرة على أن ابليس لم يكن من الذين يسجلون لأن طبيعته وعلوه في نفسه يرفعانه عن السجود . واستنتج من هذا وباؤس ما استنتج أن ابليس كان أقرب إلى الاسلام من الله لأن ابليس أبى أن يسجد لبشر والاسلام يحرم السجود لغير الله . فكان ابليس أحرص على رعاية الاسلام من الذي جعل الدين عند الله الاسلام ، تعالى الله عما يقول المترجمون الخاطئون المخطئون علواً كبيراً .

ولكن الشيء المهم الخطير هو أن هذا الكتاب قد قرئ بالاطالية والفرنسية وغيرهما من اللغات الكبرى ، وظن كثير من قرائه أن هذا الكلام في القرآن ، وأن الله قد أراد الملائكة على أن يسجلوا لآدم عابدين له من دون الله ، وأن ابليس قد أبى أن يشرك بالله بشراً ، وأن الله عاقبة باللعنة على هذا التوحيد .

فما رأي الأزهر ؟ وما رأي فضيلة الأستاذ الأكبر ؟
ألا يزال الأزهر والأستاذ الأكبر يريان العلول عن نقل

معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية الكبرى ليعرف الاسلام في البلاد الأوروبية والأميركية على وجهه ؟ ألا يوافقني الأزهر والاستاذ الأكبر على ان التخصير في اداء هذا الواجب اثم لا ينبغي أن يتوزط فيه المسلمون بعد أن كثر هذا السخف السخيف الذي يتناقله كثير من غير المسلمين منذ ترجم القرآن في أواخر القرون الوسطى إلى أن ترجم أخيراً في هذا العصر الحديث ، تراجم أقل ما توصف به أنها ليست دقيقة ولا صادقة ولا مقاربة في كثير من أجزائها ، وأنها تنشر الخطأ في كثير من العقول وتلقي في روع كثير من الناس أموراً ليست من الاسلام ولا من القرآن في شيء . وليس كل الغربيين قادراً على أن يقرأ القرآن في نصه العربي ، وليس كل الغربيين قادراً على أن يفهم القرآن ان قرأه في النص العربي ، وليس أوساط الناس مكلفين ان يتحققوا من صدق التراجم التي تنشر لهم ودقتها ولا قادرين على هذا التحقق . بل هم مدفوعون بطبعهم إلى أن يأخذوا هذه التراجم على أنها صحيحة دقيقة كما يأخذون تراجم الكتب الكثيرة التي تنقل اليهم ، وكثير منهم يقرأون العهد القديم والعهد الجديد مترجمين إلى اللغات التي يتكلمونها ، فهم يقرأون تراجم القرآن كما يقرأون تراجم التوراة والانجيل مع هذا الفرق الخطير ، وهو ان تراجم التوراة والانجيل تخضع لمراقبة شديدة عسيرة من السلطات الدينية المسيحية ، ولا تخضع ترجمة القرآن لمراقبة ما إلا مراقبة

لناقدين من العلماء وقلماء يحفل العلماء بهذه المراقبة، وقلماء
يقدرون عليها .

: ليصدقني الأزهر وليصدقني الأستاذ الأكبر ان هذا شر
عظيم غفل المسلمون عنه دهرأ وتغافلوا عنه دهرأ وأصبح
اهماله اثماً يجب أن تبذل الجهود كل الجهود للتخلص منه
والتخفيف من ثقله .

وبعد فما أكثر ما ترجم الأوروبيون القرآن إلى لغاتهم
كما أحبوا أو كما استطاعوا ، وقد أصبح واجباً على المسلمين
ان يترجموا معاني القرآن بأنفسهم إلى هذه اللغات . وما
أكثر ما كتب الأوروبيون الرسائل وألقوا الكتب عن الاسلام
فأخطأوا وأصابوا وأنصفوا وجاروا عن قصد السيل ، وقد
أصبح واجباً على المسلمين ان يعرفوا الاسلام بأنفسهم إلى
غيرهم من الأمم . وإذا كان الأزهر لا يريد ان ينقل
معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية - وانا أجهل عن ذلك -
فلا أقل من أن ينجلي بين المسلمين وبين هذا النقل مجتهدون
فيه حسب طاقتهم دون أن يصرفهم عن ذلك أو يخرج
عليهم فيه أو يثير في سبلهم المصاعب والعقبات .

إن العالم الغربي يفكر في الاسلام ويتحدث عنه أكثر
جداً مما يظن الأزهر والازهريون ، فلا أقل من أن نتيح
له التفكير فيه والتحدث عنه على وجه صحيح وعن علم
دقيق بأسراره وحقائقه . ذلك اجدر ان يعفينا من التقصير
وان يقرب الصواب إلى غير المسلمين .

نعم واجب

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أصدق الشكر وأجمله على مقاله القيم الذي قرأته اليوم في «الجمهورية» ، عن نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية . ولفضيلته كذلك أصدق الشكر وأجمله على ما تفضل به عليّ من ثناء ، وما وجه إليّ من دعاء . واحب أن يطمئن الأستاذ الجليل إلى اني حريص أشد الحرص على ان أكون عند ما يجب من معونته حسب طاقتي على ما يحاول من تبين حقائق الاسلام للناس في الشرق والغرب جميعاً .. ولكنني أعود بعد ذلك إلى الموضوع الذي كتبت فيه منذ حين والذي أثار الأستاذ الجليل إلى الكتابة فيه اليوم وهو ترجمة معاني القرآن إلى اللغات

الأجنبية .

فقد يظهر ان فضيلة الأستاذ الأكبر يوافقي على ان هذه الترجمة واجبة لا ينبغي التخصير في ادائها ، ويوافقي كذلك على أن الأزهر قد فكر في هذه الترجمة واطال فيها التفكير ، وتحدث عنها ، وأكثر فيها الحديث منذ عشرين عاماً ، ولكنه على ذلك لم يصنع شيئاً بل لم يأخذ في هذه الترجمة ، ولم يتم منها قليلاً أو كثيراً .

وكنت أظن ان الأزهر في هذا العهد الجديد ، سيستأنف التفكير الجاد المنتج في هذا الواجب الخطير ، ويأخذ في ادائه دون ارجاء له أو إبطاء فيه مكثفياً بما ضاع من الوقت في التفكير والحديث اثناء هذه السنين الطوال ..

ولست أدرى أخطئ أنا في فهم الحديث الذي نشرته الإهرام للأستاذ الأكبر منذ أسابيع بهذا العنوان الذي لم ينكره الأستاذ الأكبر ، ولم ينكره أحد من الأزهرين وهو ارجاء ترجمة معاني القرآن للغات الأجنبية .

« مشروع جديد لمشيخة الأزهر للتعريف بأحكام الاسلام ومبادئه »

« رجال الدين مسؤولون أمام « الضمير » الانساني عن سلامة العالم » .

وهذا العنوان وحده يصور حديث الأستاذ الأكبر تصويراً دقيقاً ، كما انه يصور المقال الذي نشرته « الجمهورية »

له صباح اليوم ، ففضيلته يرى في صراحة صريحة أن
الغاية التي يقصد اليها من ترجمة معاني القرآن إلى اللغات
الأجنبية إنما هي تعريف حقائق الاسلام للناس في الشرق
والغرب ، تعريفاً صحيحاً صادقاً لا ليس فيه ولا غموض
ولا التواء ..

والاستاذ الاكبر يرى الإسراع إلى تحقيق هذه الغاية
بوضع الكتب والرسائل التي تعرض حقائق الاسلام
وأصوله ، وترجمة هذه الكتب والرسائل إلى اللغات الأجنبية
المختلفة ، ولا يتحدث عن الأخذ في ترجمة معاني القرآن
نفسه اليوم أو غداً أو بعد غد . وأخشى ان يكتفي بوضع
هذه الكتب وترجمتها واذا عنتها ويستغني بذلك عن الموضوع
الذي ألح فيه أشد الإلحاح وهو ترجمة معاني القرآن نفسه
ترجمة دقيقة صادقة يمكن أن يثق الناس بها ويطمئنوا
اليها ويعلموا انها هي التي تصور فهم اعلام الاسلام
للقرآن الكريم .

فهناك فرق واضح أشد الوضوح بين كتاب يقدم إلى
الناس على انه ترجمة لمعاني القرآن قد أقرها رجال الدين
وأطبقوا على اقرارها ، ولم يروا فيها عوجاً ولا انحرافاً
عما ينبغي ان يفهم من نصوص الذكر الحكيم ، وبين
كتاب يقدم للناس على انه عرض لهذه الحقيقة أو تلك من
حقائق الاسلام قد ألفه هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذة
الازهر الشريف أو من غيرهم .

وما أكثر الكتب التي ألفها المستشرقون عن الاسلام ،
والتي يستقيم بعضها لأنه يصلر عن الاخلاص في حب العلم
والصدق في عرضه على الناس وتجنب الهوى والتعصب وحسن
العلم بالتراث الاسلامي وينحرف بعضها عن الجادة لتأثر
المؤلف بالهوى أو لقصوره عن فهم هذا النص أو ذلك من
النصوص الاسلامية على اختلافها .

وقراء العربية يعرفون بعض هذه الكتب لأنها نقلت إلى
لغتهم في عصور مختلفة وبأقلام مختلفة أيضاً . والسليين
يحسنون اللغات الأجنبية يقرأون كثيراً من هذه الكتب في
اللغات التي ألفت فيها أو نقلت إليها فيعرفون وينكرون
ويرضون ويسخطون .

ولست أرى بأساً كما قلت في الحديث الماضي بأن
يشارك الأزهريون في تأليف بعض هذه الكتب والرسائل ،
بل أنا أرى في ذلك الخير كل الخير وأتمنى أن يسرع
الأزهريون إليه وأرجو أن تكون لي في بعضه مشاركة ،
ولكن هذا شيء والموضوع الذي الح فيه وأراه واجباً لا
يحتمل أرجاء ولا إبطاء شيء آخر .

فأنا أريد ألا يرجئ الأزهر نقل معاني القرآن نفسه إلى
اللغات الأجنبية الحية أكثر مما أرجاه إلى الآن . ذلك أن
الناس في العالم الغربي كثيراً ما يحرصون على قراءة الكتب
المقلعة نفسها في لغاتهم التي يتكلمونها أو في اللغات
الأجنبية التي يحسنونها ، وهم يقرأون التوراة والانجيل

ويقراءون كتباً أخرى تقدّمها شعوب لا تؤمن بالسكتب
الساوية ، يدفعهم إلى هذا الحرص حبهم للعلم ورغبتهم
في المعرفة وطموحهم إلى فقه الشؤون الدينية ، مهما يكن
مصدرها . وهم يقرأون تراجم كثيرة للقرآن نشرت منذ
أواخر القرون الوسطى وما زال بعضها ينشر في هذه الأيام
وكان آخر ما وصل إليّ منها ترجمة فرنسية نشرت بعد
الحرب العالمية الثانية للأستاذ الفرنسي رجييس بلاشير أستاذ
اللغة العربية بالسوربون .

وأصحاب هذه التراجم المختلفة يحملون تبعاتها بالطبع
وهي تبعات ثقّال في أكثر الأحيان . والشيء الذي اقطع
له هو ان هذه التراجم لا تقع من نفوس المسلمين المتقنين
لعلوم الاسلام مواقع الرضى ، لأنها تنحرف عن الجادة
من هذه الناحية أو من تلك ، بعضها يخطئ الفهم ويخطئ
الاداء وبعضها ينحرف عن السنة الموروثة في ترتيب القرآن
ويحدث اضطراباً شديداً في نفوس الذين يقرأونه . ولن
يستطيع الأجانب ان يفهموا هذا الموقف الغريب الذي
يقفه المسلمون من كتابهم المقدس الكريم فلا يترجمون
معانيه لهم ولا يقدمون اليهم منه صورة يمكن ان يطمثوا
اليها ويثقوا بها ، على حين تقدم اليهم التراجم المختلفة
للتوراة والانجيل وكل ما يتصل بالتوراة والانجيل من
المباحث والشروح .

والمثل الذي ضربته في الحديث الماضي ليس إلا شيئاً

قليلاً من أشياء كثيرة لا أحب أن اعرض لها الآن ، كما لم يحب الأستاذ الأكبر ان يعرض لها الآن . لا أريد أن أثير خصومة قوية أو ضعيفة بين المسلمين وغير المسلمين ، وإنما أريد ان ينهض المسلمون بهذا الواجب الذي نهض به كثير من غير المسلمين ، يخلص أكثرهم وينحرف قليل منهم عن الاخلاص ويتورط اولئك وهؤلاء في الخطأ الذي لا ينفع احداً والذي يسوء الاسلام ويسوء المسلمين ، عن عمد وغير عمد . والاسلام دين يتجه إلى الناس كافة لا إلى العرب منهم خاصة ، وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن تفرض على الناس ان يقرأوا القرآن في نصه العربي إذا أرادوا ان يعرفوه ، لأن هذا تكليف بالمحال كما يقول الازهريون .

فلا أقل من أن نقرر لهم القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم لتتبع لهم ما يريدون من ذلك دون ان يجلدوا في ذلك مشقة أو عسراً ودون أن يتعرضوا في ذلك للخطأ أو الجهل والتحريف .

وفضيلة الأستاذ الأكبر يوافقي فيها اظن على ان نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية ليس مستحيلاً ولا ممتنعاً وعسى ألا يكون من العسر بحيث يظن المتخرجون .
فأنا لا أريد أن أنقل إلى اللغات الأجنبية ما في بيان القرآن الكريم من روعة واعجاز وإنما أريد أن أعطي الأجانب من القرآن الكريم صورة صادقة تؤدي إليهم

معانيه وان لم تؤد اليهم روعة النظم وجمال اللفظ وبراعة
الاسلوب .

وفي معاني القرآن نفسها من الروعة والبراعة ما يؤثر
في القلوب الانسانية أعظم الاثر وأقواه ، وما لا يترك
كله لا يترك جله ، كما كان يقال لنا في الازهر أيام الشباب ،
وكما يقال لطلاب الازهر الآن فيما أظن . وما أريد أن
يظن فضيلة الأستاذ الاكبر اني قصدت ان اسوء الازهر من
قريب أو من بعيد .. فأنا أعرف للازهر حقه عليّ وأحاول
أن اوّدي اليه بعض هذا الحق ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .
ومن اداء حق الازهر عليّ ان اذكره بالواجب وأدعوه
إلى ادائه والحق عليه في هذا التذكير والدعاء .

فالله يأمرنا ان ندعو إلى الخير ونأمر بالمعروف ونذكر
بالواجب ، والازهر هو الذي علمنا ان الله يأمر بهذا
كله ، فنحن حين نطلب اليه اداء هذا الواجب الخطير في
غير ارجاء ولا ابطاء ولا تريث ، إنما ندله على اننا استمعنا
له فأحسنّا الاستماع ودرسنا فيه فأحسنّا الانتفاع بما تلقينا
من الدروس .

أما بعد فاني ارجو ان يتفضل الأستاذ الأكبر فيعني
أشد العناية وأقواها وأصدقها بنقل معاني القرآن الكريم
إلى اللغات الأجنبية وبتأليف ما يجب تأليفه من الكتب
والرسائل التي تبين حقائق الاسلام للناس . فالاستكثار من
الخير مرغوب فيه دائماً مدعو اليه دائماً ، وفي الازهر والحمد

لله قدرة على النهوض بهذين الأمرين جميعاً ، ومن حول
الأزهر من المسلمين القادرين على معونته من يستجيون له
إذا دعا ، ويعينونه إذا احتاج إلى العون . ولا يغضب
الأستاذ الأكبر من هذه الحملة التي رأى فيها قسوة على
معهدنا العظيم ، فهو يذكر من غير شك أن من القسوة ما
ينفع ، وهو يذكر كذلك من غير شك أن قد أتى على
الأزهر حين من الدهر كان بعض شيوخه يخرجون على
غير الأزهرين أن ينخوضوا في حديث الدين من قريب أو
بعيد ، ويرون ذلك مقصوراً عليهم من دون الناس .
وليس أحب إلي ولا أحسن في نفسي موقفاً من أن
يكون هذا العهد قد انقضى ومن أن يعود الأزهر الشريف
إلى سياحته الأولى فيعمل الخير ويذيعه ويدعو الناس إلى
المشاركة فيه .

فتلك مهمة الأزهر التي طالما دعوناه إلى أن يخلص لها
نفسه وجهده ووقته ونشاطه كله . وأي شيء أحسن موقفاً
في نفوس المسلمين من أن يروا الأزهر قد أقبل على واجبه
يؤديه أصداق الأداء .

حق الخطأ

إذا أسرف مسلم على نفسه واقترف انمأ من الآثام
التي يمقتها الله ويحذر منها عباده المؤمنين ويوعدهم بالعقاب
الشديد والعذاب الاليم إن تورطوا فيها ، فأمر هذا المسلم
لا يخلو من احدى اثنتين :

إما أن يكون قد اقترف خطيئة تؤذي غيره من الناس ،
وتضيق بعض حقوقهم ، وإما أن يكون قد اقترف خطيئة
لا تؤذي أحداً غيره ولا تمس إلا الصلة الدينية الخالصة
بينه وبين الله الذي يعلم سره وجهره ويراقب ضميره حين
يفكر أو يشعر ، وشخصه حين يحسن في العمل أو يسيء .
فإذا كانت الأولى فولي الأمر وحده هو المكلف . إن
يحاكم هذا المسلم وإن يعاقبه على ابدائه للناس واضاعته

لحقوقهم كلها أو بعضها وان يقتصر منه للذين آذاهم أو أصابهم ببعض ما يكرهون .

وولي الأمر هو القائم بالحكم بين الناس وهو مكلف أن يقيم الحدود وان ينصف المظلوم من الظالم وان يكون الضعيف عنده قوياً حتى يظفر بحقه كاملاً وان يكون القوي عنده ضعيفاً حتى يؤدي ما عليه من الحق كاملاً .

وولي الأمر ينهض بهذا العبء بنفسه ان استطاع وبواسطة القضاة الذين ينوبهم عنه في النهوض بهذا العبء حين لا يستطيع . واداء هذا الواجب لا يعني الخاطي من حساب آخر أشد وأقسى وأعظم عسراً من حساب ولي الأمر أو القاضي ، وهو حساب الله له يوم القيامة وعقابه له على ما قدم بين يديه من السيئات . والله مع ذلك يفتح لهذا الجاني أبواباً واسعة من الأمل في عفوه ومغفرته ورحمته أن تاب وأصلح وكف عن مقارفة السيئات .

فعقاب السارق والقاتل والغاصب والمعتدي على حقوق الناس بوجه عام ، عقاب هؤلاء في الدنيا لا يعفيهم من حساب الله لهم في الآخرة . والله عز وجل يعاقبهم بعد هذا الحساب ان شاء ويعفو عنهم ان شاء ، ويبدل سيئاتهم حسنات ان شاء .. بهذا كله ينبئنا الله عز وجل في كتابه العزيز ، وفي آيات كريمة منه كثيراً ما اظن اني غير محتاج إلى اثباتها في هذا الحديث لأنها تتلى على المسلمين حين يصبحون وحين يمسون .. والخطأ في اقرار هذه الآثام التي تمس

حقوق الناس لا يعفي الخاطئ من التبعات في الدنيا والآخرة
 خفف عنه ثقل هذه التبعات تخفيفاً عظيماً .
 فمن قتل خطأ وجب على الحاكم ان يأخذه بخطئه
 ويلزمه تعويض اولياء الدم عما أصابهم من جانيته ... وذلك
 بأداء الدية اليهم ، ولكن لا يجوز للحاكم ان يقتص منه
 ويقتله بمن قتل خطأ .. فأما فيما بين الله فان الله
 يعفو عن الخطأ لقوله عز وجل « ولا جناح عليكم فيما
 أنخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً
 رحيماً » . والله قد أنبأنا بأنه قد يعفو عن الخاطئ المتعمد
 إن تاب وآمن وعمل صالحاً فقد يبدل سيئاته حسنات .
 والله يقول في سورة الفرقان « والذين لا يقتلون النفس
 التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق
 أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من
 تاب وآمن وعمل صالحاً ، فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ،
 وكان الله غفوراً رحيماً » . وان كانت الثانية ولم يجن الخاطئ
 المتورط في الأثم والكبيرة على احد غيره من الناس ، وإنما
 جنى على نفسه وحدها فضييع حقاً من حقوق الله التي لا
 تمس حقوق الناس من قريب أو من بعيد فأمره إلى الله
 وحده وحسابه على الله وحده ، وليس لأحد من الناس
 كائناً من يكون ان يحاسبه أو يعاقبه ، وإنما يجب على
 المسلمين وعلى حكامهم وعلمائهم ان يأمروه بالمعروف
 وينهوه عن المنكر ويدعوه إلى الخير ويحذروه من الشر ،

وقد يستطيع الحاكم ان يُعذّره باللوم أو ببعض العقاب الذي لا يُلحق نفسه ولا يضيع حقه .

أما ما بينه وبين الله فلسنا نعلم من أمره إلا ما أنبأنا الله به في القرآن من انه أعدّ للذين يقترفون الكبائر عذاباً أليماً ، ومن انه غفور رحيم يعفو ان شاء عن مقترف الكبيرة إن تاب وأصلح ، والله عز وجل يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » . ويقول : « إنما التوبة على الله للذين يعملون سوءاً بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ... »

ويجب ان تفهم الجهالة في الآيتين بمعناها العربي القديم الذي جاء في القرآن الكريم غير مرة وهو التسرع عن غير روية ولا تفكر ولا اناة فهي هنا نقبض الحلم لا نقبض العلم كما قال الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزاة
وتخالنا جنساً إذا ما نجهل

وكقول عمرو بن كلثوم :

الا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فتارك الصلاة وتارك الصوم وتارك الحج حين مجد اليه
مسيراً من الخاطئين الذين أعد الله لهم عذاباً أليماً وأعدّ

لحم الرحمة والمغفرة والعفو ان تابوا من قريب وأصلحوا ..
هذه كلها أوليات مفهومة من الدين بالضرورة ، كما
يقول الأزهريون ، ومفهومة من الدين بنص القرآن الذي
لا يقبل تأويلاً ولا تبديلاً ...

فما عسى أن يكون موقف ذلك الأستاذ الأزهري الذي
قال مقالته تلك في الصوم فأغضب الشيوخ وأثار هذه
القصة التي يظهر أنها لم تنقض بعد ... انه لم ينكر ان
الصوم ركن من أركان الاسلام ولم يسمح للناس ان يفطروا
إن شاعوا بغير قيد ولا شرط . وإنما فهم نصاً من نصوص
القرآن الكريم فهماً لا يقرّه عليه الشيوخ ، وأعلن رأيه
للناس .. قرأ قول الله عز وجل « وعلى الذين يطيقونه
فدية طعام مسكين » . وفهم من هذه الآية ما فهمه بعض
المفسرين القلاء ومنهم الزنجشيري مثلاً ، من ان الذين
يجدون المشقة في الصوم يستطيعون ان يفطروا وان يفتدوا
من ذلك باطعام مسكين .. وقرأ آيات في القرآن وفهمها
على غير ما يقرأ الشيوخ ، قرأ قول الله عز وجل « يريد
الله أن يخفف عنكم » ، « وخلق الانسان ضعيفاً » ، وقوله
« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقوله « وما
جعل عليكم في الدين من حرج » ورأى النبي صلى الله
عليه وسلم يقول فيما روى البخاري : « إنما بعثتم مبشرين
لا معسرين » ، ويقول فيما روى البخاري أيضاً : « ألا
ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضاً
قطع ولا ظهراً أبقى » .

قرأ هذا كله وقرأ نصوصاً كثيرة أخرى غيره واعتقد
ان الاسلام لا يأخذ الانسان بالمشقة ولا بالعنف وإنما
يأخذه باللين والرفق لأن الانسان خلق ضعيفاً . وقد علم
الله المسلمين أن يسألوه ألا يحمل عليهم إصراراً كما حمل على
الذين من قبلهم وألا يكلفهم ما لا طاقة لهم به... ورأى
كثيراً من المسلمين يظهرون الصوم إن لقوا الناس أو لقوا
بعض الناس ويفطرون حين يخلون إلى أنفسهم وإلى أمثالهم
من الذين يقول الله فيهم « يستخفون من الناس ولا
يستخفون من الله وهو معهم » . فأشار على هؤلاء بأن
يفطروا إن وجدوا المشقة في الصوم وبأن يفتدوا من هذا
الافطار باطعام مسكين . واعتقد فيما بينه وبين نفسه وفيما
بينه وبين الله انه بهذه المشورة ينصح للاسلام والمسلمين
فينهى الناس عن النفاق ويحثهم على الصدقة . والله ليس
في حاجة إلى صيام الصائمين . والمساكين من الناس في
حاجة أشد الحاجة إلى أن يطعمهم القادرون على اطعامهم
مؤثرين للصدقة أو مفتدين بها من الصوم .

كذلك رأى هذا الاستاذ ، ولست أقول أنه أصاب ،
ولست أقول انه أحسن فيما صنع ولكني أقول انه لم يعتمد
خروجاً من الدين ولا مخالفة عن امر الله ولا انحرافاً
عن نصوص القرآن وما صح من الحديث . فأقصى وأقصى
ما يمكن أن يقال في شأنه انه اجتهد فأخطأ .. وليس
على من اجتهد حرج في أن يخطئ ، وما أكثر

المجتهدين الذين أخطأوا فلم يقض عليهم أحد بالكفر ، ولم
 يُتهموا بالخروج من الدين ، ولم يحاول أحد أن يحاكمهم أو
 يعاقبهم أو يطلب إلى القضاء أن يفرق بينهم وبين أزواجهم ،
 وليس لأحد أن يتهمهم بشيء من ذلك أو يقدمهم إلى
 القضاء في شيء من ذلك ، أو يحاول التفريق بينهم وبين
 أزواجهم لشيء من ذلك .. فكل شيء من هذا القليل
 اعتداء على حق المسلم في أن يجتهد في رأيه وينصح الله
 والناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ولا ينبغي أن يقال
 إن ذلك الاستاذ لم يبلغ منزلة الاجتهاد ، فمنزلة الاجتهاد
 هذه شيء غامض غير محدود ولا واضح الاعلام ، ولم يستطع
 أحد من شيوخوا في الأزهر أن يحدد لنا منزلة الاجتهاد
 هذه ولا أن يبين لنا متى يبلغها الناس ومتى يقصرون عن
 بلوغها . ولكن المسلم الذي يقرأ كتاب الله ويفهمه كما
 يستطيع الناس أن يفهموه ، ويقرأ حديث النبي صلى الله عليه
 وسلم ويفهمه كما يستطيع الناس أن يفهموه أيضاً ، ثم يشارك
 فيما اتفق الناس على أن يسموه علوم الدين فيأخذ بحظ من
 الفقه وأصوله ومن الكلام ومذاهب الناس فيه ويشهد له
 بهذا كله الأزهر الشريف الذي يعطيه اجازة مكتوبة معتمدة
 من الدولة تشهد بأنه عالم من علماء الدين ..
 هذا المسلم ليس عليه بأس ان حاول الاجتهاد مخلصاً
 في اجتهاده ناصحاً فيه للإسلام والمسلمين : وذلك الامتياز
 قد ظفر بتلك الاجازة كما ظفر بها حضرة صاحب الفضيلة

الاستاذ الاكبر وزملاؤه من أعضاء هيئة كبار العلماء وزملاؤهم من علماء الازهر الشريف جميعاً ، وإذا كان شيوخنا الاجلاء يأبون على أنفسهم الاجتهاد ويكتفوا بتقليد واحد من الائمة الاربعة خوفاً من الزلل ، واشفاقاً من الخطأ وايتاراً للعافية ، فذلك حقهم لا ينزعهم فيه أحد ، ولكنه لا يبيح لهم أن يأخذوا الناس بأن يكونوا مقلدين مثلهم ، هم أحرار في التقليد وغيرهم حر في الاجتهاد ، والله غالب على أمرهم جميعاً ، سيسأل المقلدين عن تقليدكم وميسأل المجتهدين عن اجتهادهم ، وسيجزى كلاّ منهم بعمله جزاء لا يشك في عدله الا الجاحلون .

واذن فقيم كل هذه الضجة وفيم كل هذا الجدل .. رجل اجتهد ومن حقه أن يجتهد ، فان يكن أصاب فأجره على الله وان يكن انخطأ فحسابه على الله ، وليس لأحد من الناس ، لا من رجال الحكم ولا من رجال الازهر ، أن يحاسبه على ذلك أو يعاقبه ، لأنه لم يعتمد على حق من حقوق الناس ، لم يسفك دماً حراماً ولم يأخذ مالا حراماً ، ولم يؤذ أحداً في شيء تعاقب القوانين على ابداء الناس فيه .

كل ما يمكن ان يقال : هو انه انخطأ في حكم من أحكام الدين ، فمن حق العلماء ان يبينوا له خطأه وان يدلّوه على الصواب ، ويدعوه إلى أن يثوب اليه . فأما أن يحاكموه أو يعاقبوه أو يؤدّبوه أو يقدموه إلى القضاء

ليفرق بينه وبين أهله فذلك شيء لا يبيحه لهم الاسلام ،
وهم ان فعلوه يعطون أنفسهم حقاً لم يعطه الله لهم ، فهم
يتجاوزون حدودهم ويظلمون هذا الامتاز ويستحلون لانفسهم
ما لا يملكون .

ولست أدري إلى ما انتهت إليه هذه القصة الآن ولست
أعلم حين املي هذا الحديث أبرئ هذا الأستاذ أم أدين ؟
ولكن الشيء الذي أقطع به هو ان محاكمته من أجل رأيه
في الصوم اسراف وانحراف عن أصول الاسلام ومسته
السمحة ... ولا بد من ان يعود علماء الاسلام في الازهر
إلى قصد السبيل بعد أن جار بهم السلطان عنه ، واستحب
فريق منهم هذا الجور في وقت من الاوقات .. فليس
لعلماء الاسلام حق في ان يحاكموا مسلماً أو يعاقبوه لأنه
اجتهد رأيه فأخطأ أو أصاب ... ذلك ان الاسلام لا
يعرف الاكليروس . ولا يعرف هذه السلطة الدينية العليا
التي يستأثر بها فريق من رجال الدين ، فيحكمون بإيمان
هذا الرجل وكفر ذاك . وقد عاش المسلمون قروناً قبل
أن يوجد الازهر الشريف ، فلم يعرفوا هيئة تحاكم الناس
على الاجتهاد في الرأي ، وهم قد كرهوا من الخليفة
المهدي تتبعه للزنادقة واسرافه في هذا التبعية وأخذ به بعض
الناس بالشبهة وقتله بالظنة ، وهم كرهوا كذلك اسراف
المأمون حين أراد ان يحمل الناس على الايمان بخلق القرآن ،
وحين امتحن بذلك جماعة من أئمة المسلمين ..

والازهر نفسه قد عاش قروناً لم يكن يملك فيها ان يحاكم أو يعاقب على الرأي ، وإنما كان يملك ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الخير كما أمر الله في كتابه العزيز . ولم يتح هذا الحق للازهر إلا في آخر الزمان وفي هذا القرن الذي نعيش فيه ، حين انشئت هيئة كبار العلماء واعطيت ما أعطيت من الحقوق ، وكان اعطاؤها الحق في محاكمة الناس ومعاقبتهم على الرأي بدعة لم يعرفها الاسلام من قبل . وكان من الحق على الازهر ان يذكر الحكومة التي أعطت هيئة كبار العلماء تلك الحقوق ان في ذلك بدعة ، وان شر الامور محدثاتها ، وان كل بدعة ضلالة وان كل ضلالة في النار ، كما كان ابن مسعود رحمه الله يتحدث إلى تلاميذه في الكوفة . وقد اختلف ائمة المسلمين في أمور كثيرة ، اختلفوا في الفقه واختلفوا في الكلام واختلفوا في السياسة وشنع بعضهم على بعض وأسرف بعضهم على بعض في التشنيع ، ولكن أحداً منهم لم يقدم إلى المحاكمة ولم يفرض عليه عقاب شديد أو يسير ... ونحن نقرأ من تشنيع بعض العلماء على بعض طرائف لا تحصى ، نقرأ في كتب ابن حزم مثلاً ان الاشعري كان قد أهدر دمه حين رأى هذا الرأي أو ذاك في الكلام ، وان اصحاب ابي حنيفة قد أهدروا نصوص القرآن وتكلفوا على النبي ما لم يقل من الحديث حين رأوا هذا الرأي أو ذاك في الفقه ... ولكن هذا كله لم يعد أن يكون كلاماً يقال ،

فأما ان يحاكم فقيه أو متكلم على رأي له في الفقه أو الكلام ، وان يكون الدين يحاكمونه من الفقهاء أو المتكلمين ، فذلك شيء لا يعرفه المسلمون إلا منذ انشئت في مصر هيئة كبار العلماء ... وأغرب ما في هذه القصة ان صاحب تلك المقالة في الصوم لم يبتكر شيئاً ولم يقل جديداً ، وإنما سبقه علماء من المسلمين إلى مثل هذا الرأي ... وقد أشرت في أول هذا الحديث إلى انه لم يبتكر تفسير آية الصوم التي اعتمد عليها في رأيه ذاك وانما سبق اليه مفسرون قدماء ذكرت منهم الزمخشري .

وقد سبقه إلى رأيه من الفقهاء القدماء الذين لا يكفرهم الأزهريون جماعة أذكر منهم ابن حزم ، ولست اعرف ان الزمخشري حوكم على تفسيره لهذه الآية الكريمة ، ولا ان ابن حزم قد حوكم على اباحة الافطار والفدية لمن وجد المشقة في الصوم ... ولكن آفة الأزهريين المعاصرين انهم يقرأون كتباً بعينها قد فرضتها عليهم ظروف الأزهر في بعض العصور ولا يكادون يقرأون غيرها من الكتب التي كتبها علماء الاسلام في العصور الأولى وفي البلاد الاسلامية المختلفة وهم من أجل ذلك يحصرون العلم والدين في حدود ضيقة جداً هي حدود الكتب التي يقرأونها والعلم أوسع جداً من هذه الكتب ، والدين أوسع جداً وأسمح جداً مما يسواه الأزهريون . ولولا اني احب الأزهر حباً متأصلاً في نفسي وأرفق بالأزهريين كما أرفق بالصاديق الحميم لقلت أكثر من

هذا ... ولكنني على كل حال أتمنى مخلصاً للأزهريين ولعلمائهم
خاصة ان يقرأوا القرآن نفسه وان يقرأوا الحديث في نصه
أكثر مما يقرأون كتب الفقه وكتب المفسرين المتأخرين .
ولست اعرف شيئاً يعلم المسلم مساحاة الرأي ومساحاة
الخلق وأخذ الأمور بالرفق واللين والحكم على الاشياء في
غير تكلف ولا تعقيد ، كالامعان في قراءة القرآن الكريم
والحديث الشريف ، والاقتصاد في الرجوع إلى المفسرين
والشراح بحيث لا يُرجع اليهم إلا عند الضرورة القصوى .
أما بعد فأظن أنني قد بلغت بهذا الحديث ما حاولت من
اثبات ان من حق ذلك الشيخ الذي قال مقالته تلك في
الصوم ان يجتهد وان يخطئ وان ليس لأحد من الناس وان
كانوا شيوخ الأزهر ، وعلى رأسهم صاحب الفضيلة الأستاذ
الأكبر ان يحاكمه أو يعاقبه على شيء من ذلك ، وان
لهم ان يجادلوه بالتي هي أحسن ، وأن يأمروه بالمعروف
وينهوه عن المنكر ويدعوه إلى الخير لا يتجاوزون ذلك ،
إلى أكثر منه لأنهم لا يملكون ان يتجاوزوا ذلك .
أما ما كتبه الأزهريون الذين حاولوا ان يردوا على
الحديث الذي نشرته « الجمهورية » لي قبل سفري من مصر ،
فليس لي رد عليه إلا قول الله عز وجل : « خذ العفو
وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین » . وقوله : « وعباد
الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا تخاطبهم
الجاهلون قالوا سلاماً » .

حتى بعد الحكم

وكذلك صمم الأزهر الشريف على ما صمم عليه
فحاكم وعاقب في غير موضع للمحاكمة ولا للعقاب .
لم يحفل بطبيعة العصر الذي يعيش فيه ، ولم يحفل بنصح
الناصحين له ، واشفاق المشفقين عليه وتذكير الذين ذكروه
بأن الله قد رفع الخطأ عن الناس ، وبأنه يحب العفو والمغفرة
ويؤثرهما على السطوة والبطش والانتقام .
ولو ان الذين ذكروا الأزهر بهذا كله تحدثوا اليه فيه
من عند أنفسهم ، لكان اعراضه عنهم واستخفافه بتذكيرهم
له ، ولكنهم تلوا عليه آيات من القرآن الكريم ورووا
له أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من حق
هذه الآيات وهذه الأحاديث ان تجد طريقها إلى قلوب

الشيوخ الاجلاء ، وان تذكرهم بأيام الله وتحبب اليهم البر
والمعروف والرفق والتأني برسول الله صلى الله عليه وسلم
الذي أحب الحق وحببه إلى الناس والذي طالما ذكر الناس
بأن الله قد رفع عن امته الخطأ والنسيان وما يستكره
الناس عليه .

أعرض الأزهر عن هذا كله ومضى أمامه راكباً رأسه ،
لا يلوي على شيء ولا يسمع لانسان ، ولا ينتفع بموعظة .
وأكبر الظن ان شيوخ الأزهر يعتقدون أنهم مضوا في ذلك
غضباً لدين الله ، وأكبر الظن أنهم يحمدون ذلك من
أنفسهم ، ويرون أنهم قد أدوا ما عليهم من الواجب
فقسوا حيث تجب القسوة ، وسطوا حيث تجب السطوة ،
وجعلوا من ذلك الاستاذ نكالا لغيره من الأزهرين الذين
قد تحدثهم نفوسهم بأن الله قد خلقهم أحراراً ووهبهم
عقولا ، وأمرهم أن يفكروا ويتدبروا ، ويعملوا عن
تفكير وتدبر لا عن محاكاة وتقليد . يخطئون أحيانا فيغفر
الله لهم خطأهم ويصيبون أحيانا فيكتب الله لهم صوابهم
ويشبههم عليه أحسن المثوبة .

وقد أصبح ذلك الاستاذ بالفعل نكالا لزملائه من
رجال الأزهر ، فلن يحاول بعد اليوم واحد منهم أن يفكر
أو أن يكتب أو أن ينشر رأيا في أمر من أمور الدين ،
حتى يحسب لمحاكمة الأزهر وعقابه حساباً أي حساب ،
سيفكر الأزهريون إذن في سطوة الناس قبل ان يفكروا

في سطوة الله ، وفي عقاب الناس وثوابهم قبل أن يفكروا
في ثواب الله وعقابه ، وسيتحرون رضى الشيوخ قبل أن
يتحروا رضى أنفسهم وضماثرهم وعقولهم .

وقد يرون الخطأ وينكروونه فيما بينهم وبين أنفسهم وفيما
بينهم وبين ربهم ، ولكنهم يذعنون له ويسكتون عليه
ويظهرون العمل به والرضى عنه ، مخافة أن يتعرضوا لمثل
ما تعرض له ذلك الأستاذ من التشهير به والتشنيع عليه
والمحاكمة له وأخذه بالعقاب .

وكذلك يفرض التقليد على الأزهرين فرضاً ويغريهم
خوف الفتنة بالتورط في الفتنة . واي فتنة أشد نكراً
وأقبح في حياة الناس أثراً من أن يعتقد الانسان انه يرى
الحق ثم يكتمه عن الناس ، ومن ان يعتقد الانسان انه
يرى الباطل ثم لا يحذر الناس منه ولا يصدّهم عنه ، وإنما
يخلي بينهم وبين ما هم فيه غير حافل بعواقب هذا التقصير
في ذات الله والتفريط في جنبه ، لا شيء إلا لأنه يخشى
ان يقدم للمحاكمة أو يؤخذ بالعقاب .

قلوة سيئة كنا نتمنى أن يكون الأزهر آخر من يقدمها
إلى الناس ، وكنا نتمنى أن يكره الأزهر لنفسه ولرجالها
احتمال أوزارها وأوزار من يتأثر بها من غير الأزهرين .
ومع ذلك فقد كان ما أراد الأزهر أن يكون وحوكم
أستاذ من أساتذة الأزهر ، وعوقب لا لأنه خالف عن
قانون من قوانين الأزهر ، ولا لأنه خالف عن نص من

نصوص القرآن ، ولكن لأنه حاول أن ينصح الاسلام
والمسلمين فأخطأ طريق الصواب فيما رأى شيوخ الأزهر .
ووقع كل هذا في القرن العشرين وفي عهد يعتقد المصريون
فيه أنهم قد تخففوا من أثقال الماضي وأوزاره ، وتحرروا
من قيود الماضي وأغلاله ، وتهيأوا لاستقبال حياة جديدة
تقدر فيها كرامة الناس أفراداً وجماعات ، وحق الناس في
أن يحملوا تبعاتهم أحراراً كراماً ، لا يحملون على غير ما
يريدون ولا يؤخذون بغير ما يريدون ولا يفرض عليهم
الرأي فرضاً ، ولا يعاقبون على الخطأ الذي لا يعاقب
الله عليه .

والشر العظيم بعد هذا كله هو ان الأزهر يتلقى الوفاً
كثيرة من الطلاب يلتحقون به في آخر الصبا وأول الشباب ،
وينفقون فيه صفوة أعمارهم ويتأثرون فيه بهذه التقاليد التي
لا تلائم العصر الذي يعيشون فيه ، ولا تلائم البيئة التي
يعيشون فيها ، ولا تلائم الصريح الصحيح من دين الله
كما انزله في كتابه العزيز وكما فصله في لسان نبيه الكريم
وسيرته .

وكذلك ينقسم شباب الأمة المصرية إلى فريقين : فريق
يقلد بحكم القانون ويحاكم ويعاقب ان خالف عن هذا
التقليد ، وفريق آخر يحرره التعليم من كل تقليد في الرأي
ويعرفه كرامته ويزين في قلبه حبها والنود عنها واحتمال
المكروه في سبيلها ، وتشطر الأمة بذلك شطرين :

شطر المحافظين الذين لا يجوز لهم ان يجتهدوا ولا ان يخطئوا .

وشطر الاحرار الذين يجوز لهم بل يفرض عليهم الاجتهاد ويجوز الخطأ والصواب جميعاً .
وليس بد لمصر من أن تأتلف ابناؤها على مذهب واحد في الحياة العقلية ، فاما الحرية الكريمة الخصبة واما المحافظة المهينة العقيم .

احدى اثنتين ، إما ان تسلك الجامعات والمعاهد العلمية سبيل الأزهر فتعاقب على الخطأ وتثيب على التقليد .
واما ان يسلك الأزهر سبيل الجامعات ومبيل المسلمين الأولين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فيبيح لرجاله وابنائهم ان يكونوا كراماً أحراراً ، لا يحاكمون إلا حين يعتدون على حقوق الناس أو يتجاوزون الحدود التي أمر الله بعقاب من يتجاوزها .

فأما ان ينقسم المصريون هذا الانقسام إلى المستمسكين بالمحافظة في أبغض صورها إلى الله والناس ، والمستمسكين بالحرية التي تليق بكرام الناس والتي يجب على الدولة أن تتيحها لهم وتحفظها عليهم وتحميها من كل عدوان، فهذا هو النكر كل النكر وهو الشر الذي يجب على الدولة ان تتجنبه وان تحمي الشعب من نتائجه وعواقبه
لن يصبح الامر مقصوراً على قصة الصوم تلك التي حوكم فيها وعوقب عليها ذلك الاستاذ ، ولكنه سيتجاوز هذه

القصة إلى الرأي كله في أي أمر من أمور الدين أولاً ،
ثم في أمور الدنيا بعد ذلك ، والله لا يحب التقليد في أمور
الدين ولا في أمور الدنيا ، لأنه لم يمنح الناس عقولهم
عبثاً ، ولم يكلفهم التدبر والتفكير إلا وهو يعلم أنهم
بطبيعتهم معرضون للخطأ والصواب حين يتفكرون
ويتدبرون .

وقد شكت مصر في العصر الحديث من هذا الانقسام
إلى الأحرار والمقلدين ، وجنت من هذا شراً أي شر .
وهل كان شقاء الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أثراً من
آثار هذا الانقسام ؟ تحرر في بيته لم تكن تحب الحرية ،
فلقي من المكر به والكيد له والتألب عليه شيئاً عظيماً .
ومع ذلك لم يستطع الأزهر أن يحاكمه ولا أن يعاقبه
وإنما خاصمه وجادله ، وآذاه بعض الأزهرين بألستهم
وأقلامهم ، فلم يضروه ولم يضروا حرته شيئاً ، بل تأثر
به كثيرون من شباب الأزهرين ، ففكروا في أمور الدين
والدنيا أحراراً كراماً ، ونفعوا وانتفعوا بهذا التفكير الحر
الكريم .

أليس غريباً أن تقصر يد الأزهر عن محاكمة الاستاذ
الامام رحمه الله ، على كثرة ما ضاق به الأزهر وعلى كثرة
ما كاد له الشيوخ وعلى كثرة ما سخط عليه السلطان ، وإن
يتاح ليد الأزهر أن تطول وتطول حتى تحاكم استاذاً على
أنه قال في الصوم مقالة لم تعجب الشيوخ بعد أن مضى

على وفاة الأستاذ الإمام نصف قرن ؟

كم أحب أن أعلم أنمضي نحن إلى الإمام أم نرجع إلى الوراء ؟ أكون أول القرن الذي نعيش فيه اسمح سباحة وأكثر حرية من متصفه ؟

وهذا الحكم الذي أصدره الأزهر على الأستاذ ما قيمته وما نتيجته ؟ أظن شيوخنا الأجلاء أنهم حين يمنعون ذلك الأستاذ من التعليم سيكفون شره عن الناس أن كان شريراً ؟

إنهم قبل كل شيء لن يغيروا طريقته في التفكير ولا مذهبه في قراءة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها والتعرض للخطأ مرة وللصواب مرات . وهم لن يمنعوه من أن يلقي الناس ولا من أن يتحدث إليهم ولا أن يكلمهم في أمور الدين كما يكلمهم في أمور الدنيا . وعسى أن يكون الحكم عليه مغرياً للشباب بلقائه ، والتحدث إليه والاستماع له والاختصاص . ببعض آرائه ، وعسى أن يكون هذا الحكم مشجعاً له على ما كان الأزهر يريد أن يصد عنه .

ألم يكن الخير كل الخير والمصلحة كل المصلحة في أن يؤخذ هذا الأستاذ بالرفق والنصح ، وأن يؤمر بالمعروف امراً يصدر عن الحب في ذات الله والانخلاص لرجل من المسلمين ؟ والشيوخ يقولون أنهم دعوه إلى الخير فأبى عليهم وأرادوا أن يجادلوه فرفض الجدل .

أحق هذا ؟ كلا ليس هذا من الحق في شيء . إنهم لم يدعوه إلى الخير وإنما دعوه إلى التحقيق ، ولم يأخذوه بالنصح وإنما أخذوه بالطاعة والاذعان ، ولم يأمرهم بالمعروف وإنما أمرهم بالتقليد . وليس التقليد من المعروف في شيء .

ليُصدقني رجال الازهر ان قصتهم هذه فتنة نرجو ان يقي الله المسلمين شرها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا أعيد النظر في قوانين الازهر وحُرِّم عليه تحريماً ان يعاقب الناس على الخطأ في الرأي .

ولتُصدقني الحكومة ان عليها للدين وللناس واجباً ، وانها تسرف على نفسها وعلى الناس إذا قصرت أو تأخرت في اداء هذا الواجب ، وهي أن تحمي الناس من المحاكمة على آرائهم في العلم والدين ومن عقابهم على الخطأ في العلم والدين أيضاً .

من حق الازهر ومن الحق عليه ان يقول للمخطئ في أمر من أمور الدين انخطأت ، وان ينهي الناس عن مجاراته في الخطأ ، وان يقول للمصيب في أمر من أمور الدين أصبت ، وان يدعو الناس إلى مجاراته في الصواب ، فأما ان يحاكم المخطئ ويعاقبه فلا .

وأنا بعد هذا كله أدعو رجال الازهر أن يدلونا على نص في كتاب الله أو في سنة رسوله تبيح لهم ان يحاكموا الناس ، أو يعاقبهم على الخطأ الذي وعد الله بالعفو عنه

إذا تاب المخطئون وأصلحوا ، بل إذا تاب الخاطئون وأصلحوا . وما أعظم الفرق في دين الله بين المخطئين والخطئين ! وبيننا وبين شيوخنا أصلح الله بالهم ، آيات كثيرة في القرآن الكريم ذكرت بعضها فيما قدمته من حديث . واكتفي الآن بهاتين الآيتين الكريمتين :

يقول الله عز وجل في سورة الانعام : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » .

ويقول الله عز وجل في سورة الاحزاب : « وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » .

بهذا تحدث الله إلى عباده رؤوفاً بهم عطوفاً عليهم ، وبغير هذا تحدث الشيوخ إلى زملائهم وساروا فيهم : أما أنا فلا أصدق ولن أصدق إلا حديث الله عز وجل ومن أصدق من الله حديثاً ؟

الخطوة الثانية

كانت خطوة رائعة تلك التي خطتها الحكومة حين قررت توحيد القضاء ، فحققت حلماً كان يداعب نفوس الناس منذ زمن بعيد ، ولكن الاوهام كانت تحول بين الحكومات الماضية وبين تحقيقه . وقد قال الناس في توحيد القضاء فأكثروا وأشعروا الحكومة بأنها كانت موفقة حين اتخذت هذا القرار ، معبرة عن ارادة الشعب وعن ارادة المثقفين منه بنوع خاص . وما أريد ان أعيد الحديث في هذا الموضوع فقد يحسن ألا يشغلنا ما كان عما ينبغي ان يكون . وما دام توحيد القضاء قد أصبح حقاً واقعاً فلندع الحكومة الى أن تخطو خطوة ثانية ليست أقل منها خطراً ، وعسى ان تكون أبعد منها أثراً فيما ينبغي للحكومات الرشيدة

أن تفكر فيه وتسعى إليه ، وهو توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائها من الآماد ، لا أقول في حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها بل في حياتهم العقلية . لأن هذه الحياة هي أساس التفكير وهي قوام العمل وهي التي تتيح للشعب أن يفكر تفكيراً متجانساً ، وأن يعمل عملاً مطرداً لا ينافي بعضه بعضاً ولا يلغي بعضه بعضاً ، وهذه الخطوة الثانية هي توحيد التعليم في طور الصبا والشباب .

وأنا أعلم أن هذه الدعوة ستثير سخط فريق من المحافظين وربما اقضت مضاجع أفراد منهم ، ولكن المحافظين في كل بلد مستيقظ يعرف نفسه ويهيء مستقبله ويجاري التطور مقضي عليهم أن يسخطوا دائماً لأنهم يحبون الوقوف والدنيا من حولهم تحب الحركة ، وربما أحب فريق منهم الرجوع إلى الوراء والدنيا من حولهم تحب الماضي إلى أمام . فهم مضطرون إلى هذه الحياة التي لا تعرف رضى ولا اطمئناناً يؤثر الكسل ، والحياة تؤثر النشاط ، ويحرصون على القديم كله والحياة حريصة على التجديد وعلى ألا تستبقى من القديم إلا ما يصلح للبقاء ولا يناقض التطور ولا يؤخره . وهذه الخطوة الثانية ليست جديدة وليست قديمة ، فقد فكرنا فيها منذ زمن بعيد وتحدث بها بعضنا إلى بعض في مجالسنا الخاصة ، ودعا إليها بعضنا في الصحف ، شأنها في ذلك كشأن الخطوة الأولى التي خطتها الحكومة حين قررت توحيد القضاء . فلن ينكرها أحد من الذين يقدرون التطور

ويفهمون حياة الشعوب حتى فهمها ويريدون الرقي مخلصين
له مصممين عليه .

وأقول كذلك ان هذه الخطوة الثانية ليست قدمسة
بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فقد عاش المسلمون قروناً لا
يعرفون هذا التفريق الذي نعرفه بين حياة الدين وحياة
الدنيا ، وانما يجمعون بينهما لأن الله قد جمع بينهما ، فأرسل
رسوله الى الناس كافة وفرض أحكامه على الناس كافة ،
وواجب عليهم جميعاً ان يكونوا مؤمنين صادقين يعرفون
من حقوق الله ومن حقوق الناس ما يجب ان يعرفوا ، حتى
لا يفرطوا في جنب الله ولا يقصروا في ذات الناس . وحتى
يتحقق العدل الشامل الذي أراد الله ان يكون قواماً لحياة
الناس . ولم يعرف المسلمون في عصورهم الاولى هذه الحياة
التي نعرفها نحن الآن ، والتي تأخذ الصبي من حياته العاملة
لتضطره شطراً طويلاً من عمره الى نشاط خاص لا يشاركه
فيه غيره من المواطنين ، يفرغ فيه منذ صباه الاول لعلوم
اللغة والدين ، حتى اذا تجاوز الصبا وأضاع زهرة الشباب
أصبح رجلاً من رجال الدين لا يحسن غير القول في شؤون
الدين ولا يستطيع ان يتصرف في غيرها من الشؤون ،
ويكون مع أمثاله الذين فرض عليهم مثل ما فرض عليه
من النشاط طبقة متمتازة من سائر الطبقات ، في تفكيرها وفي
سيرتها وفي استقبالها للاحداث وتأثرها بها وحكمها عليها ؛
كل هذا جديد في الاسلام لم يعرفه المسلمون إلا بعد

أن تصرمت قرون من حياتهم واخذت أمورهم تجمد ، ثم
 تقف ثم يعلوها الصدا . وتستطيع ان تنظر في تاريخ
 الاعلام من رجال الدين في القرون الاسلامية الاولى ، فسترى
 أنهم كانوا ينشأون كما كان ينشأ غيرهم من الصبية ، ويشبون
 كما كان يشب أترابهم من الفتيان ، ويتصرفون في شؤون
 الحياة ، كما كان يتصرف فيها غيرهم من الناس . حتى اذا
 أتيح لأحدهم ان يتقن فناً من فنون العلوم الدينية ، أخلص
 له عقله وقلبه ولم يمنعه ذلك من ان يعيش عيشة غسيرة
 من العلماء ، يكسب قوته كما يكسبه غيره من الناس بالسعي
 فيما يتيح له هذا القوت من تجارة أو صناعة أو غير ذلك
 من أنواع النشاط ، فكانوا رجال دين ورجال دنيا
 لا تشغلهم دنياهم عما أحبوا من العلم ولا يشغلهم
 علمهم عما يقسم حياتهم من السعي واكتساب القوت .
 وكانوا يفكرون كما يفكر الناس لا يمتازون بتفكير
 خاص ، وانما يمتازون بعقولهم وبمما تثر هذه
 العقول مما ينفع الناس ويمتازون بقلوبهم وبما تؤثر هذه
 القلوب في سيرتهم العملية فتجعلهم أسوة حسنة وقلوة صالحة
 لغيرهم في ممارسة الحياة . والنظر في تراجم اعلام الفقهاء
 والمحدثين والمتكلمين تقنعك بهذا كله في غير مشقة ولا
 عناء . ولولا ان الفقهاء مارسوا الحياة كما يمارسها الناس
 جميعاً لما استطاعوا ان يستنبطوا لها أحكامها التي سجلت في
 الكتب ، والتي يقرأها شيوخنا وتلاميذهم الآن ، قراءة غير

متقن لها ولا محقق للواقع من أمرها ، وإنما هو كلام
تجوي به الالسة وتلور حوله الاحاديث ، فاذا حققناه لم
نجد أو لم نكد نجد وراءه شيئاً . ولولا أن المتكلمين قد
مارسوا الحياة كما يمارسها غيرهم من الناس لما عرفوا فلسفة
الفلاسفة ولا علم العلماء ، ولما استطاعوا ان يلائموا بين
حاجة الدين الى من يصونه ويرد عنه الشبهات وبين هذه
الحياة الصاخبة المختلطة التي كانوا يحبونها ، ومن حولهم
أصحاب المذاهب الطارئة والآراء الغريبة والمذاهب المختلفة
في تفسير الكون وظواهره .

ولا نعرف عالماً من علماء المسلمين في القرون الاولى
فرض عليه ان ينقطع للون بعينه من ألوان الدرس ، حتى
تضرب بينه وبين غيره من الناس بحجاب من هذه الحجب
الصفاق التي ضربت بين شيوختنا وبين العصر الذي نعيش
فيه .

واذن فقد آن لمصر من جهة ان تلائم بين حياتها
الجديدة المتطورة ، وبين ان تنشيء هذه الاجيال التي تفرغ
لدراسة الدين من أبنائها ، بحيث لا يقطع هؤلاء الابناء من
الحياة العامة ومن الظروف التي تحيط بهم ، ويكونون فريقاً
لا هو بالقديم ولا هو بالجديد ، لا هو بالمحافظ ولا هو
بالمجدد ، وإنما هو شيء مختلط يفكر كما كان الناس يفكرون
منذ قرون ويعيش في حياته المادية كما يعيش المعاصرون
له ، يركب السيارة والقطار والطائرة ويصطنع البرق والتلفون

ويُتَّعَجَبُ بالمطبعة ، فهو من هذه الناحية رجل من أبناء هذا العصر . فاذا تحدثت اليه في شأن من شؤون الحياة الواقعة لم يفهم عنك ولم تفهم عنه لأن بينك وبينه استاراً كثافاً .

هو يقلد القدماء في تفكيره ويقلد المحدثين في حياته العملية ، وقد فرض على عقله ان يعيش غريباً في وطنه وبين معاصريه ، لا لشيء الا لأنه اقتطع من بيته وزوج به في هذه الحياة الخاصة التي يحياها رجال الدين ، فانقطعت الصلة بينه وبين حياة الأمة كلها واصبح قريباً منها غريباً عنها .

والامر لا يقف عند هذا الحد ولكنه يتجاوزه الى شيء خطير جداً بالقياس الى الدين نفسه . ويكفي ان تنظر الى رجال الدين من شيونخا والى رجال الدين في البلاد المسيحية فسترى الفرق بين العجز القدرة ، وبين الحمود والنشاط ، وبين القصور والتصرف في كل شؤون الحياة . وفي مصر نفسها من رجال الدين المسيحيين من لم يمنحهم تخصصهم في علوم الدين من ان يتقنوا ألواناً من العلوم المدنية العليا : في مصر رهبان تخرجوا في مدارس الهندسة ، وفيها رهبان تخرجوا في مدارس الصيدلة ، وفيها غيرهم تخصصوا في ضروب أخرى من المعرفة المدنية وهم على ذلك قد اخلصوا لانفسهم للدين وفارقوا أوطانهم للبحث والدرس والتخصص في أشياء لا تتصل بالدين ، ولكن الدين لا يحظر عليهم

ان يتخصصوا فيها . وانا اعرف راهباً تخرج في ارقى مدارس الهندسة بفرنسا وتخصص في علوم الدين واخلص نفسه له ولم يمنعه ذلك من ان يتعلم العربية ويبحث في تاريخ الرياضة عند العرب ويقيم في مصر لهذا الغرض .

وقد عرف المصريون مديراً لمصلحة الآثار كان قسيساً . وفي مصر راهب آخر تخصص في الصيدله وله معمل صغير في الدير الذي يعيش فيه ، وقد حاضر في بعض كلياتنا المدنية ولم يمنعه ذلك من ان يفرغ للدين ويتخصص فيه ويدرس مع هذا كله علم الكلام الاسلامي والفلسفة الاسلامية ويشارك أنخسب مشاركة في نشر آثار الرئيس ابن سينا .

وقد كان علماء الاسلام في العصور القديمة ينهجون هذا النهج ويسرون هذه السيرة لا يمنعونهم تخصصهم في علوم الدين من ان يمارسوا الفلسفة وألواناً من الصناعات . فما يمنع شبابنا الازهرين ان يسلكوا سبيل القدماء من أسلافهم وسبيل المحدثين من رجال الديانات الاخرى . وان ينفعوا بذلك أنفسهم وينفعوا الناس ويشاركوا في الحياة مشاركة العالم بها الخبير بدقائقها ؟ الجواب على ذلك يسير ، وهو ان شبابنا الازهرين لا يتعلمون كما يتعلم الناس وكما ينبغي ان يتعلم الناس . أي انهم في طور الصبا والشباب يقطعون من يمتهم اقتطاعاً ويفرغون لفنون من النشاط لا تغني عنهم ولا عن مواطنهم ولا عن الدين نفسه شيئاً .

ولست أدري ما الذي ينفع شبابنا الازهرين من ان يسلكوا سبيل غيرهم من أترابهم فيتخرجوا في المدارس الابتدائية العامة أولاً ، وفيما شاء الله من المدارس الثانوية والكليات الجامعية بل من المدارس الفنية أيضاً . ثم يتخصصوا بعد ذلك فيما يشاؤون ان يتخصصوا فيه من علوم الدين .

ولم يوجد بين علماء الدين المسيحيين قسيس طيب وقيس مهندس وقيس أثري ولا يوجد أمثالهم بين رجال الدين المسلمين ؟

هذه مشكلة يجب ان تفكر فيها الدولة وان تواجهها في عزم وتصميم ، كما واجهت مشكلة القضاء وان تحلها في عزم وتصميم أيضاً ، كما حلت مشكلة القضاء . وسبيل ذلك واحدة لا ثانية لها ، وهو ان يوحد التعليم العام بحيث لا يكون هناك فرق بين من يريد ان يفرغ للدين ، ومن يريد ان يفرغ للدنيا ، وان يكون التخصص بعد اقتضاء الطور الاول . من اطوار الشباب .

هذا حديث لا أوجهه الى الازهرين لاني أعلم ان الشباب من علماء الازهر وطلابه مقتنعون به متمنون له داعون اليه ، وانما أوجهه الى الحكومة التي خطت خطواتها الاولى فوحدت القضاء ، لعلها ان تخطو خطواتها الثانية فتوحد التعليم .

بل يجب أن تكون الخطوة الثانية

احدى اثنتين ، إما ان يكون السادة الازهريون قد فهموا عني حق الفهم حين طلبت الى الحكومة ان تخطو الخطوة الثانية وتوحد التعليم الابتدائي والثانوي كما وجدت القضاء ، واذن فهم يقولون غير الحق حين يزعمون اني طالبت بالغاء التعليم الديني . لاني لم أطلب بذلك ، ولم أفكر فيه ، ولا يمكن ان أطلب به أو أفكر فيه . وليس في المقال الذي يعارضه هؤلاء الشيوخ ما يدل على اني أطلب به أو أفكر فيه .

واذن فهم قد انحرفوا عما يأمرهم به الدين من الصدق في القول والعمل ، ومن اجتناب التكلف والتريد والتصنع والتحدث عن الناس بما لم يقولوا وبما لم يدعوا اليه مسراً

ولا جهراً .

ولما ان يكون هؤلاء السادة من الشيوخ قد قرأوا فلم يستوعبوا ما قرأوا ولم يفهموه حق فهمه فخاصموا في إلغاء التعليم الديني من لم يخاصمهم فيه ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها لوهم توهموه ، واشياء اخترعوها من عند أنفسهم . واذن فهم في حاجة الى ان يقوم تعليمهم بحيث يقرأون فيستوعبون القراءة ويفهمون فيحسنون الفهم ، ولا سيما حين يكون الكلام الذي يقرأونه واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ولا التواء . وهم يعلمون حق العلم ان الحكومة حين ألغت المحاكم الشرعية ووحدت القضاء لم تلغ الشريعة الإسلامية ولم تفكر في الغائها ، وما كان لها ان تفكر في هذا الإلغاء . فاذا طالبت الحكومة بأن تخطو في سبيل توحيد التعليم خطوة مثل خطواتها في توحيد القضاء ، فليس معنى ذلك اني أطلب اليها إلغاء التعليم الديني ، وإنما معناه اني اطلب اليها اصلاح هذا التعليم بتمكين الاجيال الناشئة من ان تتفق وتتقارب في الشعور والثقافة ومقومات الحياة العقلية ، لتفهم الدين حق فهمه حين تنهياً للتخصص فيه ، ولتنهض بأعبائها الدينية عن فقه صحيح لها وبصر دقيق بها واخلاص صادق في اداء واجباتها للدين أولاً وللمسلمين بعد ذلك . فأين يكون هذا من المطالبة بإلغاء التعليم الديني كما تكلف الشيوخ ؟ والحكومة بالطبع لم تقصد الا الى الإصلاح حين وحدت القضاء . رأت في ذلك منفعة للناس

ودقة في تحقيق العدل ووسيلة الى تحقيق الوحدة بسين
المواطنين في الاستمتاع بهذا العدل . فاذا بيتنا لها ان توحيد
التعليم الابتدائي والثانوي في الوطن الواحد وسيلة الى الاصلاح
وضرورة من ضروريات هذا الاصلاح ، لم نأثم في ذات
الدين ولم نأثم في ذات الحكومة ولم نأثم في ذات الازهر
نفسه ، إلا أن تكون المطالبة باصلاح الازهر اساءة اليه
وجناية عليه واثماً يكرهه الله ويكرهه المسلمون .

وما أعرف وما أظن مسلماً يعرف ان للازهر عصمة
دينية أو غير دينية - تجعله فوق الاصلاح وتجعله مصوناً
يعاقب الداعون الى اصلاحه بالشتم والتنقص . ومن يلري
لعلمهم ان يعاقبوا بالمحاكمة أيضاً أمام مجلس من هذه المجالس
الازهرية التي تستبيح لنفسها ان تحاكم الناس على الخطأ
في الرأي ، وتصيب عليهم العقاب لانهم رأوا ما لا يجب
الشيوخ .

وقد حاول الناس اصلاح الازهر من قبل ، وقيل فيهم
مثل ما يقال الآن في الدين يدعون الى الاصلاح . وقد
مضى وقت كانت محاولة الاصلاح للازهر كفراً ، وكان
التفكير فيه اثماً ، وكان الكيد فيه للمصلحين مظهراً من
مظاهر النصيح للدين . والناس لم ينسوا بعد قصة الاستاذ
الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله . ولكننا كنا نظن ان
هذا العصر قد انقضى وان الناس يستطيعون الآن ان يطالبوا
بالاصلاح في الازهر كما يطالبون بالاصلاح في الجامعات

وغيرها من معاهد التعليم .

ولست أدري متى يفرق الازهريون والشيوخ منهم خاصة بين أنفسهم وبين الدين ، بل لست أدري متى يفرق الازهريون بين الازهر الشريف نفسه وبين الدين . فالازهر معهد من معاهد العلم لا أكثر ولا أقل ، يجوز عليه ما يجوز على هذه المعاهد ، ولا يعصمه تخصصه بتعليم الدين من أن يتعرض للخطأ ومن أن يصيبه الضعف ومن أن يطالب الناس باصلاحه : ليرأ من الخطأ والضعف جميعاً بمقدار ما يتباح لأعمال الناس ان تبرا منها . ومن العناء حقاً ان نضطر بعد مضي السنين الطوال الى ان نبديء ونعيد في الاشياء البدئية ، لان قوماً لا يفهمونها أو لا يريدون ان يفهموها . وليس أدل على حاجة الازهر الى الاصلاح والى الاصلاح بتوحيد التعليم خاصة ، من هذه الخصومة المضحكة المحزنة بين الشيوخ وبينى حول هذا الموضوع . فلو قد تعلم الشيوخ كما يتعلم الناس لما كتب كتابهم هذه الاحاديث ، ولما فهموا ان المطالبة باصلاح الازهر دعوة آتمة الى الغاء التعليم الديني . ولو قد تعلم الشيوخ كما يتعلم الناس لما قال قائلهم : انه وزملاءه قد درسوا العلوم المدنية مفصلة كما لم يدرسها أحد . فدرسوا الحساب والجبر والمنطق والجغرافيا باقسامها الطبيعية والسياسية والاقتصادية ، ودرسوا علم الحيوان بفروعه كلها واجروا عمليات التشريح في المعامل ، ودرسوا الطبيعة والكيمياء . ودرسوا علم

النفس التربوي والاجتماعي والجنائي ، ودرسوا الفلسفة
القدمية والحديثة ، والمنطق القديم والحديث ، وعلومًا أخرى
لا أكاد أحصيها. ولست أدري إن صح هذا كله ماذا تنتظر
الحكومة ، وما لها لا تلغي جامعاتها ومدارسها ومعاهدها
على اختلافها وتحول التلاميذ والطلاب جميعاً الى الازهر
ليدرسوا فيه هذه العلوم ، وغير هذه العلوم ، مفصلة كما
لم يدرسها أحد وليتخصصوا مع هذه العلوم كلها في علوم
الدين واللغة على اختلافها ، ليكون كل واحد منهم دائرة
من دوائر المعارف تغلو وتروح وتذهب وتجيء وتملا
الارض كلها علماً بعد ان ملئت جهلاً .

لو تعلم الازهريون كما يتعلم الناس لما قال قائلهم
مثل هذا الكلام الذي لا يقوله عالم جدير بهذه الصفة .
فالعالم الصحيح يمتاز قبل كل شيء بأنه يشعر دائماً بالقصور
والتقصير ، ولا يضيف الى نفسه هذه الاحاطة الكاملة الشاملة
التي لا تتاح لعالم من العلماء .

من أجل هذا كله نطالب باصلاح الازهر وبتوحيد
التعليم الثانوي والابتدائي في الدولة كلها ، على ان يفرغ
للتخصص في علوم الدين من يريد ، وعلى الا يكون التخصص
في علوم الدين مانعاً لصاحبه من المشاركة في حياة الناس
العملية والعقلية ان شاء الله .

والعالم الصحيح يتجنب الخوض فيما لا يحسن ، وليس من
الحق في شيء ان التخصص في علوم الدين المسيحي يسير

قريب المنال كما يظن ذلك الشيخ الجليل ، وإنما الحق أن علوم الدين المسيحي عميقة واسعة متناثرة الاطراف بعيدة المنال تكلف أصحابها جهوداً لا تخطر للشيخ وامثاله على بال . ولكن نقص التعليم في الازهر هو الذي أتاح للشيخ أن يقول مثل ما قال . ولو قد تعلم الشيوخ كما يتعلم الناس ، لما توهّموا أن المطالبة بتوحيد التعليم تعرض حفظ القرآن للخطر . ففي الأرض بلاد اسلامية ليس فيها الازهر ، وليس للازهر عليها سلطان ، ولم يهمل فيها مع ذلك حفظ القرآن ، ولم تهمل فيها مع ذلك علوم الدين . ولكن الشيخ يرسل الكلام ارسالاً في غير تحفظ ولا احتياط ، لا شيء الا لأنه يتعلم كما يتعلم الناس وإنما عاش وما زال يعيش في القرون الوسطى ، والناس يحبون في العصر الحديث ، وهو بالطبع قد عرف من هذه العلوم التي ذكرها وذكرها غيره من زملائه أسماؤها وظاهراً من أطرافها ولكنه لم يتعمق شيئاً منها ولم يدرسها مفصلة ، ولو قد فعل لما قال هذا الذي يقول .

والامر بعد ذلك أيسر من كل هذا الخصاص الذي لا يفيد ولا يغني عن أحد شيئاً . فإذا كان التعليم الابتدائي والثانوي في الازهر مطابقين بالفعل للتعليم في مدارس الدولة في كل ما يتصل بالعلوم المدنية ، فقيم تعدد الشهادات والاجازات ؟ ولم لا يتقدم الازهريون إلى امتحانات الدولة ليظفروا بشهاداتها واجازاتها ويشاركوا في تعليمها العالي لا

يُتردّدون عنه ولا يحال بينهم وبينه ؟
وما مصلحة الأزهر في أن يفرد بالاشراف على ما لا
يحسن من العلم ؟ وما يمنع الأزهر من أن يخضع في هذه
العلوم المدنية لاشراف الدولة ونصحها وتوجيهها ليفتح
لطلابه أبواباً من النشاط ما زالت مغلقة دونهم ؟ والدولة
بعد ذلك ليست غريبة عن الأزهر . فالأزهر مصري ،
والدولة مصرية ، وللدولة السيطرة على التعليم كله في أرض
الوطن ، وفيه التعليم الأجنبي . فمن أين يتاح للأزهر هذا
الامتياز الذي يضر أبناءه ولا ينفعهم ، يضرهم في حياتهم
العملية والعقلية جميعاً .

والدولة تنفق على الأزهر وترسل اليه المعلمين السنيين
يلتزمون لابنائهم العلوم المدنية ، فما يمنعها من أن تشرف
على هذا التعليم لتستوثق من أنه يحقق المصلحة الوطنية التي
تقوم عليها وترعاها وتنفق عليها أيضاً ؟
ألا يوافق الشيوخ على أن هذا من الأوليات التي لا
ينبغي أن تكون موضوعاً للخصام فضلاً عن الجدل وفضلاً
عن الشتم وإطالة الألسنة ؟

والغريب أن يظن الأزهريون أنني أجهل مكانة الأزهر
وخطره في الحياة المصرية خاصة وفي الحياة الإسلامية عامة .
ولو قد قرأوا بعض ما نشر لي من الكتب لعرفوا أنني
سيفتهم جميعاً إلى التنويه بمكانة الأزهر وتنبيه الدولة إلى
أنه نجد لمصر يجب أن يرعى وأن تشمل العناية الكاملة من

الحكومة والشعب جميعاً . ولكن الشيوخ يدرسون العلم كله مفصلاً ولا يقرأون ما يكتب عن معيهم وينشر في اقطار الأرض ويترجم إلى بعض اللغات الحية الكبرى . ذلك فيما أعتقد لأنهم لا يتعلمون كما يتعلم الناس .

ليصدقني الشيوخ ولتصدقني الحكومة قبل الشيوخ ان توحيد التعليم الابتدائي والثانوي واجبٌ وطني لا ينبغي التقصير فيه ولا التأخير في ادائه . وشباب الأزهرين شيوخاً وطلاباً يريدونه ويطالبون به ويلحون فيه . فلتخط الحكومة خطواتها الثانية وليس عليها في ذلك بأس ولا جناح :

الخطوة الثانية وإن غضبَ الفاضلون

عفا الله عن هؤلاء الشيوخ الاجلاء من علماء الأزهر الشريف الذين يجادلون في الخطوة الثانية فيسرفون على أنفسهم وعلى قرائهم في الجدال ، وهم يقرأون في كتبهم ان الله لا يحب الاسراف وان خير الأمور أوساطها وان المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

وهم حين يسرفون على أنفسهم وعلى الناس لا يخالفون عن أصول الانحلاق التي تستحب للرجل الكريم ولا سيما حين يكون من رجال الدين فحسب ، وإنما يخالفون عن أمر الدين نفسه وهم يتلون قول الله عز وجل « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب فلا تعقلون » . ذلك ان الدين يأمرهم بالا يقولوا على الناس غير

الحق وهم يقولون عليّ غير الحق حين يلحون في اني
أطالب بالغاء التعليم الديني في مصر .

ومع اني قد الححت في اني لا أطلب بالغاء هذا التعليم
الديني ولم أطلب به قط ، فهم ما يزالون يبدئون ويعيدون
في هذا الكلام لأنهم لا يريدون ان يحقوا حقاً أو يبتلوا
باطلاً كما يريدهم الله على ان يفعلوا لأنهم من رجال
الدين ، وانما يريدون ان يشنعوا ويشهروا ويشيروا الناس
ويذكوا غيرتهم على الدين وحرصهم على رعايته وحمايته .
يفعلون ذلك وهم يعلمون حق العلم انهم يخالفون عن حق
ويخالفون عن أمر الدين ، ولا يعنيه إلا أن يشفوا
صدورهم من صديق للازهر يروونه له خصماً .

وشيوخ الازهر لا يقفون عند هذا الحد ، ولكنهم
وشيخهم النمر خاصة يورطون أنفسهم في إثم آخر لا يحبه
الله ، وقد عاب به قوماً لا أذكرهم هنا لأنني لا أريد
أن اسوء الشيوخ ولكنهم يعرفونه حق معرفتهم لأن الله
يقول لهؤلاء القوم : « افترسوا بعض الكتاب وتكفرون
ببعض » .

ويقول فيهم أيضاً : « وهم يسمعون كلام الله ثم
يحرفونه من بعد ما عقلوه » . وقد كتبت مقالين عن هذه
الخطوة الثانية لم أذكر فيها تصريحاً ولا تلميحاً أغلاق الأزهر
ولا الغاء التعليم الديني فيه ولا الغاء التعليم الديني في غيره
من المدارس والمعاهد على اختلافها . فما حكم الله في اولئك

الذين يقرأون كلام الناس ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه
وهم يعلمون ١

وما حكم الله في شيخ منهم يريد أن يخاصمني بكتاب
من كتبي فينشر في «الجمهورية» فصلاً طويلاً عريضاً يزعم
فيه أن الدكتور طه يرد على الدكتور طه . ثم يروي جملاً من
كتاب «مستقبل الثقافة» يختزلها اختزالاً مما قبلها وما بعدها
لا يريد بذلك إلا التشنيع والتشهير وإثارة الناس ، وهو يعلم أن
اختزال الكلام على هذا النحو تعمد لإفساده وتعمد للوقوع
في هذا الأثم الذي لا يحبه الله من المؤمنين الصادقين ؟
والشيخ النمر تفوق في الخطف . وكنت أظن أن آفة
الخطف لم تصل إلى الأزهر بعد وإنما آفة مقصورة على
بعض الذين يتعجلون حين يكتبون في الصحف ، لا يتعمدون
إساءة ، وإنما يعجلهم الوقت عن القراءة المستأنية والتثبت في
الفهم والنقل جميعاً . فقد أثبت لنا هذا الشيخ أنه خاطف
بارع يحسن اختزال الجمل كما يحسن تحريف الكلم عن
مواضعه ، يريد أن يصورني فانياً في حضارة الغرب موثقاً لها
على كل شيء طالباً إلى الناس أن يفتنوا فيها . وهو يعلم حق
العلم أنني قد دافعت عن الحضارة الإسلامية وعن الثقافة
العربية ، كما لم يدافع عنها إلا الأقلون من غير شيوخ
الأزهر . وهو يعلم أن لي في الدفاع عن الحضارة العربية والثقافة
الإسلامية وعن الإسلام نفسه مواقف لم يقف مثلها هو ولا أمثاله
من الأزهرين ، لأنني لا أناصم المسلمين عن الإسلام وإنما

أخصم عنه غير المعلمين في غير موطن من أوروبا ، ولأنني قد أرمى في بعض البيئات الأوروبية بالتعصب للإسلام على حين يقوم هو وأمثاله من الشيوخ مقامات أكرهها لنفسي ويكرهها الله لمن يحب من عباده . فأنا لا أكفر مسلماً ولا أغري به ولا أثير عليه ولا أحاكم على الخطأ ولا أعاقب فاسيء العقاب ، والشيخ يعرف من الذين يفعلون هذا كله ويفعلونه باسم الإسلام ، والإسلام منه بريء .

والاستاذ الشيخ نمر الذي يحاجني اليوم بكتاب «مستقبل الثقافة» بين اثنتين كلتاها شر . فأما أن يكون قد قرأ هذا الكتاب قراءة مستوعب له مستقص لما فيه ، واذن فقد تعمد إهمال ما فيه من خير صريح لا لبس فيه ولا غموض إلى جانب اختزاله لما نقل من هذا الكتاب على نحو مهين لمن يتورط فيه ، وأما أن يكون قد القى على هذا الكتاب نظرة خاطفة ومد إليه يداً مختلصة تلمس ما ينفعه بعد التحريف والاختزال ، وترك عن عمد ما يلزمه الحججة ويقم عليه البرهان ويضطره إلى الصمت ، لأنه يبين له ولغيره من الشيوخ أن الخطوة الثانية التي أدعو إليها الآن شيء قديم طالبت به منذ أعوام طوال قبل أن تثار الحرب العالمية الأخيرة ، وطالبت به في كتاب «مستقبل الثقافة» نفسه وفي صفحات منه طوال لم تصل إليها عين الشيخ ولا يده لأنه لم يقرأ الكتاب ، وإنما خطف منه متعجلاً ما ظن أنه ينفعه فيما يعمد إليه من التشهير والتشنيع

والسعي إلى السوء الذي لا يسعى إليه رجل الدين . وانا
ناشر للشيخ وأمثاله هذا الفصل الذي اختصت به الأزهر
في مستقبل الثقافة ليقرأه في الجمهورية بعد أن تعدد الا
يقرأه في موضعه من الكتاب . والفصل يقع في صحيفة
٣٥٠ إلى صحيفة ٣٥٧ .

« وفي مصر لون من ألوان التعليم العالي لا بدّ من ان
تقف عنده وقفة قصيرة لتكون دورتنا حول الثقافة في
مصر محيطة بها من جميع أقطارها ، وهو التعليم الديني
في الأزهر الشريف . وقد عرضنا للأزهر أثناء هذا الحديث
غير مرة واطلنا الوقوف عنده أحياناً . ولكننا نحب ان
نسجل هنا اننا مؤمنون بأن الأزهر في تكوين الثقافة
أعظم خطراً وأبعد أثراً في حياة مصر خاصة وفي حياة
العالم الاسلامي عامة ، مما يظن الأزهريون أنفسهم لأسباب
مختلفة . منها ان الأزهر أكثر معاهد التعليم في مصر
وفي الشرق الاسلامي حظاً من الطلاب . فيجب أن تظفر
فيه هذه الكثرة الضخمة من الشباب المصريين والمسلمين
بثقافة ليست أقل من الثقافة التي يظفر بها الشباب في
الجامعة وفي مدارس التعليم العام لا من جهة الكم ولكن
من جهة الكيف كما يقال . ومنها ان الأزهر معهد
الدراسات الدينية الاسلامية وهو من هذه الجهة شديد
الاتصال ويجب أن يكون شديد الاتصال بطبقات الشعب
على اختلافها وتباينها . فهو إذن من أهم المصادر للثقافة في

مصر والشرق ويجب أن تكون الثقافة التي تصدر عنه وتتغلغل في طبقات الشعب كلها ، ثقافة راقية ممتازة ملائمة لحياة الشعب وحاجاته لا مناقضة لهذه الحاجات وتلك الحياة . ومنها ان الازهر مظهر من مظاهر المجد المصري القديم حمل لواء المعرفة في مصر وفي الشرق الاسلامي قروناً متصلة ، فيجب أن يكون حاضره ومستقبله ملائمين لماضيه المجيد ويجب أن يكون عنواناً للمجد المصري الحديث كما كان عنواناً للمجد المصري القديم .

وسبيل ذلك ان تكون الثقافة التي تصدر عنه والمعرفة التي تُطلب فيه ملائمتين أشد الملاءمة لحاجات الناس وآمالهم في هذا العصر الحديث .

ومنها ان الازهر مصدر الحياة الروحية للمسلمين ، وهو من هذه الجهة مطالب بما لا تطالب به المعاهد الأخرى . مطالب بأن يشيع في نفوس الناس الأمن والرضى والامل والرجاء ويعصمهم من الخوف والسمخطة ومن اليأس والقنوط وهو لن يبلغ منهم ذلك إلا إذا لام بين الثقافة التي تصدر عنه فتنتشر في أقطار الأرض الاسلامية وبين نفوس المسلمين وقلوبهم كما يكونها العصر الحديث وكما يصوغها التعليم المبدئي الحديث .

وليس من الخير أن يكون الأزهر حرباً على الحياة الحديثة فان هذه الحرب لا تجدي ولا تفيد وانما الخير والواجب أن يكون الأزهر ملطفاً للحياة الحديثة مخففاً

لاثقافها ملائماً بينها وبين ما يأمر الله به من الخير والمعروف
مباعداً بينه وبين ما ينهى الله عنه من الشر المنكر ..
وذلك لا يكون إلا إذا عرف رجال الدين حياة الناس
كما يحيونها واثقنوا العلم بأسرارها ومشكلاتها وما تجر على
الناس من شر وما تدفعهم اليه من أثم . وسبيل ذلك ان
يتشقف الأزهر بالثقافة الحديثة كما يتشقف بها غيره من
المعاهد ، وان يمتاز بعد هذا بما لا تمتاز به المعاهد الأخرى
من هذه الثقافة الدينية الخالصة بحيث إذا اتصل رجسالة
بطبقات الناس لم يناقضوهم ولم يباينوهم ولم يجدوا مشقة
في الوصول إلى قلوبهم والانتحاء إلى نفوسهم والتأثير في
هذه النفوس وتلك القلوب .

والشر كل الشر أن يتحدث رجل الدين إلى الناس فلا
يفهمون عنه ، لأنه قديم وهم محدثون ، وان يتحدث الناس
إلى رجال الدين فلا يفهم عنهم لأنهم محدثون وهو قديم ؛
ولا ينبغي أن يغتر الأزهر لأن الناس يسمعون له الآن
 ويفهمون عنه بعض الشيء ، فكثرة المصريين لا تزال متأثرة
بعقلية القرون الوسطى ، ولكن طبيعة الحياة ستخرجها غداً
أو بعد غد عن هذا الطور وستصوغ الأجيال الناشئة
والأجيال المقبلة صيغة حديثة أوروبية .

فلا بد من أن يجاري الأزهر هذا التطور ليكون
اتصاله بالأجيال الناشئة والأجيال المقبلة أقوى وأجدى من
اتصاله بالأجيال الماضية والأجيال الحاضرة ، ومنها أخيراً ان

الأزهر مشرق النور الديني للبلاد الإسلامية كلها . وأخص
ما يمتاز به الإسلام أنه دين الحرية والعلم والمعرفة ، وأنه
دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها
لا كما فهمها جيل بعينه ، وكما تحققها العصور على اختلافها
لا كما حققها عصر بعينه .

فالإسلام دين التطور والطموح إلى المثل العليا في الحياة
الروحية والمادية جميعاً . ويجب أن يكون رجاله الناشرون
له الدائلون عنه الداعون إليه ملائمين كل الملائمة لطبيعته
هذه السمحة التي تشجع التطور ولا تمنعه وتؤيد الطموح
ولا تأباه . وسيل ذلك ألا تكون محافظة الأزهر على
القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث .

كل هذه الأسباب تحقق ما قلناه من أن مهمة الأزهر
أخطر جداً مما يظن الأزهريون . واذن فلا بد من أن
تكون سيرة الأزهر ونظم التعليم فيه ملائمة لهذه المهمة
الخطيرة . وهذا يقتضي أولاً أن يعدل الأزهر عدولاً تاماً
عما دأب عليه من الانحياز إلى نفسه والعكوف عليها
والانقطاع عن الحياة العامة . وقد يقال إن الأزهر قد أخذ
يترك هذه السيرة ويتصل بالحياة العامة ويأخذ حظوظاً
حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها . وهذا صحيح
في ظاهره ولكنه في حقيقة الأمر غير صحيح ، فالأزهر
ما زال منحازاً إلى نفسه مستمسكاً بهذا الانحياز حريصاً
عليه . وهو من أجل هذا الانحياز نفسه يريد أن يتصل

بالحياة العامة على النحو الذي نراه الآن :
 يريد أن تكون له نظمه الخاصة واجازاته وطرقه
 الخاصة بالحياة والتعليم ، ويريد مع ذلك ان يفرض نفسه على
 الحياة العامة فرضاً ، وان يفرض نفسه باسم الدين ، وما
 هكذا يكون الاتصال الصحيح بالحياة العامة والاشترك
 فيها . إن الأزهر حين يسلك طريقه التي يسلكها في هذه
 الأيام لا يشارك في الحياة العملية والعامة وإنما ينافس فيها
 ويريد الاستئثار بها أو ببعض فروعها دون غيره من
 المعاهد . تنشئ الدولة معاهد التعليم فينشئ الأزهر معاهد
 على نحو ما تنشئ الدولة . وتنشئ الدرجات الجامعية
 فينشئ الأزهر الدرجات الجامعية ، ثم يقول للدولة هذه
 معاهدي تشبه معاهلك وهذه درجاتي واجازاتي تشبه
 درجاتك واجازاتك فينبغي إذن أن يكون الشباب الذين
 يخرجون من معاهدي ويظفرون باجازات ودرجاتي كالشباب
 الذين تخرجينهم وتمنحينهم الاجازات والدرجات ، ويجب
 ان يشغلوا من المناصب ما يشغله هؤلاء وان ينهضوا من أعباء
 الحياة العامة بما ينهض به هؤلاء . فان لم تفعل فانت ظالمة
 لرجال الدين وظالمة للدين نفسه .

وينتج عن هذا النظام ثنائي غريب في التعليم أولاً ،
 وفي اجازاته ودرجاته ثانياً ، وفي شغل مناصب الدولة ان تم
 للأزهر ما يريد ثالثاً .. وهذا شيء لا يرى في غير مصر
 ولا يلائم عقلاً ولا نظاماً .. إنما طبيعة الاصلاح ان يمتاز

الأزهر أولاً بتعليمه الديني وإن يمتاز بهذا التعليم الديني
 من الناحيتين العملية والعلمية فيهيئ شباباً للنهوض بالاعباء
 الدينية التي تحتاج إليها الحياة العامة من جهة وللتنفرد للبحث
 العلمي الخالص في شؤون الدين من جهة أخرى ، هذا
 النحو من الامتياز بالتعليم الديني والاستئثار بالمناصب الدينية
 في الحياة العامة لا غبار عليه ولا جدال فيه ، ومن طبيعته
 أن يمتاز الأزهر بإجازاته ودرجاته الدينية التي تؤهل ، لا
 نقول لشغل المناصب الدينية العامة ، بل للاستباق إلى هذه
 المناصب كما قدّمنا في شأن الجامعة . فأما إذا أراد الأزهر
 أن يشارك شباباً في غير هذه المناصب الدينية من الحياة
 العامة فحقه في ذلك واضح لا جدال فيه ، وثابت لا
 يمكن إنكاره ، لأن شباباً مصريون عليهم من الواجبات
 ولهم من الحقوق مثل ما على غيرهم وما لهم من الحقوق
 والواجبات . ولكن ينبغي أن يسلكوا إلى هذه الاعبياء
 طرقها الطبيعية وأن يدخلوها من أبوابها المألوفة أي ينبغي
 أن يتعلموا في معاهد الدولة المدنية ويظفروا بإجازاتها
 ودرجاتها المدنية ويسابقوا غيرهم من اخوانهم المدنيين إلى
 المناصب العامة . ذلك آخرى أن يلغي هذا النظام الثنائي
 الغريب وأن يحقق الوحدة العقلية في مصر ، وأن يحفظ
 لسلطان الدولة بما ينبغي له من السيطرة على الشؤون العامة
 جميعاً وعلى مناصب الدولة بنوع خاص ، هو آخرى أن
 يصل الأزهر والأزهريين بالحياة المصرية اليومية ويمزج

الأزهر والأزهريين بهذه الحياة مزجاً .

والفصل بقية لا تتسع لها صحيفة سيارة ، ويستطيع من شاء أن يقرأها في موضعها من الكتاب . وأقل ما يدل عليه هذا الذي نشرته من هذا الفصل ان شيوخ الأزهر لم يقرأوه خاصة ، ولو قد فعلوا لاراحوا الناس من هذا الاسراف الذي لا يغني عنهم ولا من الناس شيئاً .

ولي مع الشيوخ حديث آخر كنت أريد أن أسوقه اليهم اليوم ولكنني أردت أن يعلموا علم هذه الخطوة الثانية كما ينبغي فيقصروا عما يلجون فيه من التكلف والتزيد والكلام الكثير الذي لا خير فيه .

والشيوخ يندرونني اليوم في « الجمهورية » بإعلان عن مجلة الأزهر وما سيظهر فيها من أحاديث يظنون انها تخيف وتقلق ... فأحب لهم أولاً ان يعرفوا انهم لا يخيفون ولا يقلقون ، وان لنا جواباً على كل سؤال وحديثاً نرد به على كل حديث ... وكم احب ان يذكر الشيوخ ذلك البيت الذي يقرأونه في كتب البلاغة :

جاء شقيق عارضاً ومحمسه

إن بني عمك فيهم رماح

وان يقرأوا كذلك بيتاً آخر لا يقرأه منهم إلا

الاقلون :

ومن ربط الجحاش فإن فينا
قناً صلياً وافراساً حصاناً

أما بعد فعسى أن يكون هذا الكلام الواضح قريب
المنال لا يحتاج شيوئنا إلى أن يستعينوا على فهمه بشرح
أو حاشية أو تقرير ، وعندى لهم من ذلك ان أحبوا
ما يريدون ...

تعبئة

كانت رائعة هذه التعبئة الطائلة التي احتفل لها شيوخ الأزهر الشريف ، وكانت مروعة هذه القذائف التي لا يبلغها الاحصاء إلا في المشقة الشاقة والعسر العسير ، وكانت كل هذه التعبئة وكل هذه القذائف المدمرة موجهة إلى شخص واحد . والغريب أنها لم تقطع لسانه ولم تنقث صوته ولم تمنعه من الاملاء ولم تصده عن المطالبة بالخطوة الثانية ، لأن فيها اصلاحاً للأزهر ورفعاً لمكانة شيوخه وتمكيناً لهم من ان يحسنوا النهوض بخدمة الاسلام والذود عنه ونشره في أقطار الشرق والغرب جميعاً .

فشيوخ الأزهر الشريف سواء أرادوا أم سخطوا لا يؤثرون للاسلام حقه من العناية والرعاية والقيام بدوره

وإذاعته في أقطار الأرض لأنهم لا يقدرُونَ على ذلك ولأن
كواهلهم أضعف من أن تنهض بهذا العبء الثقيل .

والإسلام والحمد لله ينتشر في أقطار مختلفة من الأرض
حتى ضاق به المستعمرون وأخذوا يكيدون له الكيد ويتهاونون
لمقاومته بعد أن تبين لهم أن ما يرسلونه من البعث
المسيحية الكاثوليكية والبروتستنتية لم تستطع أن تصد الناس
عنه ولا أن ترددهم عن الإسراع إليه والدخول فيه دون أن
يهدل المسلمون في ذلك جهداً أو يحملوا فيه عناء أو ينفقوا
عليه مالا قليلاً أو كثيراً .

والبعث المسيحية تجدد مع ذلك وتكبد وتكلف العناء
وتحمل الأثقال ، ولكنها على رغم هذا كله لا تستطيع أن
تمنع أهل أقطار كثيرة في إفريقيا من أن يدخلوا في دين
الله أفواجاً لما يرون عن قرب من مباحته ويسره وتقوده
إلى أعماق الضمائر والقلوب . وأنت تستطيع أن تبحث عن
شيوخنا في أعماق إفريقيا فلن تجد منهم أحداً ، ولكنك
تجد مكانهم عشرات من الرهبان والقسس البروتستنتيين
يحاولون جاهدين أن ينشروا المسيحية في تلك البساتين
الوثنية ومعهم كثير من مغريات الحضارة فيتاح لهم من
حين إلى حين بعض ما يريدون . وفي الأرض أقطار أخرى
فيها كثير من المسلمين الذين يحتاجون إلى من يفقههم
في الدين .

ولكن شيوخنا لا يصلون إلى هذه الأقطار ولا

يحاولون الوصول اليها إلا ان تعينهم الدولة على ذلك
وتمنحهم من وسائل التيسير ومن الأجور المغرية ما يرغبهم
في المهاجرة في سبيل الله ، وهم مع ذلك يقرأون قول
الله عز وجل :

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً
وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت
فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً . »

ذلك لأنهم لم يؤهلوا لهذه المهمة الضخمة ولم يأخذوا لها
العدة وإنما استراحوا إلى حياتهم هذه الوادعة لا يزعجهم
عنها إلا منفعة تهون عليهم احتمال الازعاج والله يريد من
الذين وقفوا حياتهم وجهودهم على خدمة دينه ونشره واللوه
عنه أكثر مما يصنعون . وشيوخنا يقرأون ويفسرون لطلابهم
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات
وإنما لكل امرئ ما نوى » فمن كانت هجرته إلى الله
ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى
امرأة ينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه . »
وهذا الحديث مروي من أوثق كتب السنة ، وكثير من
العلماء المتقدمين يرقى به إلى منزلة الحديث المتواتر . فما
قول شيوخ الأزهر في الذين لا يهاجرون إلا إلى دنيا
يصيبونها ؟ وهل يستطيع شيوخ الأزهر المعاصرون أن
ينبثوا بأنباء الذين يهاجرون منهم في سبيل الله ويضربون
في الأرض لا يبتغون على ذلك أجراً غير هذا الاجسر

العظيم الذي ضمنه الله للمهاجرين الصادقين ؟... أيظن
 الشيوخ أنهم ابلوا فأحسنوا البلاء حين اتهموا مسلماً بأنه
 يكيد للإسلام ، واتهموا مصرياً بأنه عهد للمستعمرين ثم
 جردوا له هذه الكتيبة من رماهم فأطلقوا الستهم فيه
 بالباطل غير صادقين ولا ناصحين لله ولرسوله وللمسلمين ،
 وما رأي الشيوخ في أنهم يتهمون بالكيد للإسلام
 رجلاً ابلى في النود عن الإسلام خيراً مما ابلوا ، وأعلن
 اليهم ألف مرة ومرة أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه
 ورسله إيماناً لا يبلغه الشك ولا يجد إلى قلبه سيلاً وهم
 يأبون عليه ذلك ولا يقبلون منه ، وهم يقرأون ان كانوا
 يقرأون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عصم دماء
 قوم وأموالهم بعد أن كان قد أهدر دماءهم وعصم لهم
 الدماء لأن هؤلاء الناس أعلنوا اليه أنهم يشهدون ان
 لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله ؟ وما رأي شيونخا
 الاجلاء حماة الإسلام وائمة المسلمين في أنهم يخالفون عن
 سنة رسول الله ويتبعون أهواءهم ولا يتبعون إلا هله
 الاهواء ؟

وفيم كل هذا العناء ؟ وفيم كل هذا اللجاج ؟ وفيم كل
 هذا الشطط ؟ وفيم اصدار عدد خاص من مجلة الأزهر للنيل
 من رجل أراد الاصلاح وطالب به ؟ فان كان مصيباً فليس
 لهم إلا اتباعه ، وان كان غلطاً فليس لهم إلا أن يجادلوه
 بالتي هي أحسن كما أمر الله في القرآن الكريم .

من الذي أعلم شيوخ الأهر بآني سفير فوق العادة
لفرنسا أنشر لها في مصر وفي غير مصر كيدها للإسلام
والمسلمين وأثبت سلطانها على البلاد الإسلامية التي تديقها
إلوان البأس ، والعذاب ؟ من أين استقوا هذا العلم ومن
الذي أنبأهم به ؟ وهل علموا ان الله يأمرهم بالآي يطلقوا
الاستهم في الناس حتى يتبينوا صدق ما يلقي اليهم من
الكلام ؟ أقرأوا ام لم يقرأوا قول الله عز وجل : « يا أيها
الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً
بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . »

احدى اثنتين ، إما ان يكونوا قد قرأوا هذه الآية ،
واذن فقد خالفوا عنها وعصوا فيما ينشرون في مجلتهم امر
الله . واما ان يكونوا قد نسوها ولم يقرأوها . واذن فما
زعمهم انهم حفظة القرآن وحماة ؟ ام تراهم قد تجسسوا
وبلوا العيون والارصاد حتى علموا علم هذه السفارة التي
تلقيتها من فرنسا لأنشر في مصر وفي غير مصر كيدها
للإسلام والمسلمين ؟ واذن فقد خالفوا عن أمر الله مرة
أخرى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان
بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ،
أحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا
الله ان الله ثواب رحيم . »

والامر أبسر من هذا كله . فقد طالبت بتوحيد التعليم
العام في الدولة ، ولم أعرض من قرب أو بعد لتعايم الدين

في الأزهر لا في كلياته العالية ولا في معاهده الابتدائية والثانوية ، فضلاً عن ان اكون قد أردت إلى اغلاق الأزهر أو الغاء تعليم الدين واهمال حفظ القرآن . لم أعرض لشيء من ذلك لا تصريحاً ولا إشارة ولا تلميحاً ، فمن أين ابتدع الشيوخ هذا الزور الذي لجوا فيه وأرسلوا أنفسهم إلى غير غاية فيما لا يليق برجال الدين مما لا يغني عنهم ولا عن الناس شيئاً ؟

وما مصلحتهم في اثارة العامة واغراء بعض الضعفاء بالشر ؟ ألم يكن خيراً لهم أن يسألوا صاحب هذا الرأي عن الطريق التي يريد ان يسلك إلى تحقيق هذا التوحيد ، فان وجدوا في هذه الطريق ما يسوء الأزهر من قريب أو بعيد بينوا لخصمهم ما تورط فيه من الخطأ . فانا لم أطلب حتى ادماج معاهد التعليم الابتدائي والثانوي والأزهري في وزارة التربية والتعليم كما تصوروا ، وإنما طالبت بتوحيد منهج مشترك من التعليم بين المصريين جميعاً ، ووسائل هذا التوحيد عندي يسيرة جداً يمكن إنجازها في حطور قليلة .

أولاً : يظل التعليم الابتدائي والثانوي جزءاً من الأزهر كما هو .

ثانياً : يوضع منهج مطابق لمنهج التعليم العام في وزارة التربية والتعليم ويفوض على المعاهد الابتدائية والثانوية والأزهريه .

ثالثاً : تؤلف هيئة مشتركة من الازهر ووزارة التربية والتعليم للاشراف من قرب على تنفيذ هذا المنهج ، وتتخذ وزارة التربية والتعليم وسائلها للتثبت من تنفيذه بالتفتيش والمشاركة في الامتحان .

رابعاً : يوفق بين هذا المنهج وبين ما يدرس في الازهر من علوم أساسية للتخصص في علوم الدين . ويكون ذلك باصلاح المناهج الازهرية والغاء ما فيها من التزيد والتكرار ، ويحسن ان يبسر ويبسط ويستخلص منه جوهره وصفوه ، ويحسن كذلك ان تلغى كتب البلاغة ودرس البلاغة كله على النحو القديم وان يدرس مكان ذلك تاريخ النقد العربي ومذاهب النقد الحديثة في الغرب . وإذا تم هذا الاصلاح في مناهج الازهر فمن أيسر الاشياء ان يؤخذ الطلاب بحفظ القرآن الكريم وان يدرس لهم تفسيره يسيراً سمحاً لا إشكال فيه ولا تعقيد ويدرس لهم كذلك شيء من الحديث ووسائل درس الحديث خاصة ، ويعدل عن التعقيد والتطويل في درس التوحيد ويرجأ تعمقه وتعمق الفلسفة الاسلامية والفلسفة كلها إلى الكليات وما يتبعها من التخصص ودراسته العليا .

وليس بد من أن يدرس الفقه مع شيء كثير بجسداً من التيسير والتبسيط وتحديد أساليب الدرس ؟ وإذا نظم التعليم الابتدائي والثانوي في الازهر على هذا النحو وقويت فيه العناية باللغة العربية وأديها فليس من شك في أن

للشهادة الثانوية للآزهر ستكون أقوم جداً من الشهادة
الثانوية التي يظفر بها طلاب المدارس المدنية . وستكون
أجلر بأن تفتح لطلاب الأزهر أبواب التعليم العالي في
الجامعات والمعاهد على اختلافها :

وستعترف الدولة لها بهذه القيمة الممتازة ، وسيقبل
الناس على ارسال أبنائهم إلى الأزهر اقبالاً أشد وأقوى
من اقبالهم عليه إلى الآن ، لأن التعليم في الأزهر حيثئذ
سيفتح لشبابه أبواب الدراسات الدينية والدنيوية ، وسيكون
هؤلاء الشباب ملهمين المأماً حسناً بمقدار مجزٍ من العلوم التي
تنفعهم في دينهم ودنياهم جميعاً . ستتيح لهم أن يقبلوا
على التخصص في علوم الدين وهم أعظم قدرة على فهمها
وذوقها وتعمقها والانتفاع بها وتقع الناس بها أيضاً ،
وسيقبل بعضهم على الدراسات المدنية وقد احسنوا فقه الدين
وذاقت قلوبهم حلاوته وأشعرت ضمائرهم حبه وحصنت
نفوسهم من التورط في كثير من الشر الذي يتعرض له
الشباب الذين يخرجون من المدارس المدنية .

أيرى شيوخ الأزهر ان من يطالب بهذا النوع من
الاصلاح كائدٌ للدين ينبغي له الغوائل ، مسيٌ إلى الأزهر
عمهد لالغائه وطمس ما ينبغي ان يشرق عنه من هذا النور
الوضاء الذي لن ينفع المسلمين وحدهم بل سينفع معهم
قوماً آخرين ؟

ألا يرى الشيوخ أنهم كانوا في حاجة إلى شيء من

الاناة والريث وإلى شيء كذاك من البحث الهادى
والمناقشة المطمئنة ليصلوا ولنصل معهم إلى الحق الذي ينبغي
ان نسعى اليه جميعاً ؟ ولكن الله يضل من يشاء ويهدي
من يشاء ، ومن يضل الله فلا هادي له ومن يهد الله
فلا مضل له .

وصلى الله العظيم ... انك لا تهدي من أحييت ولكن
الله يهدي من يشاء .

فهرست

صفحة

٥	•	•	•	•	•	•	•	خطأ التقدير
١٧	•	•	•	•	•	•	•	العائد
٣٤	•	•	•	•	•	•	•	مضى القطار في مواعده
٤٦	•	•	•	•	•	•	•	الربوة المنسية
٦١	•	•	•	•	•	•	•	القرية الظلمة
٧٩	•	•	•	•	•	•	•	الصراع
٩٠	•	•	•	•	•	•	•	من أدبنا الحديث
٩٦	•	•	•	•	•	•	•	المطولة : رد قلبي
١٠٨	•	•	•	•	•	•	•	من أدبنا الحديث
١١٥	•	•	•	•	•	•	•	من أدبنا الحديث
١٢٥	•	•	•	•	•	•	•	أنا الشعب
١٤١	•	•	•	•	•	•	•	شهر يار

صفحة

١٥٢	• • • • •	صبح النوم
١٦١	• • • • •	من تاريخ الشعر العربي
١٧٣	• • • • •	حديث الجوع
١٨٠	• • • • •	وما زال الغيث منهمراً
١٨٨	• • • • •	والفلسفة
١٩٧	• • • • •	مثل
٢٠٥	• • • • •	واجب
٢١٣	• • • • •	نعم واجب
٢٢١	• • • • •	حق الخطأ
٢٣٣	• • • • •	حتى بعد الحكم
٢٤٢	• • • • •	الخطوة الثانية
٢٥٠	• • • • •	بل يجب أن تكون الخطوة الثانية
٢٥٨	• • • • •	الخطوة الثانية وإن غضب الغاضبون
٢٧٠	• • • • •	تعبئة

٢٥٨ ثانية / ١ / ٦٠

منظومة كتاب العبد المذنب
مجددات

صدر عن دار العلم للملايين

للدكتور طه حسين

ق.ل

- | | | |
|-----|--------------------|-------------------------|
| ٢٠٠ | (الطبعة الثالثة) | • مرآة الضمير الحديث |
| ٢٠٠ | (الطبعة الثانية) | • بين بين |
| ٣٠٠ | (الطبعة الثانية) | • خصام ونقد |
| ٣٠٠ | (الطبعة الثانية) | • نقد واصلاح |
| ٢٠٠ | (الطبعة الثانية) | • أحاديث |
| ٢٥٠ | | • رحلة الربيع والصيف |
| ٢٥٠ | | • من لغو الصيف |
| ٢٥٠ | | • من أدب التمثيل الغربي |

تطلبه كتبة دار العلم للملايين

في العراق : من مكتبة النهضة - بغداد
في الاقليم السوري : من مكتبة السوري -

الثمان ٣٠٠ ق.ل او ما يعادلها